مجلة شهرية . العدد الثالث والتسعون . السنة الثامنة . أكتوبر ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 93 - October 2006

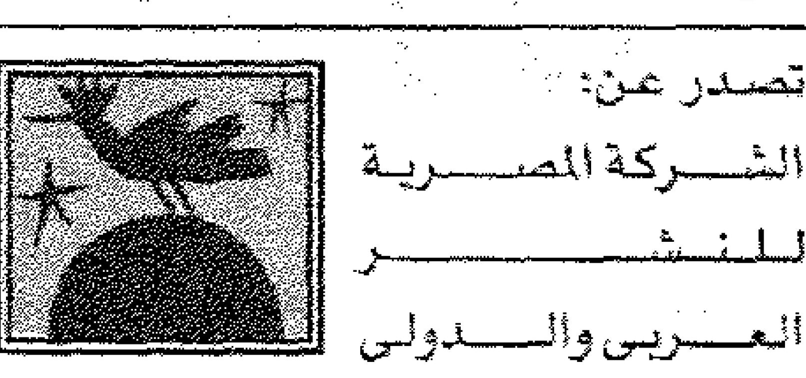
السنة الثامنة
العدد الثالث والتسعون
أكتوبر ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

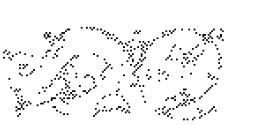
رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

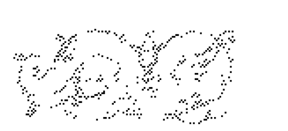
محتويات العدد:

كتاب العدد:

- خيري منصور .. كاتب عربي.
- روبرت سكيدلسكي.. أستاذ الاقتصاد بجامعة ووريك بإنجلترا
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي
- عبد الصبور شاهين.. أستاذ بكلية دار العلوم.
- عزام التميمي.. مدير معهد الفكر السياسي الإسلامي - لندن
- عفاف عبد المعطي.. ناقدة ومترجمة.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- محمد السطوحي.. صحفي مصري مقيم في واشنطن.
- محمد السعيد مشتهري.. مدير مركز بحوث ودراسات القرآن الكريم
- محمد مزالي.. الوزير الأول للجمهورية التونسية الأسبق.
- محمد المهدي... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- نجيب محفوظ.. روائي مصري راحل.
- هشام السلاموني.. ناقد أدبي وفني.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.
- يحيى الرخاوي.. أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - سعد الدين شحاتة
Daryle Cagle - Angle Boligan
صورة الغلاف: جمال الغيطاني





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

سلامة أحمد سلامة

الاعتذار عن الماضى.. أو تقشير البصل

■■ مغالبة الماضى واستحضاره، واستعادة تفاصيله وذكرياته، وإعادة النظر فى شخوصه وأفكاره، والاعتراف بما انطوى عليه من انتصارات وهزائم، وما أقدم عليه المرء من نزوات أو جرائم فى حق نفسه أو فى حق الآخرين.. هى جزء من ثقافة الاعتراف وطلب الغفران التى تدعو إليها الأديان، والتى ترجع فى الأساس إلى ثقافة التطهر من الآثام والاعتذار عن الماضى.. حيث تصبح عملية التطهر طقسًا فكريًا واجتماعيًا ودينيًا، أشبه بالنزول إلى مياه النهر فى بعض العبادات الهندوسية، التى يغتسل المرء فيها من ذنوبه ليعود كيوم ولدته أمه.. أو مثل شعيرة الحج عند المسلمين.

ولعل الأدباء والكتاب هم أكثر الناس خوضًا لهذه التجربة، التى يمتحن الكاتب فيها وجدانه ويستبطن مشاعره وذكرياته كلما أوغل فى التفكير والتأمل، واحتك بالأحداث والمتغيرات التى تحيط به. فهو يستمد من أعماق تجاربه الذاتية ما وعته الذاكرة وما نسيته أو تعمدت نسيانه.. ويظل هذا الصراع بين ذكريات وخبرات يحاول أن يتذكرها ويحاول فى آن معًا أن ينساها، بحثًا عن نقطة التوازن الداخلى التى تحقق له الاقتناع بأن ما ارتكبه من فعل كان صحيحًا فى وقته ومكانه، إرضاء لما يسميه الفلاسفة بالضمير الأخلاقى، أو ما تعتبره الأديان اعترافًا بالذنب طلبًا لمغفرة الذات العلية.

غير أن هذا التفاعل الداخلى سرعان ما يتحول ويتحور فى أعماق الأديب أو المفكر إلى مصدر للإلهام الفنى والإبداع الأدبى والفكرى، الذى يتخذ شكل «السيرة الذاتية». يستعرض فيها الكاتب مراحل حياته وتقلباته، ونجاحاته وانكساراته، وتكوينه وتحولاته، وشذرات كاملة أو مبتسرة من تجاربه الشخصية. تستمد قيمتها الأدبية والتاريخية من عناصر متعددة.. أهم ما يميزها أن تكون على درجة عالية من الصدق والتلقائية بغير تصنع أو زيف. وأن تلقى على شخصية الكاتب أو المبدع فى نشأته ومجتمعه والحقبة الزمنية التى عاشها من الأضواء والأجواء ما يسهم فى فهمها وإدراك أبعادها، وتقييم أحداثها..

إن كاتب السيرة الذاتية، سواء كان أديبًا أو مفكرًا، سياسيًا أو علمًا من أعلام عصره، يظل فى الحقيقة صندوقًا مغلقًا على أسرار وخفايا قد لا تتكشف لمعاصريه أو لمن بعدهم، ما لم يمتلك صاحبها من جسارة الروح وشجاعة العقل التى يفض بها مغاليق هذا الصندوق الذى أودعه أسرار طفولته وشبابه، ومجمل حياته، ودقائق تجاربه العاطفية ومشاعره الحميمة. وهو يعلم تمام العلم أنه يقدم نفسه قربانًا للحقيقة، غير نادم ولا عابئ بسهام النقد والتجريح والتشكيك، التى قد تأخذ منه أكثر مما تعطيه، وتظلمه أكثر مما تنصفه، حيًا وميتًا.



وقد كانت هذه على الأرجح هى الحالة التى مر بها الكاتب والأديب الألمانى الشهير، الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٩، جونتر جراس، أحد كبار الروائيين المعاصرين الذى سيطر على المشهد الثقافى الألمانى طوال سنى ما بعد الحرب. ومازال يعتبر أفضل من عبر فى كتبه ورواياته ومقالاته ومسرحياته عن الوجدان الألمانى بكل آلامه وجراحه، وآماله وأشواقه فى أعقاب سقوط النازية واندحارها وهزيمة ألمانيا فى الحرب.

فجأة أعلن جراس فى اعتراف مثير أحدث صدمة فى ألمانيا وفى العالم أنه انضم إلى قوات الحرس الخاص المعروفة بالـ S.S، أشد القوات النازية شراسة وقسوة فى عهد هتلر، عندما كان فى السابعة عشرة من عمره. وهى فترة وجد نفسه خلالها يتنفس أفكار المثالية الألمانية التى انحرفت تحت وطأة التأثيرات النازية التى سادت فى تلك الحقبة. والتى كانت تعلى من روح النظام والجدية والعسكرية، وتبحث عن العبقرية الفردية التى تؤكد قيم العنصرية ونقاء الجنس، وتقدس معانى القوة والتفوق، وهى حقبة ملتبسة، سادت فيها أفكار ونظريات ملتبسة، انتشرت وذاعت فى أوروبا والعالم، وأثارت من الجدل والنقاش أمواجًا من العداء والكراهية والحروب التى مزقت أوروبا، وقسمت شعوبها، وأريقت بسببها دماء لم تخلف وراءها غير التعاسة والشقاء.



عندما أعلن جونتر جراس هذه الحقيقة فى شهر أغسطس الماضى، ظن الكثيرون أنها مجرد حيلة دعائية وتدافعت الشكوك من كل حدب وصوب.. «إنه على أهبة نشر كتاب جديد وهو يحاول لفت الأنظار إليه بهذه الخدعة.. إنه أسلوب رخيص لتسويق كتابه». لم يصدق الكثيرون أن مثل هؤلاء المشاهير يمكن أن تكون لهم أخطاؤهم وسقطاتهم، وأن ماضيهم لا يخلو من العثرات والفضائح والأسرار المخزية.

ولكن الذين افترضوا أن يقدم جراس على اصطناع هذه الحيلة التى يمكن أن تدمر مستقبله ومكانته، لم يدركوا أن إقدامه عليها لم يكن من أجل ترويج كتابه، بل من أجل إنقاذ سمعته وما أنجزه فى حياته من مجد أدبى ومكانة أخلاقية شكلت شخصيته ورسمت صورته فى أذهان الناس عبر جهد إبداعى شاق متصل، وضعه فى مكان الصدارة العالمية.

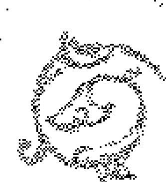
فقد فرض المناخ الذى ساد ألمانيا بعد الحرب على كتابها ومبدعيها شروطًا ومطالب، وضعتهم فى قلب «أزمة الضمير» الذى كان على ألمانيا وشعبها أن يواجهها، وهى عقدة الشعور بالذنب إزاء الكارثة التى حاقت بالعالم من جراء إشعال الحرب العالمية الثانية، وظهور النازية التى دمرت أوروبا وأذلت شعوبها وارتكبت فيها من الفظائع والأهوال ما وضع الشعب الألمانى فى عداد الشعوب المارقة المحكوم عليها بالعزلة والاستبعاد والإقصاء من الجماعة الدولية. ولم يكن بوسع أديب أو مفكر أو سياسى أو أى شخصية عامة أن يلقى أدنى قدر من الاعتراف أو القبول حتى على المستوى الإنسانى، ما لم يعلن براءته من هذه الحقبة النازية وإنكاره لأفكارها ومبادئها، وتنصله من كل ما له علاقة بها. ويمكن القول بأن جيلاً أو أكثر من جيل توارى واختفى من الساحة، أو هاجر إلى أصقاع بعيدة فى أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا هربًا من محنة الذل والهزيمة وإلصاق الجرائم والفظائع التى ارتكبت فى ميادين الحرب بألمانيا وشعبها. ومازالت جذور هذه الكراهية المشوبة بالخوف والتربص والحذر تلون علاقة ألمانيا بجيرانها وحلفائها حتى هذه اللحظة.

ويدهش المرء إذ يرى أنه بعد أكثر من نصف قرن على مأساة الحرب العالمية الثانية، تغير خلاله العالم تغيرًا جذريًا، قامت إمبراطوريات وسقطت إمبراطوريات، ونشأت دول وتفككت دول، وأقيمت تحالفات واندثرت معسكرات، مازالت المخاوف والشكوك كامنة تحت سطح كثير من التعاملات والمواقف الدولية، متأثرة بما خلفته الحرب العالمية الثانية من أطماع وأحقاد وضغائن. ولهذا لم يكن غريبًا أن تدور معظم الحوارات التى أجريت مع كتاب ألمانيا وأدبائها ومفكريها خلال هذه الفترة - حول آرائهم السياسية ومواقفهم من أحداث

لا يذكر جراس إن كان قد اختار قوات الـ SS بمحض إرادته أم أنه أُرسل إليها، ولكنه فى اعتذاره عن الماضى وإزاحته الستار عن هذه السقطة المريعة فى صباه، يستخدم أسلوب «تقشير البصل» فى إزالة لفائف الغموض الهشة المتراكمة طوال سنى الانكسارات والدموع والمعاناة التى مر بها



عالمية مثل قضايا التسلح والسلام الدولى والأسلحة النووية وعلاقات الشرق والغرب والحرب الباردة وسياسات نيكسون وبريجنيف وفيلى برانت وغيرها من عشرات المشاكل والأزمات التى شهدها العالم.



ولم يكن جراس فى بداياته معنيًا بالسياسة وقضاياها. وبقيت رواياته الأولى بعيدة عن الغوص فى مشاكلها، ولكنه بمرور الوقت حاول أن يرتبط بقضايا عصره وانضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى، ودخل فى مجادلات سياسية دافع فيها عن صديقه المستشار الألمانى الراحل فيلى برانت فى معاركه السياسية التى خاضها ضد اليمين الألمانى المحافظ. وفى نفس الوقت لاقت رواياته «طبل من صفيح» و«القط والفأر» و«ثلاثية دانزيج» من بواكير إنتاجه رواجًا واسعًا فى ألمانيا وخارجها، حيث كانت تصور حياة أجيال طحنتها الحرب وخرجت منها مثخنة بالجراح.

وفى هذه الأجواء لم يكن غريبًا فى هذه المرحلة أن يساند جونتر جراس حق دولة إسرائيل فى الوجود عندما زارها لأول مرة فى صحبة المستشار الألمانى فيلى برانت، وأن تظهر له بعدها بعض كتابات وخطابات عن إسرائيل، لا تتضمن شيئًا عن العرب أو حقوقهم. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الموقف لم يكن مقصورًا على جونتر جراس وحده، فلم يسع المثقفون والكتاب العرب فى أى وقت من الأوقات إلى مد جسور التواصل والتفاهم مع المثقفين من رموز الأدب والفكر فى الغرب إلا فى حدود ضيقة لم تتعد بعض مشاهير الأدباء فى فرنسا، كما أن انكفاء العرب على قضاياهم وكوارثهم حال دون التعرف على إنتاجهم الثقافى والأدبى، إلا فى وقت متأخر بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل. ولم تتح لجراس فرصة زيارة دولة عربية إلا مؤخرًا، عندما شارك فى ملتقى الرواية العربية الذى عقد بصنعاء قبل نحو ثلاث سنوات بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة العربية. وفى هذه الزيارة الوحيدة لدولة عربية فتن بالعمارة اليمنية القديمة، وأسهم فى إنشاء مركز للدفاع عن التراث اليمنى المهدد، كما تدخل لدى الرئيس اليمنى على عبدالله صالح لإسقاط القضايا المرفوعة ضد الروائى اليمنى وجدى الأهدل الذى كان فارًا وملاحقًا من الشرطة لمحاكمته على روايته «قوارب جبلية».



ليس من المبالغة القول إن جراس مثل جيل بأكمله من الألمان، قد وجد نفسه مسوقًا تحت ضغط الضرورة والإكراه فى ظل حكم النازى للذهاب إلى الخدمة العسكرية حين استدعى للخدمة فى سن السادسة عشرة.

ويكشف جراس النقاب فى سيرته الذاتية التى نشرها أخيرًا بعنوان «تقشير البصل» والتى أثارت هذه الضجة، إنه لم يتطوع للانضمام إلى قوات الحرس الخاص الـ SS، الذين كانوا يمثلون مجموعة من سفاكى الدماء، الذين قاموا بأسوأ عمليات الإبادة الجماعية وإدارة معسكرات الاعتقال الشهيرة، ولعبوا دورًا مهمًا فى «الهولوكوست» المحرقة النازية التى مازالت أشباحها تطارد الشعب الألمانى حتى الآن بكل فظائعها.. ولكنه وجد نفسه ملحقًا بصفوفها على كل حال. وكانت الحرب العالمية الثانية فى شهورها الأخيرة فى ربيع عام ١٩٤٥ وبوادر الهزيمة تدق الأبواب، بينما تستدعى القيادة العسكرية مجندين من الصبية تدفع بهم إلى ميادين القتال.

لا يذكر جراس إن كان قد اختار قوات الـ SS بمحض إرادته أم أنه أرسل إليها، ولكنه فى اعتذاره عن الماضى وإزاحته الستار عن هذه السقطة المريعة فى صباه، يستخدم أسلوب «تقشير البصل» فى إزالة لفائف الغموض الهشة المتراكمة طوال سنى الانكسارات والدموع والمعاناة التى مر بها، وكأنه يدعو الآخرين لفهمه وتقدير موقفه، وهو يتعمد إضفاء مسحة من الغموض والإبهام على وعيه بالماضى.

إنها ليست خيانة الذاكرة، ولكنها حائط صد للدفاع عن موقفه عندما تأخر ستين عامًا فى الكشف عن ماضيه السياسى خلال صباه. وهو الذى بنى مجده الأدبى على دعاوى أخلاقية، نابعة من التزام بالقيم الإنسانية وداعيًا شعبه الألمانى إلى إعادة إحياء هذه القيم، والتنكر للمبادئ والأفكار التى غرستها النازية فى عقول وقلوب جيل أو أجيال لم تعرف غير الشقاء والتعاسة على يد هتلر ونظامه الفاشى. وهو من أجل وصوله إلى هدفه فى إزاحة الماضى، يقيم نوعًا من العلاقة المتوترة بين ما يقول أنه لم يقترفه: فلم يطلق رصاصة ولم يرتكب أى جريمة من جرائم الحرب أو يشارك فى أى عمل من الفظائع التى عرفت عن قوات الحرس الخاص، وبين أسباب صمته طوال هذه السنوات، فلا يبوح بها إلا بعد أن هدأت العواصف وسكنت النفوس وتبددت المخاوف وتغير المشهد الأوروبى والعالمى بأسره.



غير أن هناك من يرى قصة جراس بعيون أخرى.. فهذا الكاتب العملاق الذى بنى مجده الروائى عبر خمسة عقود من الجهد والعرق، لم تغب عن طموحاته منذ البداية جائزة نوبل. وقد أدرك أنه الوحيد الذى يستحقها من بين مجايليه، ولكنه رأى كيف أن زيارة واحدة قام بها الأديب الأرجنتينى الشهير خورجى ل. بورجيس لديكتاتور شيلى بينوشيه، كلفته ثمنًا باهظًا فاستبعد من الترشيح للجائزة.. فهل كان من الممكن لشخص خدم فى الحرس الخاص لهتلر أن تتاح له هذه الفرصة؟

ولكن بعد أن حصل جراس على نوبل عام ١٩٩٩، واستقر به المقام شخصية أدبية مرموقة ومعترفًا بها على الصعيد الألمانى والعالمى، بدأت تؤرقه أشباح الماضى لو ظهرت بعد موته وهو يناهز الثمانين. ولابد أنه أدرك بذكائه أن مكانته وشهرته لن تمنع الباحثين والمنقبين والنابشين فى القبور من الصحفيين الذين يبحثون عن الإثارة، أن يعثروا حينئذ على سره الدفين، ويشعلوا النيران فى كل ما شيده من مجد بقلمه وفكره. وفى عالم اليوم لم تعد هناك أسرار يمكن إخفاؤها، وقد تتحول حكايته وتاريخه هو إلى قصة تلوكها الألسن وتدمر سمعته.

ويعتقد الكثيرون أن الوصول إلى هذا السر لم يكن بالأمر العسير، بل لعله كان قاب قوسين أو أدنى، بعد أن رفع الحظر مؤخرًا عن الأرشيف السرى لجهاز «الاستاسى» الذى راكمته أجهزة التجسس فى ألمانيا الشرقية وحفظت فيه أوراق الرايخ الألمانى الهتلرى ووثائقه، وبدأت السلطات فى برلين تسمح بالإفراج عنه والاطلاع عليه لمن يريد. وهكذا اختار جراس أن يزيح بيديه الستار عن الماضى ويخرجه بطريقته، ولا يتركه نهبًا بين يدى المشوهين والخباصين والمزورين المحترفين والباحثين عن الفضائح.



نــون



من الذى يملك عندنا فى عالمنا العربى الجرأة على مواجهة ماضيه، لاسيما عندما يبلغ الكاتب أوج شهرته وعطائه عالمياً، ثم يجد نفسه طائعاً أو مكرهاً، مدفوعاً للهبوط من قمة الجبل إلى السفح



من الطبيعى ألا تظل صورة جونتر جراس كما كانت، وسوف تتأثر على الأرجح بما سيثيره أدعياء النقاء ومحترفو توظيف العداء للسامية لأهداف سياسية من اتهامات.. ولن تغفر الآلة الدعائية لدعاة الصهيونية وضحايا النازية القدماء الذين تحولوا هم أنفسهم إلى نازيين جدد، يمارسون أساليبهم، ويتفوقون فى تطبيقها على ضحاياهم من العرب باسم الدفاع عن أمن إسرائيل وسلامة الجنس اليهودى، خطأ صبى ارتكبه فى سن المراهقة تحت تأثير الدعاية الجبارة لنظام لم تقهره غير حرب عالمية، وامتلك شجاعة الاعتراف به عندما واتته القدرة على مواجهة ماضيه والاعتراف به والاعتذار عنه.

وأكبر الظن أن كثيراً مما كتبه جراس فى رواياته، كاشفاً عن هشاشة الإنسان فى مواجهة أقداره، وما يثوى فى أغوار النفس البشرية من قابلية للفساد والإفك، جنباً إلى جنب مع ما تنطوى عليه من إخلاص وتضحية وسمو، إنما ينبئ عن الطبيعة المعقدة والمركبة لما تنقاد إليه النفس البشرية من آثام وأخطاء تعذب ضميره فى لحظات الصحو ومحاسبة النفس.. وهذا هو ما سوف يبقى معنا وما سوف يخلد فى التراث الأدبى للإنسانية.

ولكن من الذى يملك عندنا فى عالمنا العربى الجرأة على مواجهة ماضيه، لاسيما عندما يبلغ الكاتب أوج شهرته وعطائه عالمياً، ثم يجد نفسه طائعاً أو مكرهاً، مدفوعاً للهبوط من قمة الجبل إلى السفح ومن أعلى الشجرة إلى ما دونها؟! لا يحاسب نفسه على أخطاء شخصية ونزوات عاطفية وانحرافات جنسية، ولكنه يحاسب نفسه على جريمة الصمت أمام رأى عام عالمى، يجلس على منصته قضاة تجرفهم الأهواء السياسية ونوازع الأنانية، دون اعتبار للظروف والعصر والقدرة على التمييز والاختيار؟ وهذه هى المعضلة!! ■

تحـــــولات الـــــــروح

يا رب

قربتنى إليك حتى إذا دنوتُ بعدتُ
رفعتنى من وهدة الضلال حتى إذا ارتقيت هبطت
رققتنى روحاً وبدناً حتى إذا شففت غلظت
أخرجتنى من ظلمة الجهل حتى إذا رأيتُ عميتُ
بصرتنى بالجمال حتى إذا أدركت تركت
زودتنى بالعقل حتى إذا عرفتُ جهلت
أترعت قلبى بالحب حتى إذا امتلأت فرغت

يا رب

أغدقت علىّ من نعمك فبطرت
أسقيتنى من خمر وصلك فسكرت
أوقفتنى على حقيقتى فاغتررت
صفيت نفسى من أدرانها فنكصت
بحثت حولى عن اليقين فضللت
أعشت عينى أضواء الطريق فما أبصرت

يا رب

أنر بصيرتى حتى أراك
واجعلنى أرى ما يستحق أن يرى
وأسمع ما يستحق أن يُسمع
وأعرف ما يزيدنى علماً بك



وأقرأ باسمك أسرار عظمتك
وأسلك الطريق الذى لا أضل فيه أبداً

يا رب

قطرة أنا فى بحر الوجود تتخبط
لحظة أنا من عمر الزمن كلمح بالبصر
ريشة فى فضاء الكون عبثت بها الريح
ذرة فى الهباء تضاءلت واختفت
من يملك مسيرتى وصيرورتى غيرك؟
فى قضائك قدرى وفى قدرى قضاؤك

يا رب

أخرجنى من حيرتى كلما ادلهمت
وثبت يقينى كلما تزعزع
وجنبنى عثرة الطريق لحظة الشك
لا تذلنى لسواك..
ولا تجعل علىّ سلطاناً لغيرك
ولا تنزل فى قلبى خوفاً إلا منك
ولا حاجة إلى إليك
ولا رجاء إلا عندك

يا رب

أخرجنى من ثقوب الحياة السوداء
واكفنى شرور العولمة والهيمنة
وجنبنى الوقوع فى براثن الطغاة وأزلامهم
ولا تبتلنى بأمراض العصر وأوبئته
ولا تجعل خاتمتى تحت أنقاض الزلازل والأعاصير

يا رب

قنى من شر عدو لا يرحم
وصديق لا يصدق
وأنأ بى عن حبيب شيمته الغدر
ورئيس مجبول على الجهل
وطاغية يعميه الظلم

يا رب

امنحنى القدرة على تغيير ما أستطيع تغييره
والصبر على ما أعجز عن تغييره
وأدخلنى فى رحمتك
يا أرحم الراحمين!

سلامة أحمد سلامة

نجيب محفوظ

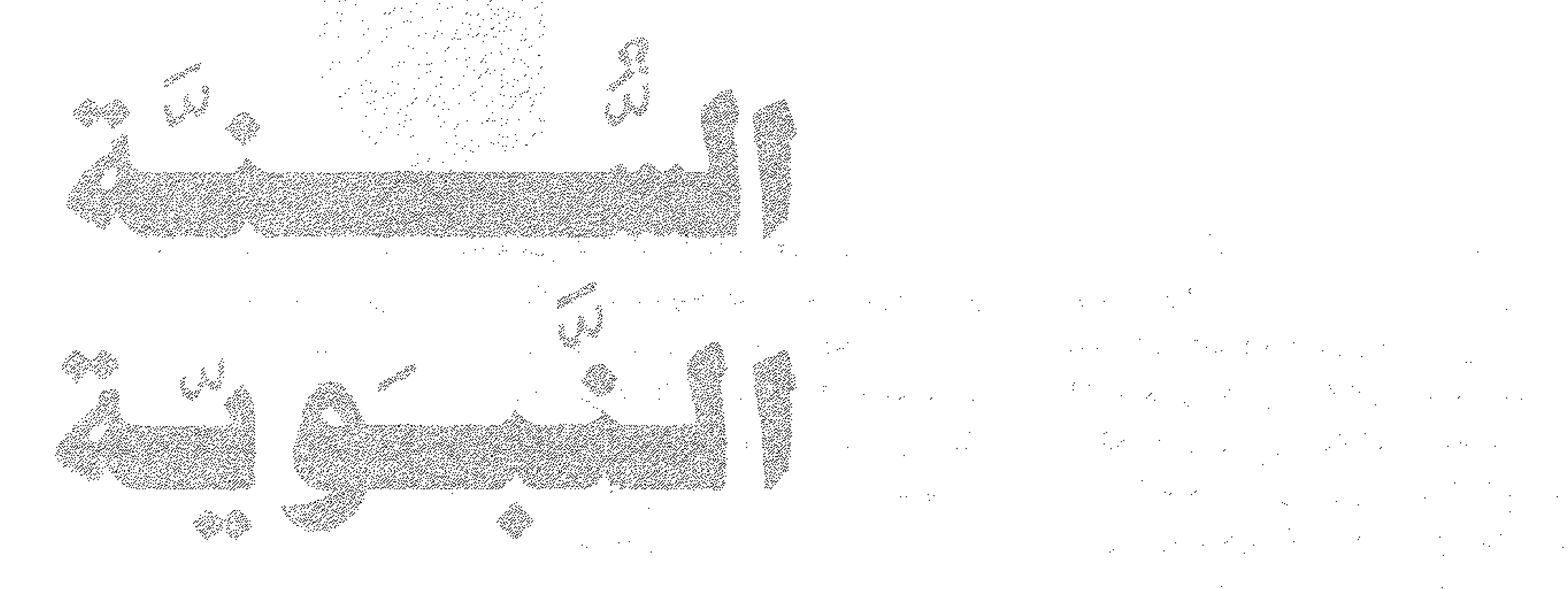
الأعمال الكاملة

دار الشروق

كفى

الرفاعي شرفا انه قبل

يد المصطفى



اتفاق لا اختلاف



محمد السعيد مشتهرى

إن ظاهرة التفرق التى يشهدها العالم بين المسلمين، وتشرب قلوبهم لثقافة التخاصم، تنذر بخطر عظيم يهدد مستقبلهم ورسالتهم للشهادة على العالمين. إن تفرق الأمة إلى مذاهب عقائدية ترمى بعضها بالفسق والضلال وبمخالفة سنة رسول الله، يفقد كثيرا من الناس الثقة فى فاعلية رسالتها فى مواجهة التحديات المعاصرة. لقد دفع المسلمون ثمن هذه الفرقة (عبر العصور) دماء سفكت بغير حق!!. وتقف هذه الفرق المتخاصمة صفا واحدا فى مواجهة عدوها المشترك، ثم عندما تظهر لها علامات النصر يبدأ بعضها فى قتال بعض من أجل الوصول إلى الحكم وكل منهم يعتبر نفسه الفرقة الناجية التى يجب أن تتولى حكم البلاد والعباد!!. أما أن يصل الأمر إلى أن يفجر أتباع فرقة أنفسهم وسط أتباع فرقة أخرى، وتسفك دماء المدنيين الأبرياء باسم الإسلام وتحت راية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، فهذا مؤشر خطير يوجب علينا إعادة النظر فى تديننا الوراثى!!. إن الإسلام هو الحجة على الناس، وتدين المسلمين وفهمهم لنصوصه حجة عليهم وليس على الإسلام!!. إن صحابة رسول الله لم يعرفوا إلا: إلها واحدا، ورسولا واحدا، وكتابا واحدا، وقبلة واحدة. لم يكن رسول الله وصحبه الكرام أصحاب مذاهب دينية مختلفة، كما حدث للمسلمين بعد وفاة رسولهم. فكيف السبيل إلى العودة إلى ما كان عليه الرسول وصحبه الكرام؟!!. إن هدف هذه الدراسة هو بيان أن «السنة النبوية» طريق واحد يسلكه كافة المسلمين أمة واحدة، منذ عصر الرسالة وإلى قيام الساعة، الأمر الذى لا يتحقق إلا إذا كانت نصوصها التى تستقى منها لا تتبدل ولا تتغير، محفوظة بحفظ الله لها، عبر رحلتها من عصر الرسالة وإلى يوم الدين!!!!.

أرجو من القارئ الكريم، عالما كان أو داعيا أو مفكرا، أن يقرأ هذه الكلمات ويتدبر مقاصدها الحقيقية، دون أى خلفية دينية مذهبية، وذلك قبل أن يعلق أو أن ينتقد أو يحكم على كاتب هذه الدراسة بأى حكم شاء!!.

أنا كمسلم، نشأت فى بيئة علمية دينية، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأقيم أصول الإسلام والإيمان التى فرضها ربى علىّ، أحمل مؤهلات وأدوات البحث العلمى المخلص الجاد، تفرغت سنوات تفرغا كاملا للبحث والدراسة العلمية للوقوف على أسباب تفرق علماء المسلمين إلى فرق ومذاهب مختلفة متخاصمة متصارعة، يستحل بعضها دماء بعض بغير حق وتُنشر مأساتهم هذه (وخاصة فوضى الفتاوى الفقهية التكفيرية) على القنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت العالمية بصورة هزلية مؤسفة، جنى المسلمون ثمارها عبر العصور تخلفا وذلا وانتهاكا لهويتهم ومقدساتهم، وإلى يومنا هذا!!.

نحن نعيش مأساة أبرز مظاهرها تفرق علماء الفرق الإسلامية، بل وعلماء مذاهب الفرقة الواحدة، وبعد أن تبين لى بالبحث العلمى وبما لا يدع مجالا للشك أن هذا التفرق ليس من باب التعددية الفكرية التى يُسمح بها فى الإسلام، وإنما هو مما حذر الله المسلمين منه فى كتابه الحكيم، والذى كان هو محور دراساتى الرئيسى.

وليعلم القارئ الكريم أن أى باحث يخرج على قومه بما يخالف ما ألفوه، ويهدم ما ورثوه من تدين مذهبى، يُتهم على الفور بالردة عن هذا الدين (والحقيقة أنها ليست بردة لأن المولود يُفرض عليه مذهب آبائه يوم يولد)!!.

أو يُتهم بالعمالة لجهة أجنبية أو بالعمل على إقامة تنظيم يهدف إلى هدم دينهم. لذلك نجد أن أنصار ودعاة الفِرقة والمذهبية يسارعون على الفور بإثارة الناس ضده، ليشلوا حركته فى الحياة، فينعزل عن حياتهم الاجتماعية ويُضيَّق عليه فى الرزق، ظنا منهم أنهم يملكون مفاتحه!!.



واللافت للنظر أن هؤلاء «المكفرين» يعلمون جيدا أنه لا سبيل أمام الباحث الذى يريد أن يتعرف (فى القرن الخامس عشر الهجرى) على طبيعة وخصائص النص الإلهى الذى أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين باتباعه، ليقيم على أساس ذلك تدينه إلا بدراسة أمهات الكتب الدينية التى ورثتها الفرق والمذاهب المختلفة، ليقف على طبيعة نصوصها وخصائصها المميزة لها مقارنة بطبيعة النص الإلهى المنزل وخصائص هذا النص واجب التصديق بصحة نسبته إلى الله تعالى أولا والإيمان به كمصدر تشريعى إلهى.

كذلك فإن الباحث اليوم لا يملك للتحقق من صحة ما نُسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث إلا بدراسة كتب المرويات التى ورثتها الفرق والمذاهب المختلفة كل وفق شروطه فى الصحة والضعف. ولا يستطيع أحد من علماء الفرق والمذاهب المختلفة أن يدعى أن الله تعالى قد أوحى إليه بما صح من هذه المرويات ليقول أنه قد وقف على صحة نسبة هذه المرويات إلى رسول الله يقينا.

إن القضية ليست قضية تشكيك فى تراث الأمة الدينى، وإنما هى قضية تحقيق علمى، على كل طرف من أطراف النزاع أن يقدم الدليل والبرهان على صحة ما ذهب إليه، بحرية كاملة، ودون أن ينظر كل طرف إلى الآخر نظرة تكفير أو عداء أو تخاصم.

لقد وجدت، وأنا أقوم بتدوين صفحات هذه الدراسات العلمية (وأنا خارج دائرة التقليد المذهبى) أن محور تفكيرى لا يرى بصورة رئيسة واضحة إلا عصرين من الزمان:

عصر الرسالة الخاتمة: الذى أشهد شهادة علمية أن كل ما نقله القرآن عنه حق ثابت ثبوت القرآن نفسه. والعصر الذى أعيش فيه: ذلك الذى لا أستطيع أن أشهد فيه شهادة علمية تقوم على يقين قطعى الثبوت أن ما حملته الفرق والمذاهب من مرويات تشريعية منسوبة إلى رسول الله حق واجب الاتباع!!.

إن ميزان وأدوات إثبات قطعية المصدرين أصلا مختلفة!!. لذلك كان قلمى يتحرك بين العصرين، فتارة ينظر إلى كتاب الله فيرى الحق ناصعا، يحذر المسلمين من التفرق فى الدين، فإذا نظر إلى واقع المسلمين لا يرى هذا الحق معمولا به!!.

فالإشكالية التى كانت أمامى وما زالت هى: لماذا لم ترث الأمة الإسلامية على مستوى جميع الفرق والمذاهب المختلفة كتاب الله تعالى، وكتابا واحدا جامعا لأحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بنفس درجة الحفظ الإلهى، وبنفس درجة الإسناد المباشر إلى الله تعالى، وإلى رسوله يرجع إليهما المسلمون كافة، منذ عصر الرسالة وإلى يوم الدين، إذا كانت هذه الأحاديث نصوصا تشريعية يحرم مخالفتها وعدم اتباعها؟!

وجدت أن مصطلح «إنكار السنة» (الذى يحمله علماء كل فرقة سلاحا قاتلا فى وجه المخالف لمذهبهم) هو فى حقيقته مصطلح مذهبى قام

قبل ظهور الفرق والمذاهب
السنة النبوية حقيقة قرآنية
محمد السعيد مشتهرى
تقديم: عبدالصبور شاهين
القاهرة - دار مصر المحروسة - ٢٠٠٦

على رؤى واجتهادات علماء كل فرقة لحجية الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله، والتى على أساسها أقاموا علما لتصحيحها وتضعيفها فأصبح الحديث الصحيح عند فريق ضعيفا أو موضوعا عند آخرين.

فسألت نفسى:

أين نجد فى هذه الحالة من التفرق المذهبى موقع «إنكار السنة»؟!!.

ولا يخفى على كل ذى بصيرة ما نشأ بين علماء الفرق (بل وبين علماء مذاهب الفرقة الواحدة) من خصومات بسبب علم الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف، والتى وصلت إلى حد رمى كل فريق الآخر بالضلال والفسق، بل وأحيانا بالكفر، ومخالفة سنة رسول الله، وعدم اتباع سبيل المؤمنين!!!

لقد ارتبطت مسألة اختلاف المناهج بين الفرق فى طرق إثبات الأحاديث القولية إثباتا قطعيا بقضية «تكفير المسلم لأخيه المسلم» المخالف له فى المذهب. ولقد امتدت جذور هذه المسألة إلى عصور الفتن الكبرى التى بدأت تنبت بعد وفاة رسول الله مباشرة، والتى نجنى نحن اليوم ثمارها!!.

وإن أخطر ما نجنيه من ثمار التخاصم والتكفير هو هذه القنابل البشرية التى تتسع رقعتها يوما بعد يوم تحت راية «هنيئا لنا الجنة يا أخى والحور العين».

وجدت أن المسلمين جميعا أمام خطر محو هويتهم الإسلامية، هذا الخطر الذى لا يشك فى زحفه على العالم الإسلامى إلا مطموس القلب مغيب البصيرة. هذا الخطر الذى يتحمل مسئولية زحفه وتحركه (بعد أن كان خامدا) كثير من علماء المسلمين (بعيدا عن شماعة المؤامرة) وذلك لتفرقهم وتخاصمهم وعدم تفاعلهم مع سنن التطور الحضارى، وانشغالهم بخلافاتهم المذهبية، وفتاوى التخلف وثقافة الهزيمة!!.

فلماذا لا يفتح العلماء والدعاة والمفكرون قلوبهم لفهم واستيعاب فكر الآخر ووجهة نظره، فلعل ذلك يضيف إليهم شيئا جديدا؟!!. ألم تكن الفتاوى التخاصمية التكفيرية (ومازالت) وراء التفجيرات الانتحارية التى يقوم بها أتباع فرقة إسلامية وسط أتباع فرقة أخرى (من أفغانستان مرورا بباكستان ووصولا إلى العراق) والتى أصبحت اليوم ظاهرة خطيرة لا تخفى على أحد، بل وتهدد استقرار وأمن الناس جميعا؟!!!.

ومما يزيد ما فى نفسى ألماً وحزنا أن يُبث هذا الواقع على الفضائيات وعلى شبكة الإنترنت وتحمله منابر الدعاة، وخاصة الدعاة الجدد لما أصبح لهم من حضور إعلامى غير طبيعى، وقاعدة شبابية غير مسبوقة، دون فهم واع لما يقذفونه فى قلوب هؤلاء اشباب الحائر المسكين المغلوب على أمره، من فكر إسلامى مغلوط ومن تدعيم لثقافة التخاصم والتكفير وهم لا يشعرون!!. فإذا قام أحد بالهجوم على الإسلام والمسلمين مستخدما قاعدة البيانات التراثية التخاصمية المذهبية هذه، والتى يحملها هؤلاء إلى الناس، ويقدمونها هدية ثمينة لأعدائهم... قامت الدنيا ولم تقعد!!.

إن إشكالية الأمة الإسلامية تتحدث عن نفسها، والبكاء على المريض لن يشفيه، لذلك علينا أن نتحرك من واقعنا المعاصر، ونواجه مشكلتنا بفهم واع وإدراك حقيقى لأسبابها، وأن نسعى للنهوض من سباتنا، ونعيد الاتصال بعصر الرسالة كنقطة انطلاق نحو الخيرية التى وعدنا الله تعالى بها.

ونحن حين نتحدث عن الانطلاق من عصر الرسالة نتحدث عن الانطلاق من عصر فكر الأمة الواحدة، تلك الأمة التى حملت كتابا تشريعيا واحدا، وشهد أفرادها تفعيل آياته فى واقع حياتهم، تحت راية إمام واحد، رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم. أمة لم تعرف الفرقة ولا المذهبية، ولم تعرف أصول فقه متخاصمة متناقضة ولا مدارس جرح وتعديل يهدم بعضها بعضا!!!.

ومن منطلق ما سبق ألتمس من القارئ عذرا لما قد يجده فى قلمى من حدة فى التعبير عما فى نفسى من هذا الواقع المؤلم، لتفرق وتخاصم علماء الفرق والمذاهب المختلفة. إن القارئ الكريم سيجد نفسه أمام تعبيرات يكررها الكاتب فى مواضع كثيرة من هذه الدراسة، قد يشعر فيها بشىء من التجنى على تراث الأمة، أو على ما توارثته من أحاديث لها قدسيتها فى قلبه، ولكن هذا الذى سيجده هو ما سيشعر به كل مسلم غيور على دينه وإسلامه، وعلى وحدة كلمة علماء أمته، ونبذ التخاصم وثقافة التكفير بينهم، وذلك إذا قام بدراسة علمية تُمسك بجوهر القضية من الناحية الدينية (وليس السياسية) والتى يغض الطرف عنها كثير من أنصار الفرقة والمذهبية ليبقى الحال على ما هو عليه!!.

فعندما أقول (على سبيل المثال): «فلنجتمع حول نصوص القرآن وما اتفقنا عليه من كيفيات الأداء العملى لما أجمله من أحكام، ما لم يخالف نصا قرآنيا، أو مقصدا من مقاصده الحكيمة، وما عدا ذلك (فلنتركه الآن جانبا) ولنقف صفا واحدا فى مواجهة التحديات المعاصرة، لعل الله يهدينا إلى وجه الحق فيما تركناه واختلفنا بشأنه»...

لا أقصد بذلك هدم تراث الأمة الدينى، وما يحتويه من أحاديث قولية منسوبة إلى رسول الله، وإنما الربط بين ما يجب أن يكون (وفق عصر الرسالة) وبين ما هو كائن اليوم!!. فلنجتمع على ما اتفقنا على حجية نصوصه وصحة نسبتها إلى الله تعالى، حتى نتحقق من قطعية ثبوت ما يثبت منها ونجمع عليه!!.

وعندما أقول وأكرر: «ونحن نعيش اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضع النص القرآنى سلوكا عمليا أخلاقيا فى واقع الحياة، على الوسطاء من علماء الفرق والمذاهب المختلفة أن يمتنعوا»، أقصد:

ما سبق أن بينته من إيمانى بوجوب أن يصل إلى اليوم كتاب واحد يحمل أحاديث رسول الله (مهما كان حجمه وعدد أجزائه) بنفس درجة الثقة التى فى نسبة كتاب الله إلى الله تعالى، الأمر الذى لو تحقق لما وجدنا لمدارس الجرح والتعديل المختلفة المتصارعة وجودا، ذلك لأن حديث رسول الله عندئذ سيصل إلى الناس جميعا دون واسطة من رواة ومحدثى الفرق والمذاهب المختلفة كحديث الله تعالى تماما، هذا إن كنا نؤمن حقا بأن المصدرين تشريع إلهى يتوقف إسلام المرء على اتباعهما!!!.

وإلى أن يتحقق ذلك فلنجتمع على ما تلقيناه من الله تعالى مباشرة من شريعة محكمة محفوظة بحفظ الله لها.

وعندما أكرر بعد كل سورة قولى:

«فهل وجدت وأنت تتلقى من رسول الله هذه التوجيهات غموضا يجعلك لا تستطيع العمل بها؟!!. أم أنك شعرت بحاجتك إلى مزيد من التفاصيل المتفرعة عنها كما هو الحال فى كتب الفقه المذهبى..» أقول:

إن تفعيل رسول الله للنص القرآنى فى واقع حياته لا شك أنه يشمل حديثه القولى مع قومه وصحابته وأهل بيته، والمكون من كلماته، فهل يستطيع مسلم عاقل متدبر لكتاب الله أن ينكر ذلك؟!.

ألم يقل رسول الله للسيدة عائشة (رضى الله عنها) يوما أريد ماء؟!. ألم يقل رسول الله لأحد «لا تغضب» والذى هو تفعيل لكثير من نصوص القرآن؟!.

ولكن هذه ليست الإشكالية التى هى محل بحثى ودراساتى، فتفعيل رسول الله للنص القرآنى هو أصلا تفعيل لنص «قولى» إلهى:

. إنه إعادة لصياغة الآية القرآنية ولتوجيهاتها بلغته (صلى الله عليه وسلم) وتعبيراته، وليس بيانا لمعناها اللغوى، وإلا نكون قد هدمنا بهذه الدعوى الآية القرآنية التى تحدى الله بها أهل اللسان العربى، أهل الفصاحة، أن يأتوا بمثلها!!. فهل يعقل أن يتحدى الله تعالى العرب بكلمات لا تُفهم؟!!.

. وليس إنشاء نص قولى تشريعى جديد يكون من محتوى رسالته التى أمره ربه أن يدونها فى الصحف لتكون للعالمين منهج هداية!!.

وإلا نكون بهذه الدعوى قد اتهمنا رسول الله بالتقصير فى تدوين هذا المصدر الثانى للتشريع وتوفى (صلى الله عليه وسلم) تاركا هذا المصدر بين أيدى الناس، والرواة والمحدثين يصححه من يصححه، ويضعفه من يضعفه!!.

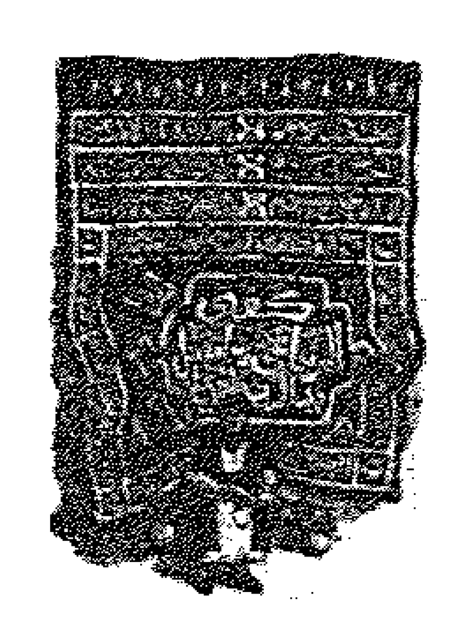
. أما ما حمله هذا النص «القولى» الإلهى من أحكام مجملة تحتاج إلى بيان كيفية أدائها، فهذا ما تعلمته الأمة عن رسول الله بالتقليد والمحاكاة، جيلا عن جيل، وليس من خلال نصوص أمر رسول الله بتدوينها فى الصحف (كالقرآن) فهذا التدوين جاء لاحقا لمنظومة الأداء العملى لهذه الأحكام المجملة.

فلا فرق بين فرضية النص المجمل الآمر بأداء عبادة معينة، وبين بيان الرسول لكيفية أداء هذه العبادة، من حيث حفظ الله لأصول هذه الكيفية عبر منظومة التواصل المعرفى (ولهذا الموضوع دراسة مستقلة)، ذلك لأن هذه الكيفية تابعة للنص المفروض من الله تعالى، والمحفوظ بحفظ الله له، وليست نصا تشريعيا مستقلا عنه.

ولا يقاس على ذلك فيقال: إن الأحاديث القولية المنسوبة إلى رسول الله تأخذ نفس حكم هذا الأداء العملى، وذلك لأننا لا نملك دليلا قطعيا على أن الله أنزل على رسوله نصا تشريعيا قوليا... أمره الله أن يدونه فى الصحف.. وتحت إشرافه (صلى الله عليه وسلم).. ليكون من محتوى رسالته العالمية الخاتمة... غير النص القرآنى.

قد يكون هناك كلام بين الله ورسوله خاصا بأحداث عصر الرسالة، ولكنه ليس

القضية ليست قضية تشكيك
فى تراث الأمة الدينى، وإنما هى قضية
تحقيق علمى، على كل طرف من أطراف النزاع
أن يقدم الدليل والبرهان على صحة
ما ذهب إليه، بحرية كاملة



من محتوى رسالة الله للعالمين، لذلك لم يتضمنه القرآن، ولم يأمر الله تعالى رسوله بتدوينه فى الصحف، كشريعة واجبة الاتباع إلى يوم الدين!!.

إن ما ورثته الأمة من أحاديث منسوبة إلى رسول الله لا يستطيع عاقل أن ينكر ثبوتها عن الرواة الذين نقلوها، ولا يستطيع عاقل أن يشكك فى إمكانية أن تكون قد حملت أقوالا فعلية لرسول الله، ولكن الإشكالية ليست فى ثبوتها أو عدم ثبوتها عن الرواة، أو عن رسول الله (فقد تكون خاصة بعصر الرسالة) وإنما الإشكالية فى ثبوتها عن الله تعالى كنص تشريعى واجب الاتباع إلى يوم الدين، الأمر الذى يحتاج إلى أدلة قطعية لا تختلف عن أدلة حجية كتاب الله تعالى!!!.

فإلى أن يصل علماء الفرق والمذاهب المختلفة إلى هذه الأدلة القطعية المجمع عليها بينهم، فليجتمعوا حول النص القرآنى وتفعيله فى واقع حياتهم!!. لأنه يستحيل أن تتحول طاعة رسول الله بعد وفاته من قضية إيمانية يقينية ونصوص قطعية وضع حدودها الله تعالى فى عصر الرسالة، وقام بتفعيلها رسول الله وصحبه الكرام، إلى قضية ظنية الثبوت لا عن الله تعالى ولكن عن رسوله.

وإذا نظرنا إلى مسألة استقلال الأحاديث (المنسوبة إلى الرسول) بالتشريع سنجدها محل خلاف بين علماء الفرق، بل وبين علماء مذاهب الفرقة الواحدة وذلك لضعف الأدلة التى يُعتمد عليها فى إثبات حجيتها مقارنة بحجية كتاب الله تعالى، والمكتبة الإسلامية (للفرق والمذاهب المختلفة) خير شاهد على ذلك!!.

لقد قرأت بحثا بعنوان: «السنة كلها تشريع»، وآخر «السنة والتشريع» للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين (نائب رئيس جامعة الأزهر سابقا ورئيس مركز السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية) وجه فيهما اتهامات خطيرة لكل من: فضيلة الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق). والدكتور عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف الأسبق)، والدكتور يوسف القرضاوى (رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين وعضو المجلس العالمى الأوروبى للإفتاء).

وذلك لإيمانهم بأن السنة تنقسم إلى: سنة تشريعية وغير تشريعية، وفضيلته يؤمن بأن السنة كلها تشريع!!. ومن هذه الاتهامات الخطيرة التى تشكك فى صدق إيمان هؤلاء، قول الدكتور موسى فى بحثه «السنة والتشريع» ص ٤٧:

«لكن مشكلة العصر تشكيك بعض علماء المسلمين فيها بصفة عامة بهدف أو بآخر، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أعداء الإسلام والمستشرقين بل والاستعمار والغزو الثقافى وراء هذه المحاولات، أو بالأحرى وراء بعض هذه المحاولات، ومما لا شك فيه أن كثيرا ممن يرفع عقيرته فى السنة بغير علم قد رضع لبنا غير لبانها وفطم عن ثدى غير ثديها سواء أدرك ذلك أو لم يدرك». اهـ

ويرد الدكتور موسى (ص ٥٥): على ما قاله الدكتور عبد المنعم النمر فى كتاب له باسم «السنة والتشريع»، فيقول:

يقرر الباحث أن له أن يجتهد كما كان الرسول يجتهد، ويبيح لنفسه أن يخالف حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصريح لفظه ونص حديثه، فيقول فى كتابه: «مادام الرسول كان يجتهد، وما دام هذا الاجتهاد قد شمل الكثير من أنواع المعاملات أفلا يجوز لمن يأتى بعده من أيام الصحابة، وحتى الآن، أن يدلى فى الموضوع باجتهاده أيضا، ولو أدى اجتهاده إلى غير ما قرره رسول الله باجتهاده؛ ولا يصبح ما قرره الرسول باجتهاده حكما ثابتا للأبد». اهـ

ثم يؤكد الدكتور موسى اتهامه للدكتور عبد المنعم النمر بقوله ص ١٠٢: «قد أكون أطلت بعض الشىء، وعذرى أن البحث خطير (يقصد كتاب الدكتور النمر) بل وأخطر ما كتب عن السنة حتى اليوم وأخطر من كتابة المستشرقين والمبشرين، لأنه ممن ينتسب إلى العلماء المسلمين». اهـ

ويقول الدكتور موسى فى بحثه (السنة كلها تشريع) ص ٥٨: «هذه القضية (السنة كلها تشريع) لم يخالف فيها أحد من علماء المسلمين فى أربعة عشر قرنا مضت. ولم نسمع ولم نعلم أن واحدا من علماء المسلمين قسم السنة (أى الحديث) إلى تشريع وإلى غير تشريع، حتى كان النصف الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى فكان أول من قسم السنة إلى تشريع وإلى غير تشريع فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت فى كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة». اهـ

ثم ينقل عن الدكتور يوسف القرضاوى قوله: «وعن الشيخ شلتوت أخذ الكثير من المعاصرين فيما كتبوه عن السنة وتقسيمها إلى تشريعية وغير تشريعية». اهـ. وينقل الدكتور موسى رأى الشيخ شلتوت:

«أن كل ما ورد عن النبى، صلى الله عليه وسلم، ودون فى كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته وكان على سبيل الحاجة البشرية (كالأكل.. التزاور.. والشفاعة والمساومة فى البيع والشراء) أو كان على سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية (شئون الزراعة، الطب، اللباس) أو على سبيل التدبير الإنسانى (كتوزيع الجيوش.. وكل ما يعتمد على وحى الظروف الخاصة). فكل ذلك ليس شرعا يتعلق به طلب الفعل أو الترك وإنما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول فيها تشريعا ولا مصدر تشريع». اهـ

ثم يعلق الدكتور موسى على ذلك بما سبق أن قاله بالنسبة للدكتور عبد المنعم النمر، ثم يقول ص٦٢: «وأحدث من كتب فى موضوعنا بإسهاب، وتولى العرض بحماس ونادى بصوت عال عن وجود سنة غير تشريعية الدكتور يوسف عبد الله القرضاوى...».

وفى ص٧٢ قال: «وهكذا يتبين أن الشبهات التى تعلق بها المخالفون شبهات واهية، نشأ أكثرها من التباس الأمر عندهم، بين التشريع الملزم المطلوب والتشريع غير الملزم وغير المطلوب!!. لكنهم كلهم على اختلاف مناهجهم ينفون التشريع عن بعض أفعاله، صلى الله عليه وسلم، بل ينفون الرسالة عنه فى بعض أقواله كلهم يقول ذلك، والفرق بينهم فى الأفعال التى تطبق عليها هذه الصفة». اهـ

وأخطر ما فى هذه القضية استدلال الدكتور موسى على موقف هؤلاء العلماء من «السنة»، بآيات قرآنية تحذر من الضلال، وتنفى صفة الإيمان عمن يفعل فعلتهم، كقول الله تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

وقول الله تعالى فى سورة النور:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

حيث يقول الدكتور موسى: «وما كان لمسلم يبلغه حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيرده زاعما أن المصلحة فى خلافه...»!!!. لقد ساوى الدكتور موسى بين مخالفة أمر الرسول (الذى بينته الآية السابقة لهذه الآية) وهو قوله تعالى مخاطبا المعاصرين لرسول الله «وإذا كانوا معه على أمر (جامع) لم يذهبوا حتى يستأذنوه»، وهو موقف يجمع رسول الله شخصيا مع المؤمنين لأمر هام يستوجب عدم الانصراف إلا بعد استئذان!!.

وبين مخالفة ما بلغه الرواة من أحاديث منسوبة إلى رسول الله، والتى لم تدون فى كتاب واحد (مجمع) عليه (إلى يومنا هذا) بين علماء الفرق والمذاهب المختلفة (منذ ظهورها)!!!. فهل يعقل أن تحل المرويات الظنية المنسوبة إلى رسول الله محل شخصه الكريم، صلى الله عليه وسلم، بحيث يكون لمخالفتها نفس العقوبة التى تترتب على مخالفته فى حياته؟!!.

كما استدل فضيلته بقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

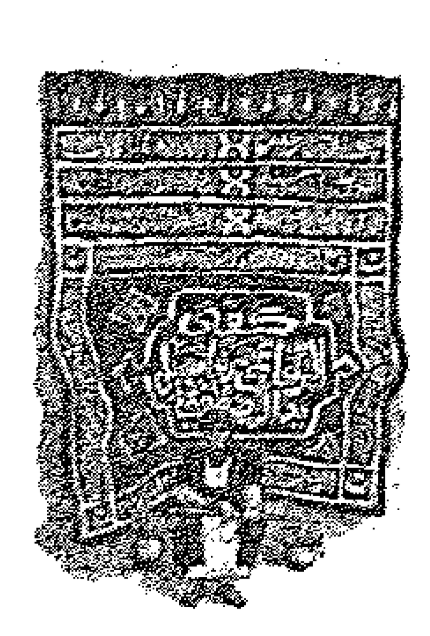
لقد أتيحت لى فرصة أن أناقش فضيلة الدكتور موسى شاهين لاشين فى بيته حول هذه النظرة التخاصمية بين علماء المذاهب الفكرية المختلفة، وكان محور تعليقاتى هو: إن الخلاف بين العلماء (مهما كان حجمه) لا يجب أن يدخل دائرة التخاصم والاتهام بالضلال!!.

إننا جميعا نركب سفينة واحدة فى مواجهة تحديات عالمية تريد محو هويتنا بل واقتلاعها، وإن ما آمن به هؤلاء العلماء لا يتضمن بأى حال من الأحوال مخالفة للنبى، فلو بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليعيش معنا اليوم فإنه لم يكن ليأمرنا أن نستنجى بالحجارة ثلاثا، أو أن نركب الدواب بدلا من السيارات، أو أن نعود إلى نظام المقايضة فى البيع والشراء وأن نقاتل بالخيل والسيف بدلا من الصواريخ والطائرة!!!. ولو كان هؤلاء العلماء الثلاثة (وأنا معهم) فى عصر النبى لفعلنا ما يأمرنا به مما يقتضيه عصر النبوة سمعا وطاعة!!!.

لقد كان محور رد فضيلته على تعليقاتى قوله:

إن هؤلاء العلماء أقروا بصحة الحديث، ولكنهم لا يعتبرونه سنة تشريعية إلى يوم الدين، وهذه هى الإشكالية التى وقعوا فيها، أما أنت فقضيتك ليست فى صحة الحديث أو ضعفه، لوجود شبهة عندك فى قطعية ثبوت الحديث أصلا عن رسول الله، لذلك لا يستطيع أحد أن يتهمك أو يعترض عليك لوجود هذه الشبهة.

إن إشكالية الأمة تتحدث عن نفسها، لذلك علينا أن نتحرك من واقعنا المعاصر، ونواجه مشكلتنا بفهم وإدراك، ونعيد الاتصال بعصر الرسالة كنقطة انطلاق نحو الخيرية التى وعدنا الله تعالى بها



ومثال آخر أشد خطورة: لقد كتب فضيلة الشيخ الغزالى كتابه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» فقوبل بسيل من الاتهامات، وحكم عليه بعض العلماء والدعاة بالردة وهو الذى أفنى حياته فى الدعوة الإسلامية، بل وتربع على عرشها. ولكن لماذا؟!!. لأنه خالف فى كتابه مقدسات فرضتها مرويات ثقافة التخاصم على المسلمين باعتبارها من السنة التشريعية الواجبة الاتباع.

لقد قمت على الفور بمقابلة الدكتور عبد الله المشد (رئيس لجنة الفتوى الأسبق) فى أواخر يناير عام ١٩٩٠ لمناقشته فى قضية تكفير الشيخ محمد الغزالى، وقلت له: هل يعقل أن ينزل الله نصا تشريعيا مستقلا عن كتاب الله (يُحكم على منكره بالكفر) ثم لا يأخذ نفس خصائص نصوص القرآن. من حيث الحفظ الإلهى وإشراف الرسول على تدوين نصوصه، ومراجعتها وإقرارها قبل وفاته؟!!.

وفى نهاية الحوار، طلبت من فضيلته (بصفته الوظيفية) أن يضع حدا لهذه الفتاوى التكفيرية التى يرفعها كل من هب ودب سلاحا فى وجه كل من يخالف مذهبه، بل وفى وجه كل مفكر مسلم مخلص لدينه محب لله ورسوله، يريد أن يدفع عن رسول الله ما نُسب إليه، صلى الله عليه وسلم، من افتراءات لا يقبلها مسلم، خاصة وقد وصل سلاح التكفير لقمة من قمم الدعوة الإسلامية. فطلب منى الدكتور المشد أن أتقدم بطلب للجنة الفتوى بالأزهر الشريف أحدد فيه مطلبى، وكان سؤالى لها: «ما حكم من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم، هل يعد كافراً؟!!. ولقد جاءت الفتوى الصادرة فى ١٩٩٠/٢/١ على النحو التالى: «وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشىء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم بالضرورة فلا يعد كافراً».

ولقد طلب فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى من الدكتور المشد نشر هذه الفتوى، تضامنا منه مع الشيخ الغزالى، بعد غمزه ولمزه، وبعد هذه الحملة الشرسة التى قادها أنصار ودعاة الفرقة والمذهبية ضد هذا العالم الجليل، والتى ما زالوا يقودونها رافعين سلاح الردة فى وجه المخالف لهم فى المذهب!!.

ولقد وعد الدكتور عبد الله المشد بنشرها فى كتاب له، ولكن لما طال الانتظار قام فضيلة الشيخ الغزالى بنشرها فى كتابه: «تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» (ط١ ص١٧٥).

والشيخ محمد الغزالى يرى أن النص التشريعى، الذى لا يقبل خلافا بين علماء المسلمين (لقطعية ثبوته عن الله عز وجل) هو النص القرآنى، وما عداه فيقبل الخلاف (لظنية ثبوته عن الله تعالى)، وأن السنة النبوية بيان لهذا النص القرآنى، ولا تكون أبداً حاكمة عليه. ويعلق على هذه الفتوى (فى كتابه المشار إليه سابقا ص١٨١) فيقول:

«والفتوى التى نقلناها تشير بشىء من الإجمال إلى رأى الأزهر فى ضرورة التعويل على القرآن أولا، وإلى أن العقائد لا تستقل بإثباتها أخبار الآحاد. وما نوصى به هو تدبر القرآن الكريم، وإدامة النظر فيه، واستصحاب معانيه عند قراءة السنن. أما أن يكون المرء عابر طريق أمام آيات الله، ومطيل المكث أمام بعض الأخبار فهذا غير سائغ... لا يجوز أن يكون المرء أعشى أمام القرآن وحاد البصر أمام الأحاديث، وقد سمعت كلمات سمجة فى هذا المجال!! قال بعضهم: حاجة الكتاب إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى الكتاب... وهذه موازنة خاطئة... نحن نؤمن بالكتاب والسنة معا. ونؤمن بأن السنة فرع والكتاب أصل، ونؤمن بضرورة الاستيقان من أن الرسول قال وأن هذا الاستيقان لا يتم إلا بوزن السند والمتن معا... وهذا منهج العلماء الراسخين والرجال الثقات، ولا تعويل على من دونهم!!».

وفى ص١٨٢، يوضح موقفه من السنة فيقول: «والخلاصة أن السنة لا تكون إلا بيانا للقرآن، بيانا يتسق مع دلالاته القريبة والبعيدة، ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكما يخالف القرآن الكريم».

وفى كتابه: «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم» (ط١: ص٦) يقول: «والقرآن الكريم خلاصة ما أنزل الله من وحى فى القرون الأولى، وقد توافر له من الحفظ ما ضمن له الخلود...

ولا يوجد فى الأولين والآخرين كتاب وعته القرائح وسجلته الصحائف وحفه التواتر حرفا حرفا إلا هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه». فلو سأل سائل: أين وحى الله فى هذا العصر؟!. لما كانت الإشارة إلا إلى القرآن، ولا الإشادة إلا بكلماته...».

وفى كتابه: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» الطبعة الثانية ١٩٩٧م ص٥:

«عندما يسأل المسلمون: هل لله وحىٌ يهدى العالم القديم والجديد إلى الحقائق ويخرج الناس كلهم من الظلمات إلى النور، فإن إجابتهم المفردة: نعم، هذا القرآن الكريم.

الثقة فى هذا الكتاب وحده، الذى لم ترق إليه شبهة، والذى لم يختلط فيه الوحى الأعلى بفكر بشر...».

ويقول ص٦: «ومن بدء الوحى لا يوجد إلا هذا المصحف ولن يوجد غيره ما بقيت الدنيا».

وفى ص٧: «إننا نحن المسلمين نقول فى رسوخ وشموخ: ليس فى القارات الخمس ما يسمى وحيا محضا إلا هذا الكتاب الذى لا ريب فيه... ولن يُعرف الله معرفة صحيحة إلا من التأمل فى معانيه ومغازيه».

وفى ص١٠: «ليت المسلمين استقوا عقائدهم تصوراً وتصويراً من القرآن وحده: إذن لأراحوا واستراحوا».

وفى ص٦٥: «ولن يبصر المسلمون الطريق إلا إذا عادوا إلى الفلسفة القرآنية العملية وفقهوا قوله تعالى فى سورة الحديد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾

والخـــلاصـــة:

إن المسلم المحب لله ولرسوله لا يمكن أن يترك نصوص «السنة النبوية» المحكمة والثابتة ثبوتا قطعيا بشهادة النص القرآنى نفسه (رسالة الله للناس كافة) ويذهب إلى مرويات البشر واجتهاداتهم المذهبية الظنية الثبوت، يبحث وينقب فيها ويتحرى ما صحت نسبته إلى رسول الله كى يتبعه!!. أى رحمة إلهية فى هذا المنهج المذهبى؟!!.

وهل الذى يدعو علماء ودعاة الفرق والمذاهب المختلفة إلى خلع ثوب المذهبية والفرقة: من سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج (وغيرها من المذاهب المتفرعة عن هذه الفرق) ورفع راية واحدة هى راية الإسلام، هل يتهم فى دينه وعقيدته؟!!!!.

ألم نبصر ثمرة الفرقة وما سفكت فى سبيلها من دماء، وجذور التخاصم التى زرعتها الاختلافات المذهبية عبر العصور؟!!!. ألم نعلم شيئا عن التفجيرات الانتحارية التى أصبحت ظاهرة يومية تنذر بمحو الهوية الإسلامية من العالم العربى والإسلامى؟. لماذا يصر كثير من علماء الفرق والمذاهب الإسلامية على تقديس ثقافة التخاصم؟!!!.

إن الحقيقة التى لا شك فيها (والتى يؤيدها واقع تراث الأمة الإسلامية المذهبى عبر العصور) أن الذين يتهمون من يدعو إلى العودة إلى قراءة القرآن (قراءة تتناسب مع كونه آية يجب أن تظهر فاعليتها اليوم) يتهمونه بالخروج من دين الله عز وجل يقصدون فى واقع الأمر الخروج من الدين الذى فرضه أتباع الفرق والمذاهب المختلفة على أولادهم يوم ولادتهم، والذين لم يكن لهم وقتها حرية اختياره.

إن الأمة الإسلامية المقطعة أوصالها اليوم لم تحظ بأى تأييد إلهى ينصرها على عدوها المحتل لأرضها، السالب لكرامتها، الناهب لخيراتها، المحطم لعزتها مع ما لديها من قوة عسكرية ترمى بها، فلماذا لا تنتصر على عدوها!!!.

إنها دعوة إلى جموع المسلمين وقيادات العمل الإسلامى ومنابر الدعوة إلى الفرقة والمذهبية (التى أصبحت تحتل مساحة كبيرة اليوم على القنوات المحلية والفضائية) وحركات الدعوة المنتشرة حول العالم، دعوة إلى إعادة النظر فى الشق الثانى من الآية الكريمة من سورة الأنفال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» والمتعلق بشرط رضا الله تعالى عن المسلمين كى يؤيدهم بنصره على عدوهم!!!.

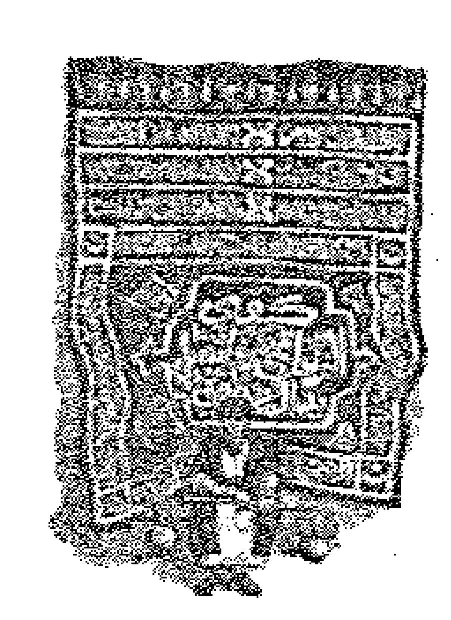
إن رضا الله لا يتحقق إلا بإخلاص الدين لله تعالى (عقيدة وشريعة) وإعداد القوة التى ترهب عدو الله، والتى يعمل لها العدو ألف حساب قبل أن يفكر فى الإضرار بالمسلمين أو الاقتراب من أراضيهم. فأين نحن من هذه القوة؟!!. لماذا انحسر العمل الإسلامى فى انشغال كل فرقة وكل مذهب داخل الفرقة الواحدة بأجندته الفقهية الخاصة به مع بقاء فقه التكفير والتخاصم فى هذه الأجندة؟!!!.

إن الذى يميز المسلمين اليوم هو المظهر العام الذى قوامه الشعائر التعبدية: من



عندما أقول فلنجتمع حول نصوص القرآن وما اتفقنا عليه من كيفيات الأداء العملى لما أجمله من أحكام، لا أقصد بذلك هدم تراث الأمة الدينى، وما يحتويه من أحاديث قولية منسوبة إلى رسول الله





صلاة وقيام ودعاء. وصيام، وإنفاق غير حكيم، وحج وعمرة. وتجارة بالدين (عبر التسجيلات الصوتية التى تحمل مواعظ التطرف الداعى إلى الفرقة والتخاصم والتكفير وسفك الدماء بغير الحق) فلماذا لم ينصرنا الله تعالى وهذا هو حالنا؟!.

لماذا لم يُمكن الله تعالى دينه الذى ارتضاه لنا، لنصبح بنعمته إخوانا، أمة واحدة تحمل أجندة فقهية واحدة للعمل الإسلامى؟!. لماذا لم يبدل الله تعالى خوف المسلمين أمنا؟!!. إنها مقومات القيام بأمانة الشهادة على الناس التى شرف الله تعالى بها هذه الأمة. فهل من سبيل للخروج من عنق الزجاجة؟!.

أين هى الأمة الإسلامية؟!!!. ولا أقول أين هم أهل السنة ولا الشيعة ولا المعتزلة ولا أقول أين الحنفية والحنابلة. إلى آخر هذه الأحزاب المتصارعة. أين المسلمون الذين لم يسمهم الله بهذه المسميات المذهبية وإنما سماهم «المسلمين» ليكونوا شهداء على الناس، لا ليتصارعوا فيما بينهم ويكفر بعضهم بعضا؟!. تدبر قول الله تعالى فى سورة الحج:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٧٨﴾

لقد حذر الله تعالى المسلمين من الفرقة ومن اتخاذ أسماء وهويات وجماعات دينية لم يشهدها عصر الرسالة، ولا كانت من سنة رسول الله التى أمره ربه باتباعها!!! ثم ها هم الآن يصرخون، ويتشنج دعاتهم على منابر الدعوة: فى وجه المخالف لهم فى المذهب بل وفى وجه القطب الواحد الأمريكى المسيطر اليوم على مقدرات شعوب العالم، والذى أصبح ينظر إلى المسلمين نظرة تخوف من هذا التدين المغلوط الذى يهدد مصالحه ومصالح أبنائه فى المنطقة!!!.

ها هم يصرخون دفاعا عن فرقتهم وعن مذاهبهم وتخلفهم الحضارى، مكتفين بما حصلوا عليه من منابر الدعوة المذهبية عبر وسائل الإعلام، يطلقون منها فتاوى التخاصم والتكفير والتطرف والخرافات والتغييب العقلى، فيسلمون رقابهم بأيديهم إلى هذا المارد الجبار، ويهدونه أدوات الطعن فى دينهم وفى إسلامهم ليغتصب بها حقوقهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!! ■

هــذا الكتــاب

■■ «إن السنة النبوية ليست تراثا روائيا مذهبيا تتخذه كل فرقة لتدعيم توجهاتها المذهبية المختلفة، وإنما هى حقيقة قرآنية تقوم على تفعيل كافة المسلمين لذات النص القرآنى المعجز فى كل عصر، وفق إمكانياتهم العلمية والمعرفية».

بهذا النص ختم مؤلف كتاب «السنة النبوية حقيقة قرآنية» إيضاحه لفكرته عما ينبغى أن يراد بعبارة «السنة النبوية» فى ضوء قول الله فى سورة النساء:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

وقد جاء فى آيات القرآن لفظ «السنة» مضافا إلى لفظ الجلالة: «سنة الله» وورد أيضا مضافا إلى السابقين من رسل الله: «سنة الله فى الذين خلوا من قبل» كما جاء ضمن قوله تعالى فى سورة الأحزاب منسوبا إلى النبى صلى الله عليه وسلم:

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾

فسنة النبى هى ما فرض الله له وعليه كما مضت سنته فى الذين خلوا من قبل. ولكن التطور الدلالى أصاب لفظة «السنة» فجعلتها الأجيال مقصورة على ما ورثنا عن الماضين من تعريفها بأنها:

«ما أثر عن النبى، صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة» وبذلك ازدوج معنى «السنة»:

أ. فهو أولا: ما يتعلق بتفعيل النص القرآنى فى شكل أفعال وسلوكيات تتمثل فى تطبيق النبى للنص القرآنى.

ب. وهو ثانيا: المأثور عن النبى من أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته.

ومن الواضح أن المؤلف قد لاحظ أن المعنى الثانى هو ما أدى إلى انقسام الأمة الإسلامية إلى فرق وطوائف، وأحزاب، بحسب ما انتهى إليهم من آثار السنة النبوية بالمعنى الثانى، ولعله هو مضمون إشارة القرآن عن «الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» (الروم/ ٣٢).

فأما المعنى الأول فهو الذى اعتمده المؤلف منطلقا إلى بيان المراد بالسنة النبوية حسب اختياره، وهو يوشك بهذا الاختيار. فى نظر الفرق والمذاهب. أن يتجاهل المعنى الثانى الذى تستند إليه فى تبرير وجودها وتعددها.

والواقع أن هذا المعنى الثانى ليس موضوع دراسته واجتهاده، وهو يؤكد دائما اتجاه القرآن الكريم إلى توحيد الأمة ويحذر من انقسامها، فى آيات كثيرة:

قول الله تعالى فى سورة آل عمران:

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

وقول الله تعالى فى سورة الأنعام:

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

وقول الله تعالى فى سورة الأنفال:

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

غير أن الزمام قد أفلت. فيما يرى. فانقسمت الأمة وتشرذمت لعوامل مختلفة أهمها. فى رأى المؤلف. تناقض المرويات عن السنة واختلاف التفسيرات التى يستند إليها المتفرقون.

ونحن نرى أن الدوافع إلى الانقسام كانت مؤامرات عديدة، عملت على تفريق الأمة الواحدة، إلى حد أن صارت كل فرقة ترى أنها هى صاحبة الحق، وأن ما عداها خارج عن الملة، كافر بدين الله.

وقد جاهد أنصار الانقسام فى التماس النصوص التى نسبوها إلى بيان النبوة بل ولقد وضعوا ما زعموا أنه من أحاديث الرسول ليدعموا مواقفهم الشاذة وهكذا اختلط الحابل بالنابل فى بناء الأمة الواحدة.

إن محاولة المؤلف، التى تقوم على اعتبار «السنة» هى الصورة الفعلية للبيان القرآنى، تخرجنا. فى رأيه. من المأزق الذى تورطت فيه الفرق المختلفة، استنادا إلى مروياتها المريضة، وتضعنا مع النص القرآنى العملى فى التزام النبى بأوامر القرآن، وهو ما عبر عنه بعبارة «تفعيل النص القرآنى» وهذا التفعيل هو «السنة النبوية» لا غير.

ولذلك صار فى وسعه أن يتصور التطابق بين معنى «السنة النبوية» و«الحقيقة القرآنية، وهو اتجاه أثار كثيرين من أهل الدعوة. بدعوى أن المؤلف منكر للسنة بالمعنى الثانى، وهو ما يترتب عليه إهدار «ما أثر عن النبى قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة»، وهو تراث يتجاوز مئات الألوف من أحاديث الرسول سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة!!... وقد عالج هذا الجانب علماء الجرح والتعديل.

والحق الذى نراه جمعا للشمل، وتوفيقا بين الجانبين، قد يدل عليه مضمون قوله تعالى فى سورة المائدة:

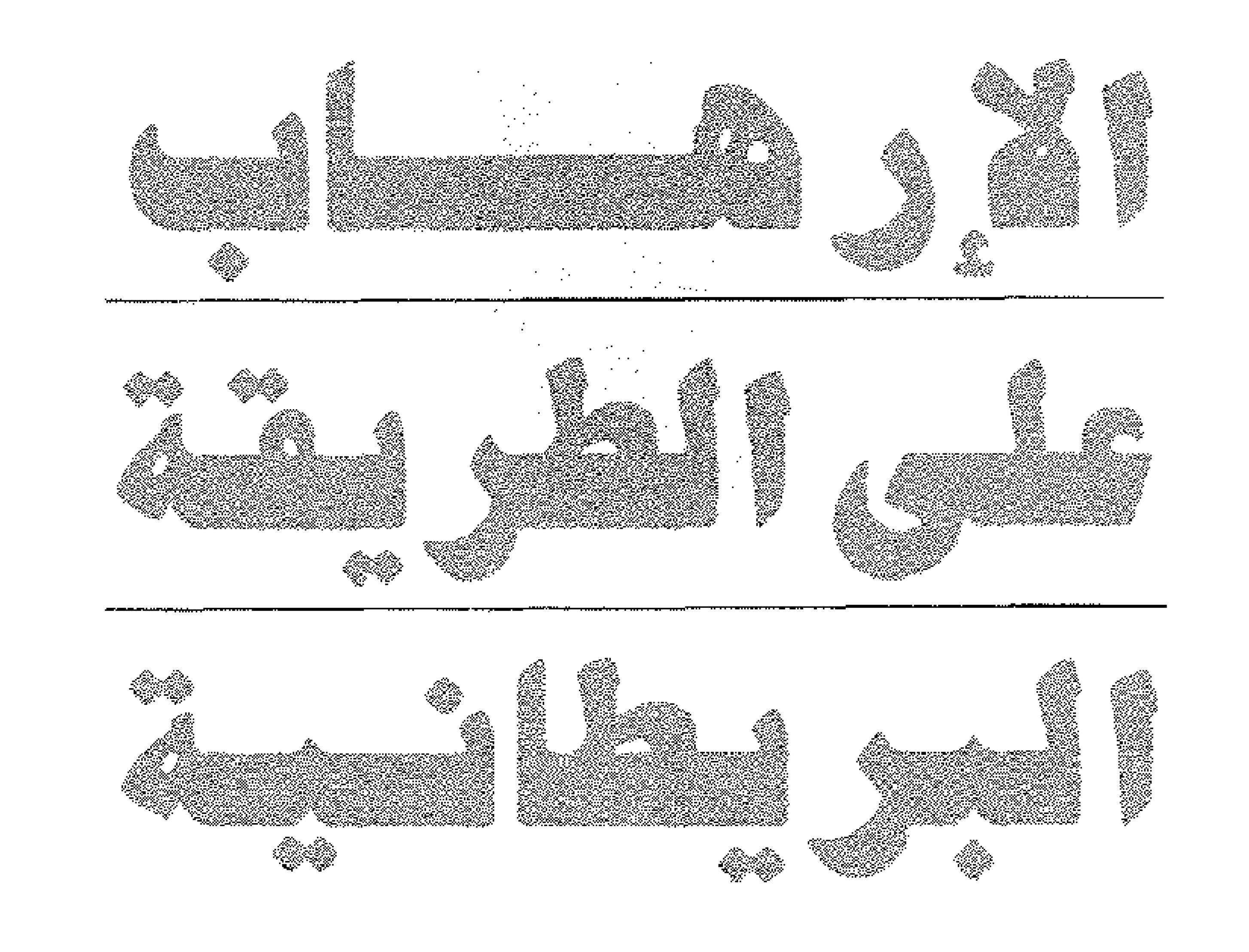
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

فالأمر بالتبليغ فى الآية يشمل التبليغ بالقول والفعل لما أنزل إليه من ربه وقوله «وإن لم تفعل» ليس معناه فى رأينا «وإن لم تبلغ» بل المقصود أن يكون التبليغ بالفعل: أى بلغ ما أنزل إليك بالقول وبالفعل، فإن بلغت بالقول فقط ولم تفعل. فما بلغت رسالته. وهو أيضا مضمون قوله تعالى فى سورة الصف: «لم تقولون ما لا تفعلون... الآية». أليس هذا هو المقصود بتفعيل النص القرآنى؟!. وعليه يمكن أن يكون المقصود بالسنة النبوية فى رؤية المؤلف: «التبليغ النبوى بالفعل»، وحينئذ يفض الاشتباك، ويبرأ المؤلف من شبهة إنكار السنة بالمعنى الثانى. إن الجهد الذى بذله الدكتور محمد مشتهرى فى تأليف هذا الكتاب، طبقا لفكرته عن «تفعيل النص القرآنى»، لم يسبق أن يبذل مثله مؤلف صاحب فكرة بناءة كهذه الفكرة، وإنه ليستحق أن يهنأ بما حالفه من توفيق الله وعونه.

ولا ريب أن فكرته قد فتحت بابا واسعا للدعاة، يثرى عطاءهم، ويجدد نداءهم لجماهير المسلمين، أن يعودوا إلى لواء الوحدة الإسلامية، يستظلون به ويشربون تعاليمه، وينبذون الفرقة التى مزقتهم على مر التاريخ.

ولا ريب أن الرجوع إلى القرآن بتفعيل نصوصه، واستنطاق آياته، فى ضوء البيان المحمدى الفعلى سوف يُعيد للأمة حيويتها، ويزيد من طاقتها، ويعدل كثيرا من سلوكياتها، وهو أمل نطمح إليه جميعا، حيث تجتمع القلوب ويتعانق الإخوة المؤمنون ويومئذ يفرحون بفضل الله. ■

عبد الصبور شاهين



الإرهاب على الطريقة البريطانية

عـزام التـمـيـمـى

▪▪ تعيش بريطانيا أجواء من الرعب غير مسبوقة، وذلك منذ أن أعلنت السلطات الأمنية البريطانية في أغسطس الماضي عن كشف خطة تستهدف تفجير طائرات ركاب أثناء طيرانها عبر الأطلسي بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ومصدر الذعر والهلع ليس الإعلان عن اكتشاف الخطة، فقد سبقها إعلانات كثيرة عن نوايا وخطط قيل إنها كانت تستهدف البلاد والعباد بأعمال إرهابية، ولكن لم يحصل من قبل ما حصل الآن. الجديد فى الأمر هو الإجراءات الأمنية المفاجئة التى فرضتها السلطات فى مطارات البلاد وما لبثت أن انتشرت إلى مطارات الدنيا قاطبة، حتى أضحى السفر جحيماً لا يطاق. فقد ألغى مطار هيثرو كافة الرحلات المحلية والأوروبية لما لا يقل عن ٤٨ ساعة، وأدخلت سلطاته الأمنية إجراءات تفتيش لم يسبق أن لجأت إليها من قبل، إذ منع المسافرون من اصطحاب أى شىء معهم على متن الطائرة، فلا حقيبة يد، ولا كتاب، ولا معجون أسنان، ولا هاتف نقال، ولا شىء يعمل بالبطاريات أو الكهرباء مهما صغر، ولا سائل أياً كان لونه أو طعمه أو رائحته، وجرد المسافرون من كل ما بحوزتهم حتى لم يبق إلا أن تنزع عنهم ملابسهم.

فى كل المرات السابقة كان الناس يسمعون عن الخطط المزعوم كشفها من خلال وسائل الإعلام دون أن يشعروا بها أو بأى أثر لها، أما الآن فقد عانى عشرات الآلاف من المسافرين الذين إما ألغيت رحلاتهم أو تأخرت ساعات طويلة بينما افترشوا أرصفة الشوارع المحيطة بالمطار، وهؤلاء شعر بهم عشرات الآلاف من أقاربهم ومعارفهم المودعين لهم أو المستقبلين، مما رسخ فى أذهان أكبر نسبة من الشعب البريطانى هاجس اقتراب الخطر الداهم من عتبة بيت كل واحد منهم.

ما من شك فى أن الحكومة البريطانية نجحت هذه المرة فيما فشلت فيه مرات عديدة من قبل. فمنذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر والسلطات تحاول جاهدة إقناع الرأى العام البريطانى بأن خطر الإرهاب محدق بالجميع، وبأنها إزاء ذلك مضطرة لإدخال تعديلات قانونية تسمح بردع من تسول له نفسه النيل من استقرار البلاد، فجاءت محاولات تمرير قانون الإرهاب



بصيغه المختلفة بهدف الحد باسم القانون من الحريات المدنية وتجاوز حقوق الإنسان الأساسية التى ما فتئ البريطانيون يفتخرون بريادة العالم فى التمسك بها والدفاع عنها. ورغم كل المحاولات السابقة، ورغم تعرض شبكة قطارات الأنفاق اللندنية لحملة تفجيرات فى السابع من تموز (يوليو) ٢٠٠٥ إلا أن الرأى العام ظل متشككاً لا تنطلى عليه الادعاءات الرسمية، واستمرت المؤسسات التشريعية والقانونية مدعومة بقطاع واسع من الإعلام المستقل ومؤسسات المجتمع المدنى تقاوم إلحاح حكومة طونى بلير على فرض ما يشبه حالة الطوارئ فى طول البلاد وعرضها.

لم يعد ثمة شك فى أن البلاد البريطانية مهددة، فتفجيرات تموز أثبتت ذلك يقيناً، إلا أن فشل الأجهزة الأمنية فى اكتشاف ذلك المخطط قبل وقوعه وثبوت عدم صدقية كل ما زعمته السلطات من مخططات أخرى، أوقع الحكومة فى مأزق كبير، حتى أصبح من المألوف سماع الناس يتحدثون عن مسلسل الكذب الحكومى. ولعل هذا ما يدفع بكثير من الناس إلى التردد فى قبول الرواية الحكومية حول المخطط الأخير، وحتى بعد توجيه المدعى العام فى الحادى والعشرين من آب (أغسطس) تهماً بالتخطيط للقتل العمد لثمانية من الموقوفين الأربعة والعشرين.

لا يتسع المجال هنا لسرد قائمة بكافة المخططات والمؤامرات التى زعمتها السلطات الأمنية ولم تثبت صحتها، والتى يأتى على رأس قائمتها الزعم بأن الحرب على العراق كانت ضرورة ملحة للحيلولة دون أن يستخدم نظام صدام حسين ما ادعى الساسة الأمريكان والبريطانيون من أنه «أسلحة دمار شامل» ذات قدرة على ضرب الشواطئ الجنوبية للقارة الأوروبية. كما زعموا أيضاً بأن حربهم على الإرهاب كان لابد أن تشمل العراق بسبب ما ادعوه من دليل لا مجال لدحضه على وجود علاقة تعاون وتنسيق بين القاعدة والنظام العراقى، ورافق ذلك الادعاء الذى ثبت كذبه فيما بعد أن العراق اشترى كمية من اليورانيوم من دولة النيجر لاستخدامها فى مشروع نووى مزعوم. ولإقناع الرأى العام المتشكك، وقبيل شن الحرب بأسابيع قليلة، أمرت السلطات البريطانية

توقيت الكشف عن الهجمات على بريطانيا لم يكن بمعزل عن تطورات الأوضاع فى لبنان، حيث كان يُدمر بأيدى الصهاينة وكان الرأى العام يتجه نحو التنديد بالموقف الأمريكى- البريطانى الذى عطل جهود وقف العدوان



الجيش بالانتشار حول مطار هيثرو فى شهر فبراير (شباط) ٢٠٠٣ بينما كان الحجاج المسلمون البريطانيون يتأهبون للعودة إلى بريطانيا بعد استكمال مناسكهم. وادعى السياسيون البريطانيون حينها بأنهم توفرت لديهم معلومات استخباراتية تؤكد بأن مسلمين إرهابيين يعدون لإسقاط طائرات ركاب بالصواريخ يطلقونها بزعمهم من مبان محيطة بالمطار. وتم بشكل أو بآخر ربط هذا المخطط بالحجيج والحج، لإلصاق التهمة بالإسلام ديناً وبالمسلمين أمة. ومنذ ذلك الوقت وإلى ما بعد غزو العراق بشهور تعرض ما يقرب من ألف مسلم للاعتقال لفترات متفاوتة للشك فى ضلوعهم فى مخططات إرهابية، وسربت إلى وسائل الإعلام معلومات مختلقة حول وجود خلايا من الشباب الجزائريين الذين كانوا يعدون لصنع قنبلة من «حبوب الخروع»، ولم تصمد التهم أمام القضاء البريطانى النزيه الذى كشف النقاب عن أن المصدر الوحيد لهذه المعلومات هو بعض من أجهزة استخبارات عربية انتزعتها بدورها من معتقلين تعرضوا فى زنازينها وعلى أيدى زبانيتها لأقصى أنواع التعذيب والامتهان.

ثم جاءت تفجيرات تموز التى أوشكت السلطات استخدامها كما لم يتسن لها من قبل فى تبرير سياساتها لولا أنها وقعت فى شر أعمالها حينما طلعت على الرأى العام بكذبة شاء الله بكيده مقابل كيدهم أن يكشفها. فقد ادعت الأجهزة الأمنية، وطبل السياسيون لذلك وزمروا، بأن شخصاً ذا ملامح آسيوية - يظن بأنه مسلم - كان يوشك أن يقوم بعملية إرهابية فى إحدى محطات الأنفاق فى الثانى والعشرين من نفس الشهر لولا أن ضباط الأمن «اليقظين» عاجلوه بسبع أو ثمانى رصاصات فأردوه قتيلاً. ولما يقرب من أربعة وعشرين ساعة كانت وسائل الإعلام تضلل بمعلومات تفيد بأن الشرطة كانت تراقب مسكنه، وبأنه تأكدت من ضلوعه فى الإرهاب، ثم تابعته، فهرب منها، ودخل محطة القطارات قفزاً على الحاجز بشكل غير قانونى، وطلب منه أن يتوقف مراراً وتكراراً لكنه لم ينصع، فما كان منهم إلا أن أردوه قتيلاً قبل أن يقدم على فعلته التى نسبوها إليه زوراً وبهتاناً. إنه الشاب البرازيلى المظلوم «دى مينيسز» الذى لم يهرب منهم، ولم يكن مسلماً، ودخل المحطة بتذكرة وبشكل قانونى، ولم يطلبوا منه التوقف مرة واحدة، ولم يكونوا يعرفون عنه شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك قتلوه بدم بارد. كانت لدى شكوكى منذ البداية، وفى صبيحة ذلك اليوم تحدثت مع عمدة لندن السيد كين ليفنغستون على هامش زيارته للمسلمين فى مسجد برينت، فقال لى بأن مفوض الشرطة أكد له بأن معلوماتهم عن الرجل وعن نواياه مؤكدة وبأنه كان على وشك تفجير نفسه فى القطار. ولم تمر ساعات حتى «سود» الله وجه حكومة طونى بلير وأوقع السلطات الأمنية فى حرج غير مسبوق.



وبعد أقل من عام، وتحديداً فى الثانى من حزيران (يونيو) ٢٠٠٦ أعلنت الحكومة البريطانية عن مداهمة بيت عائلة مسلمة من أصل باكستانى فى حى «فوريست جيت» فى شرق لندن، بحجة توفر معلومات استخباراتية عن وجود مصنع لتجميع قنبلة «قذرة». دوهم البيت فى الساعات الأولى من النهار قبيل الفجر، وظن سكانه بأن لصوصاً قد سطوا عليهم، فبلا سابق إنذار قاموا من نومهم مذعورين على أشباح مكممين ملفحين بالسواد يأمرونهم بالانبطاح أرضاً ويكيلون لهم أقذع الشتائم بأحط العبارات وأقذر الألفاظ، ويهددونهم بالقتل إن لم يستجيبوا لهم. انتهت «عملية السطو» بإلقاء القبض على شابين شقيقين، أصيب أحدهما بعيار نارى فى كتفه، وبترويع أهل الدار من نساء وأطفال، بل وإزعاج الحى بأكمله. وبعد أن خرب البيت تماماً بحثاً عن «الدليل»، ولم يبق لوح خشب فى محله، ونزعت كافة الجدران والسقوف والأرضيات، وحفرت الحديقة الخلفية بأسرها، وتعرض الأخوان للاستجواب المستمر ما يقرب من عشرة أيام متواصلة، أعلنت السلطات بأن المعلومات الاستخباراتية لم تكن فيما يبدو صحيحة وأن الأخوين بريئان مما وجه إليهما.

ثم جاء الإعلان عن الخطة المزعومة لتفجير الطائرات فى الجو باستخدام سوائل يتم إدخالها إلى الطائرة حيث تمزج وتحول إلى قنابل، وأعلنت السلطات عن إلقاء القبض على مجموعة من المسلمين، من عدة مناطق فى بريطانيا، أحدهم شخص اعتنق الإسلام قبيل شهور قليلة. ورغم أن السلطات تحاول جاهدة هذه المرة أن تبدو أكثر ثقة بما لديها من معلومات وما تدعى بأن أيديها وقعت عليه من أدلة، إلا أن المسلمين فى بريطانيا لا يصدقون ما ينسب إلى هذه المجموعة المعتقلة، ويرى كثير منهم بأن الأمر لا يتعدى محاولة يائسة أخرى من السلطات البريطانية لتبرير مضيها فى سياسة خارجية ثبت فشلها وفى إجراءات أمنية داخلية ثبت عقمها.

ومما كرس الشك لدى المسلمين، وغير المسلمين على حد سواء، ما تناقلته وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية عن الدور الأمريكى والدور الباكستانى فى الموضوع. فقد ذكرت محطة إن بى سى الامريكية بأن الحكومة البريطانية كانت



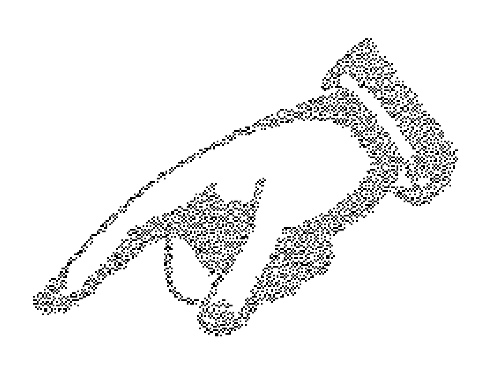
تريد التريث قبل الإعلان عن المخطط حتى يتوفر لديها مزيد من المعلومات وحتى لا تخرج على الناس كما حصل فى السابق بقصة ملفقة تسود وجهها، إلا أن إدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش أصرت على الإعلان وعلى الإجراءات الأمنية الشديدة فى المطارات لأن الحزب الجمهورى الحاكم، والذى تراجعت شعبيته بشكل كبير خلال الشهور الأخيرة بسبب تحول العراق إلى مصيدة ومستنقع، بحاجة إلى ما يحسن وضعه الانتخابى وهو يخوض غمار الحملة الانتخابية لاختيار أعضاء الكونغرس فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) القادم، ولا أفضل من حالة من الرعب والذعر يستغلها الجمهوريون - الذين يتربع المحافظون الجدد الصهاينة على عرش زعامتهم - لإثبات أن الحرب على الإرهاب مطلوب استمرارها، وبأنهم وحدهم القادرون على حماية البلاد الأمريكية من الخطر الإسلامى الفاشستى كما عبر عنه الرئيس جورج بوش. ويرى البعض بأن توقيت الإعلان عن الخطة وإنفاذ الإجراءات المزعجة فى المطارات الأمريكية والبريطانية، لم يكن بمعزل عن تطورات الأوضاع فى الساحة اللبنانية، حيث كان لبنان يدمر بأيدى الصهاينة لإنفاذ خطة أمريكية-بريطانية مشتركة، وكان الرأى العام يتجه بشكل متسارع نحو التنديد بالموقف الأمريكى-البريطانى الذى عطل كل جهد دولى لوقف العدوان.

أما الدور الباكستانى فقد انكشف أمره حينما أعلن البريطانيون بأن من اعتقلوا فى الساحة البريطانية إنما توفرت المعلومات عنهم من خلال تحقيقات يدعى الباكستانيون بأنهم أجروها مع شاب بريطانى من أصل باكستانى اعتقلته أجهزتهم الأمنية فى الباكستان، ويشك بأنه من العناصر القيادية فى «القاعدة». ويعلم المسلمون فى بريطانيا، كما يعلم ذلك أهل الاختصاص، بأن الأجهزة الأمنية الباكستانية فاقدة للمصداقية وبأن الحكومة الباكستانية تسعى جاهدة وبكل الوسائل لاسترضاء الحلفاء الأمريكان وكسب ودهم، ولو كان ذلك من خلال تلفيق القصص حول مخططات كبيرة ومذهلة كالتى يزعمون الكشف عنها. ولا يخفى على أحد أن السلطات الباكستانية مسؤولة بشكل مباشر عن معاناة معظم معتقلى غوانتينامو الذين سلموا، أو بيعوا بثمن بخس، للأمريكان بحجة انتمائهم للقاعدة أو ضلوعهم فى الإرهاب، ولم تتمكن الولايات المتحدة حتى الآن من تقديم شخص واحد منهم للمحاكمة لعدم وجود أى دليل يمكن أن يصمد أمام القضاء.



بعد خمس سنوات تقريباً من بدء الحرب المزعومة على الإرهاب بدأت الساحة البريطانية تشهد حالة من التوجس والقلق لم تعهدها من قبل، وبدأنا نشهد تزايداً ملحوظاً فى التصرفات المعادية للعرب والمسلمين كنا نفاخر بأنها ظلت محدودة جداً رغم كل ما حدث. ولعل فى هذا مؤشراً على نجاح - ولو

كتاب الزاوية



أريج البُستان

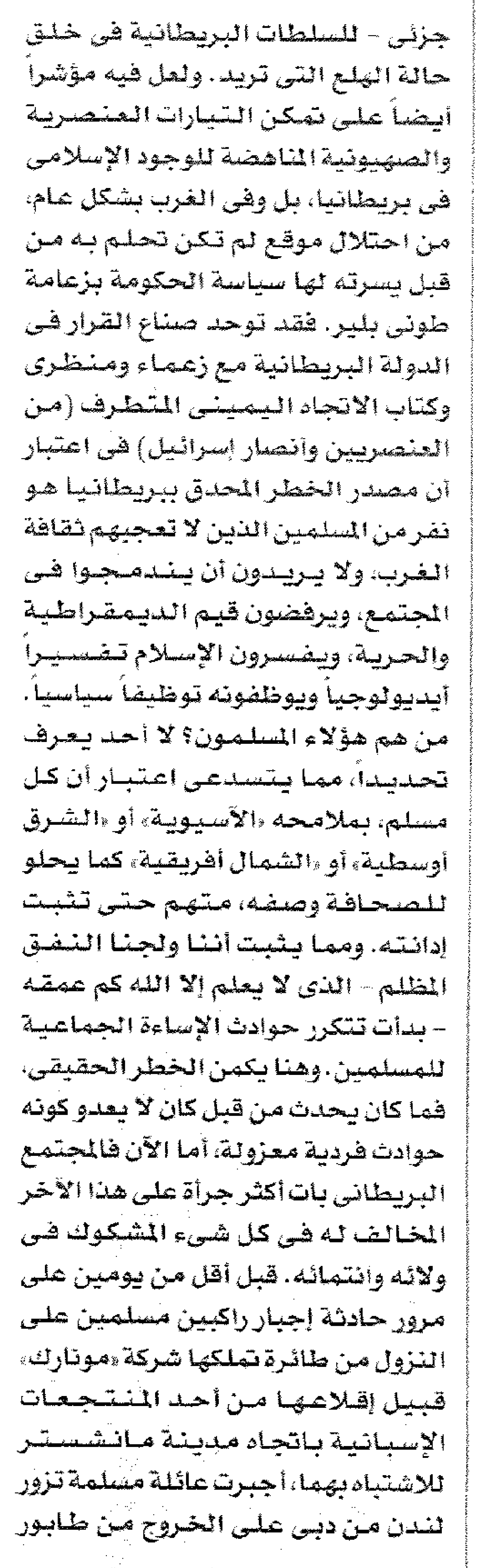
السعدى الشيرازى

التقت قلوب وعقول العرب مع الفرس منذ الفتح الإسلامى لبلاد فارس، وزاد التواصل السياسى والعلمى والأدبى بين الأمتين المسلمتين على مدى السنين. وقد كان التأثير الفارسى على الأدب العربى بشكل خاص واضحًا ومؤثرًا، الأمر الذى أعلى من قدر الأدبين العربى والفارسى على السواء.

ورغم هذا التواصل والتلاقح، فإن كثيرًا من الأعمال الفارسية لم تنل حظها من الترجمة للعربية حتى يتعرف عليها أبناء لغة الضاد. ومن بين هذه الأعمال العمل الأدبى الشهير «بوستان» للشاعر السعدى الشيرازى الذى ولد على الأرجح عام ٥٨٠ هجرية (١١٨٤ ميلادية) وتعلم فى بغداد علوم اللغة وآدابها وعلوم القرآن والرواية. وله ديوان ضخم يعرف بالكليات ويضم ست رسائل نثرية وأشهر آثاره وأكثرها انتشارًا: بوستان وكلستان وقصائد عربية وفارسية وغزليات. وقد عاش الشاعر - على ما يقال - مائة عام.

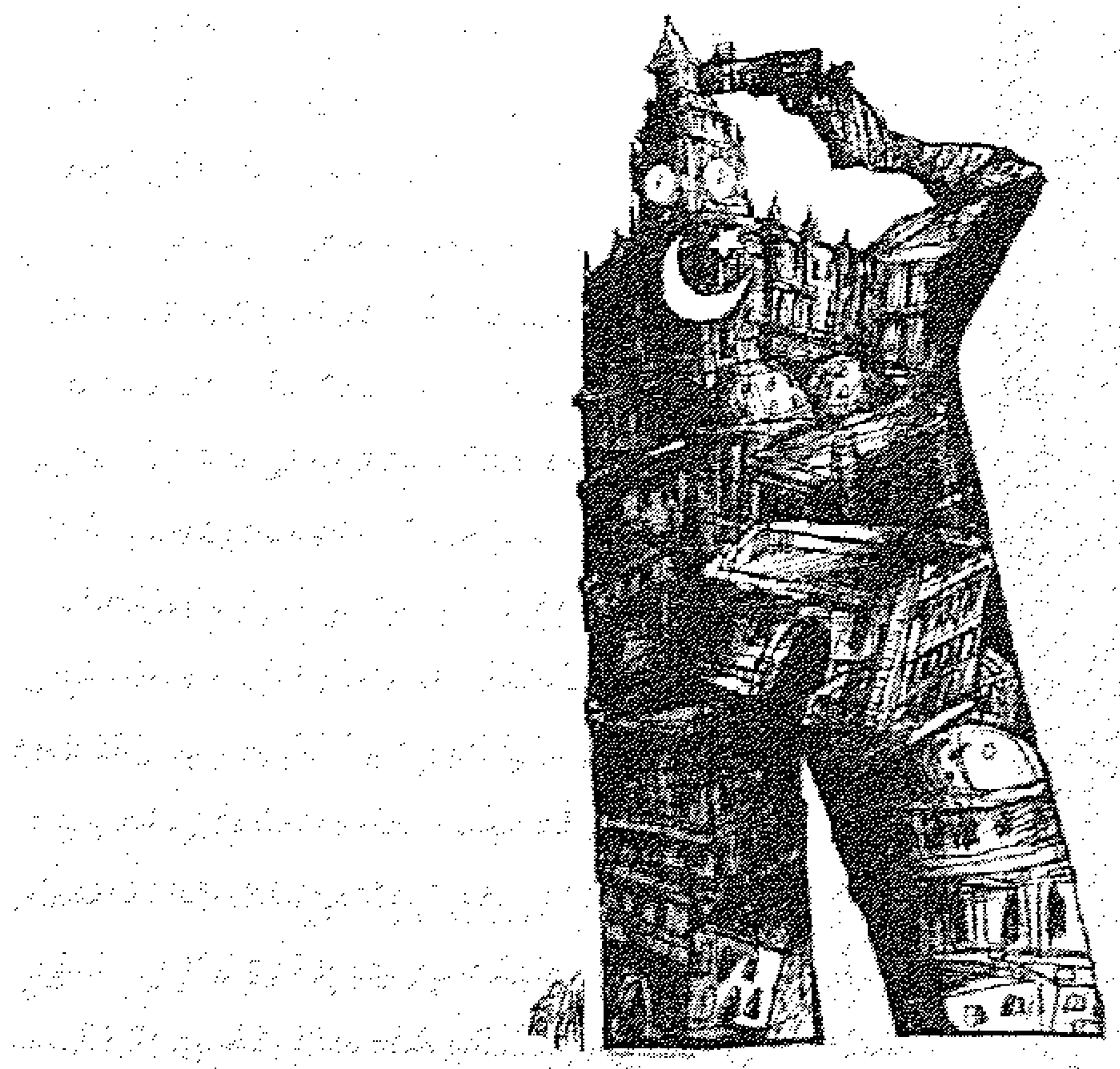
واسم السعدى الشيرازى هو اسم أدبى لأن اسم الشاعر الحقيقى هو مشرف الدين بن مصلح الدين، لكن الشاعر اتخذ اسم الشيرازى على عادة شعراء الفرس فى اختيار أسماء أدبية.

وقد ترجم كتاب بوستان كاملاً إلى العربية ولأول مرة الدكتور أمين بدوى أستاذ الآداب الفارسية بجامعة عين شمس واختار عنوانًا للترجمة العربية هو أريج البستان، ونشرت الكتاب دار الشروق فى طبعتين الأولى عام ١٩٩٧، والثانية عام ٢٠٠٦.



جزئى - للسلطات البريطانية فى خلق حالة الهلع التى تريد. ولعل فيه مؤشراً أيضاً على تمكن التيارات العنصرية والصهيونية المناهضة للوجود الإسلامى فى بريطانيا، بل وفى الغرب بشكل عام، من احتلال موقع لم تكن تحلم به من قبل يسرته لها سياسة الحكومة بزعامة طونى بلير. فقد توحد صناع القرار فى الدولة البريطانية مع زعماء ومنظرى وكتاب الاتجاه اليمينى المتطرف (من العنصريين وأنصار إسرائيل) فى اعتبار أن مصدر الخطر المحدق ببريطانيا هو نفر من المسلمين الذين لا تعجبهم ثقافة الغرب، ولا يريدون أن يندمجوا فى المجتمع، ويرفضون قيم الديمقراطية والحرية، ويفسرون الإسلام تفسيراً أيديولوجياً ويوظفونه توظيفاً سياسياً. من هم هؤلاء المسلمون؟ لا أحد يعرف تحديداً، مما يستدعى اعتبار أن كل مسلم، بملامحه «الآسيوية» أو «الشرق أوسطية» أو «الشمال أفريقية» كما يحلو للصحافة وصفه، متهم حتى تثبت إدانته. ومما يثبت أننا ولجنا النفق المظلم - الذى لا يعلم إلا الله كم عمقه - بدأت تتكرر حوادث الإساءة الجماعية للمسلمين. وهنا يكمن الخطر الحقيقى، فما كان يحدث من قبل كان لا يعدو كونه حوادث فردية معزولة، أما الآن فالمجتمع البريطانى بات أكثر جرأة على هذا الآخر المخالف له فى كل شىء المشكوك فى ولائه وانتمائه. قبل أقل من يومين على مرور حادثة إجبار راكبين مسلمين على النزول من طائرة تملكها شركة «مونارك» قبيل إقلاعها من أحد المنتجعات الإسبانية باتجاه مدينة مانشستر للاشتباه بهما، أجبرت عائلة مسلمة تزور لندن من دبى على الخروج من طابور الراغبين فى ركوب ما يعرف بـ«عين لندن» المطلة على نهر التيمز ومبنى البرلمان، وذلك لأن أفرادها سمعوا يتحدثون بالعربية.

طونى بلير مسؤول مسؤولية كاملة عن هذا الذى يجرى، والذى سيجر الويلات على المجتمع البريطانى لما تسببه مغامراته من تصدع فى معادلة التعايش بين الثقافات والشعوب التى ما لبث البريطانيون يفاخرون الدنيا بها، ويتسامون بسببها عما يعتبرونه فشلاً ذريعاً من قبل غيرهم من الشعوب الأوروبية فى احتواء موجات المهاجرين واللاجئين إليها. ومرجع ذلك إصرار طونى بلير والحكومة التى يتزعمها على أن سبب الأزمة التى نعيشها هو الإسلام أو بعض تفسير منحرف أو متطرف له. بل رأيناه فى الآونة الأخيرة يحتل موقع المفتى والمرشد العام للأمة الإسلامية إذ يجد فى نفسه الكفاءة لأن يخبرنا أى الإسلام حق وأيه باطل. فالإسلام الحق من وجهة نظره هو «الإسلام الأوروبى» الذى لا يأبه أتباعه بما يجرى من حولهم من أهوال تسببها سياسة حكومته، ولا يرتبطون بأواصر بأحد فى العالم الإسلامى، ولا يخلطون السياسة بالدين، ولا يتمسكون بما يميزهم عن غيرهم خلقاً أو سلوكاً أو مظهراً. إنه الإسلام الأوروبى الذى تحدث عنه مؤخراً أحد وزراء الداخلية الأوروبيين حينما دعاهم إلى اجتماع فى لندن وزير داخلية بريطانيا لتدارس تداعيات الخطة المزعومة، إنه الإسلام الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة، إسلام لا يختلف عن المسيحية التى جردت من كل محتواها عبر قرون من العلمنة. وطونى بلير بإصراره على ذلك يقصد عدم السماح



الإرهاب على الطريقة البريطانية

بفتح باب المساءلة عما جنته سياسة حكومته الخارجية من مصائب، وعما تسببته من استقطاب يوفر الأرضية الخصبة لتنامى تيارات العنف وحركات الإرهاب. فبريطانيا لم تتعرض لخطر من قبل أحد من المسلمين قبل أن تشارك الولايات المتحدة فى غزو العراق وتتحالف معها فى حربها على الإرهاب. بل كان مصدر الخطر عليها فى السابق هو الجيش الجمهوري الإيرلندى الذى قرر طونى بلير بعد استلامه للسلطة الاعتراف به والتفاوض معه لإنهاء حالة العنف المتبادل.

يدور حالياً فى أوساط المثقفين البريطانيين جدل عنيف حول من يتحمل المسؤولية وكيف نخرج من دوامة الأزمة العاصفة بنا جميعاً، إلا أن الحكومة حتى الآن تأبى أن تشارك فى الحوار، لأنها لا تريد تحمل مسؤوليتها وتخشى من المساءلة. وفى محاولة فاشلة منها قامت الدولة بتشكيل هيئة أعضاؤها من المسلمين الذين اختارتهم بعناية حتى تدرس أسباب التطرف والعنف وتقدم مقترحاتها إلى الحكومة مساهمة منها فى التوصل إلى حل للأزمة، إلا أن التقرير الذى قدمته الهيئة لم يعجب الحكومة لأنه اعتبر السياسة الخارجية للدولة البريطانية أحد العوامل التى تساهم فى دفع الشباب الغاضب والمحبط نحو التطرف.



يحلو للساسة البريطانيين توجيه إصبع الاتهام إلى المسلمين على افتراض أنه كان بإمكانهم تدارك الأمر ومواجهة تيار العنف والتطرف بين ظهرانيهم، الأمر الذى يرفضه زعماء المسلمين رفضاً قاطعاً محذرين من أن نهج الحكومة يشجع العنصريين واليمينيين المتطرفين وأنصار إسرائيل على التطاول على المسلمين مما يفاقم من آثار التصدع الذى طرأ على المجتمع البريطانى. ومما يبعث على الاستهجان أن إصرار الحكومة ومن يؤيدها فى ذلك على تحميل المسلمين المسؤولية يتناقض مع فرضيات بدهية، على رأسها أن بريطانيا بلد ليبرالى الفردية فيها - كما فى العالم الغربى بشكل عام - هى الأساس، فما أن يبلغ المرء فى هذه المجتمعات الثامنة عشرة من عمره حتى يصبح مسؤولاً عن نفسه وعن أفعاله أمام القانون، ولا يتحمل أحد وزر ما يصدر عنه من أقوال أو أفعال. وكلما تجدد الجدل حول هذا الموضوع تساءل المسلمون: عجباً، كيف نلام نحن جميعاً حينما يخطئ بعضنا ولا توجه أصابع الاتهام لأحد حينما يرتكب شخص من أتباع الديانات أو الأعراق الأخرى جنحة أو جرماً ما؟

إن أى حوار جاد وهادف لابد أن يسلط الضوء على ثلاث دوائر من المسؤولية. الدائرة الأولى تتعلق بالمسلمين كمجتمع له مراكزه ومساجده وزعماء ينطقون باسمه وصناع رأى يؤثرون فى أبنائه. هل ثمة خلل علينا تداركه، وكيف يمكننا أن نساهم فى حماية أمن المجتمع الذى نعيش فيه مما قد يتهدده من أخطار. إلا أن الدائرة الأهم من ذلك هى الدائرة الأمنية، حيث منيت الأجهزة الأمنية بفشل ذريع حينما لم تتمكن رغماً عن كل الإجراءات والمتابعات من اكتشاف أمر الذين أحدثوا زلزال السابع من تموز فى لندن العام الماضى. ورغم الفشل الذريع والأخطاء الفاضحة المتكررة إلا أن تحقيقاً لم يجرى ومحاسبة للمسؤولين الأمنيين لم تتم. وأما الدائرة الأهم منهما جميعاً فهى المتعلقة بالأسباب الحقيقية للاحتقان والاستقطاب، ألا وهى السياسة الخارجية للحكومة البريطانية والمتمثلة بالتحالف مع الأمريكان فى حربهم على الإسلام بحجة مكافحة الإرهاب وبالتأييد المطلق وغير المشروط للعدو الصهيونى الذى تلهب أنات ضحاياه فى فلسطين ولبنان مشاعر إخوانهم وأخواتهم من المسلمين والمسلمات عبر العالم. وما لم تقر الحكومة البريطانية بمسؤوليتها، أو على الأقل تقبل بالحوار حول الموضوع، فإن أى جهد يبذله مسلمو بريطانيا وأى إجراءات تتخذها الأجهزة الأمنية لا تكفى وحدها لصيانة أمن البلاد ودرء خطر الإرهاب عنها.

الأزمة بين الحكومة والمسلمين فى بريطانيا مرشحة للتفاقم إذا لم تحصل مفاتحة ومصارحة وإذا لم يفتح المجال أمام حوار يشارك فيه الجميع دون خوف أو تشنج. إلا أن ذلك من غير المتوقع حدوثه قبل أن يطرأ تعديل على القيادة السياسية فى البلاد، فرئيس الوزراء طونى بلير لم يعد قادراً على التحرر من القيود التى فرضتها عليها علاقته الحميمة بالإدارة الأمريكية، وقد خضع بلير للضغوط من داخل حزبه معلناً أنه سيتقاعد عن منصبه كرئيس للوزراء خلال ١٢ شهراً. ■

كتاب الزاوية

حكاية عن عمر بن عبدالعزيز

أريج البستان

١ ـ شخص من العظماء أهل التميز، يحكى عن «عمرَ بن عبدالعزيز».

٢ ـ أنه كان له فص على خاتم، حار فى «تقدير» قيمته الجوهرى.

٣ ـ كأن ذلك الجرم المضيء الدنيا فى الليل. كان درة مثل النهار فى النور.

٤ ـ وجاء قضاء عام قحط. فصار بدر سيما الناس هلالاً.

٥ ـ فلما لم ير فى الناس راحة وقوة، لم ير الراحة ذاتها مروة.

٦ ـ حين يرى إنسان السم فى حلوق الخلق. كيف يمر الماء حلوًا فى حلقه؟

٧ ـ فأمر أن «يبيعوه» وباعوه بالفضة. لأنه أشفق على الغريب واليتيم.

٨ ـ وفى أسبوع واحد بدد نقده وثمنه. وأعطاه للفقير والمسكين والمحتاج.

٩ ـ فلامه اللائمون قائلين: إنه لا يأتى مثله فى يدك مرة أخرى.

١٠ ـ سمعت أنه كان يقول وأمطار الدمع كانت تهطل على عارضيه مثل «دموع» الشمع.

١١ ـ الزينة تكون قبيحة على الملك، وقلوب المدنيين قريحة من الضعف.

١٢ ـ إذا نام الملك ناعمًا مستغرقًا على السرير، لا أظن أن الفقير ينام مستريحًا.

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس

روبرت سكيدلسكى

تعد مسألة كيف ينبغى إدارة العالم ودور أمريكا فى إدارته موضوع جزء كبير من النقاش السياسى والأكاديمى الدائر فى واشنطن هذه الأيام. والأسئلة الواقعية هى: هل الولايات المتحدة فى سبيلها لأن تصبح إمبراطورية كالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية من قبلها؟ وما هى احتمالات نجاح مثل هذا المشروع فى عالم اليوم؟ وبشكل أكثر تأملاً، هل تحتاج العولمة إلى أساس إمبراطورى يدعمها؟ وهناك كذلك أسئلة مهمة مثل: هل النزعة الإمبراطورية شىء نافع أم ضار؟ وهل ينبغى أن تضحى الولايات المتحدة بمؤسساتها الجمهورية من أجل تحقيق المهمة الإمبراطورية؟ يمكن قراءة كتاب جريجور دالاس «١٩٤٥: الحرب التى لم تنته قط» استعداداً لهذه المناقشة. فقد قضت الحرب العالمية الثانية على الإمبرطوريات الأوروبية، القائم منها والمأمول، حيث بقيت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى القوتين العظميين المتنافستين. وأنهى انهيار الاتحاد السوفيتى «ما لم ينته من أعمال» الحرب، حيث ترك الولايات المتحدة القوى العظمى الوحيدة وخلق فى الوقت ذاته اقتصاداً عالمياً واحداً. وديناميات السيادة الأمريكية فيما بعد الحرب ومسألة ما إذا كانت تلك الديناميات لا تزال تدفع الولايات المتحدة نحو الإمبراطورية الرسمية أم لا هى موضوع كتاب تشارلز ماير «بين الإمبراطوريات: الهيمنة الأمريكية وأسلافها».



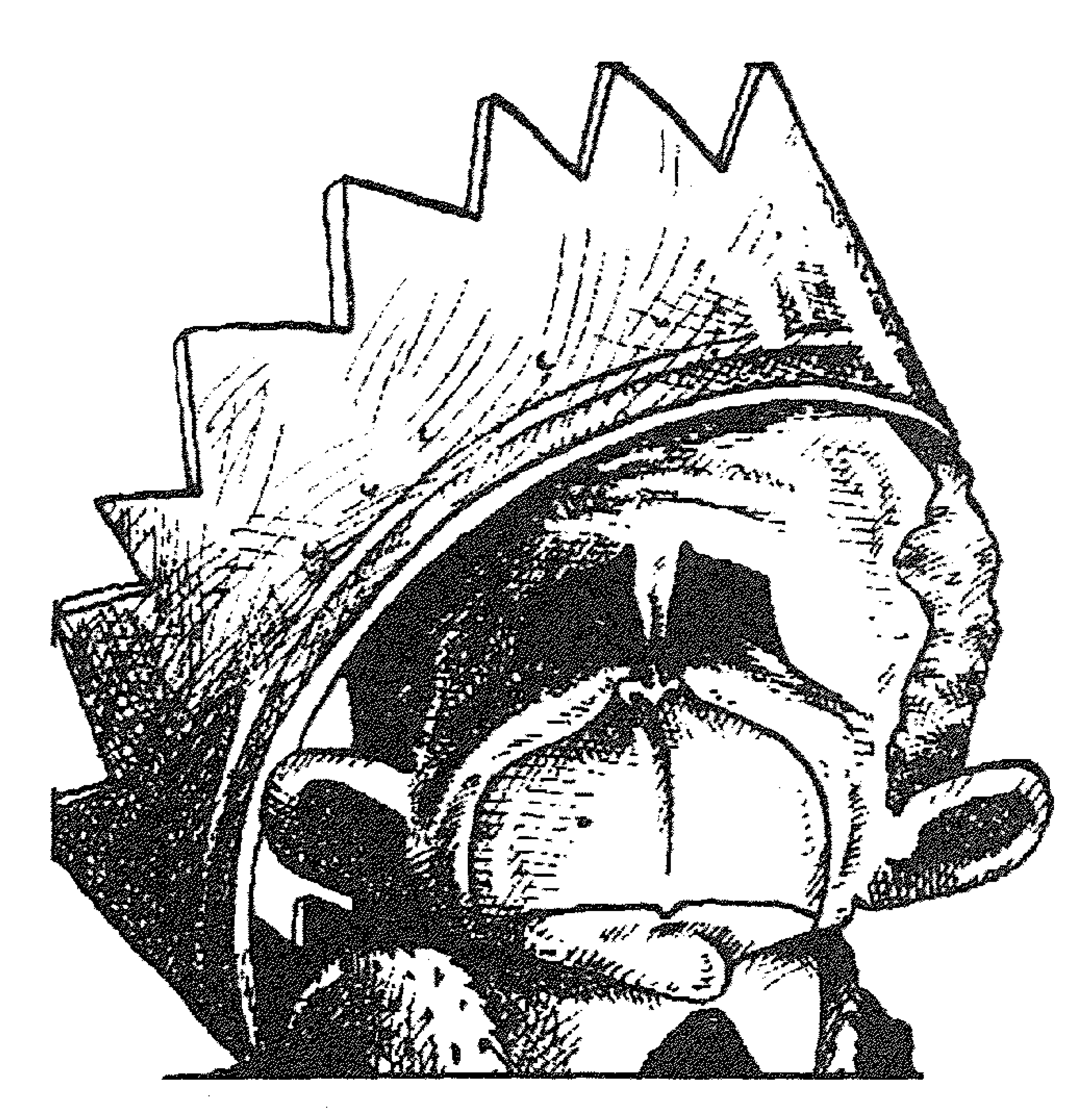
طبقًا لما يقوله جريجور دالاس، فإن الحرب العالمية الثانية لم تنته ؛ لقد توقفت فحسب حيثما التقت جيوش الشرق والغرب، ثم تحولت على الفور تقريباً إلى الحرب الباردة. وكان ذلك لأن الاتحاد السوفيتى حقق هدفه من الحرب بإقامة إمبراطورية تمتد من بحر البلطيق إلى البلقان. ولم تحقق الولايات المتحدة هدفها الذى قد لا يكون مفاجأة، وهو تحويل أوروبا بكاملها إلى ديمقراطية ومشروع حر. وبدأت الحرب الباردة عندما أدرك ترومان أن معنى «الديمقراطية» عند ستالين لم يكن هو المعنى نفسه الذى عند الأمريكيين.

هذه باختصار هى المقولة الأساسية لكتاب دالاس الذى يتسم بالاستطراد، ولكنه كتاب شديد الروعة يتكون من شذرات لا حصر لها كالكولاج. ويبرر دالاس أسلوبه هذا باقتباسه ما قاله الشاعر البولندى تشسواف ميووف: «يمكنك التعبير عن الأشياء تعبيراً صحيحاً بالتفاصيل. وإذا ما لاحظت التفاصيل، فلابد أن تكتشف تفاصيل التفاصيل». ومع ذلك فإن وراء الكتاب افتراضاً صحيحاً على نحو بارز، وهو أن الحرب ضد ألمانيا (نادراً ما ذُكرت اليابان) كانت فى الوقت نفسه كفاحاً للقضاء على مستقبل ما بعد النازية. وخلف كل قرار عسكرى كان هناك حساب سياسى. والواقع أن كتاب دالاس انشغل بالتنافس على وضع ما بعد الحرب بالقدر الذى جعل حقيقة أنه حتى عام ١٩٤٥ كانت الحرب لا تزال تُشن ضد ألمانيا النازية تغيب عنه. ولكن حتى عند الهزيمة، أثّر هتلر كذلك على شكل أوروبا ما بعد النازية، باختياره أين يحارب، ومدى شدة قتاله، ولمن يستسلم؛ ومن يقتل. وفى النهاية، فضل هزيمة ألمانيا على يد الشيوعية السلافية وليس الديمقراطيات المتدهورة.



يحدد دالاس تاريخ نقطة تحول الحرب بيوليو من عام ١٩٤٣، حين فشلت ألمانيا فى وقف التقدم الروسى فى كورسك ونزلت الحلفاء فى صقلية. ولكن ربما أدرك هتلر أنه خسر الحرب، بمعنى أنه لن يمكنه فرض إرادته على سير الأحداث بالقوة العسكرية وحدها. فى ديسمبر من عام ١٩٤١، فى أعقاب الهزيمة الألمانية المفجعة أمام موسكو، وهى إحدى معارك الحرب المنسية رغم كونها حاسمة. وبعد ذلك كان أقصى ما ينتظره من جيوشه هو تحقيق انتصارات «مؤقتة» تضعه فى موقف تفاوضى أفضل. وكان يظن أن التحالف بين الغرب واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية سرعان ما سينفرط عقده بسبب المصالح المتضاربة، مما يتيح له العثور على حل «سياسى». وكان محقاً فى اعتقاده أن التحالف الكبير سوف ينهار، ومخطئاً فى ظنه أن ذلك سوف يحدث قبل اجتياح إمبراطوريته. وكانت أهدافه وأساليبه وجرائمه قد وضعته بشكل نهائى خارج نطاق كل ما هو معقول أو مقبول بالنسبة للحلفاء الغربيين.

ويشير دالاس إلى أنه كانت ستتاح لهتلر فرصة أفضل مع ستالين. والدليل الرئيسى على ذلك هو اتفاقية ريبنتروب/ مولوتوف، أو الاتفاقية النازية السوفيتية، فى ٢٣ أغسطس من عام ١٩٣٩. وطبقاً لشروط تلك الاتفاقية، اعترف هتلر بوجود نصف بولندا ودول البلطيق وفنلندا وبيساربيا داخل «المنطقة» الروسية. واعتبر معظم المؤرخين الاتفاقية زواج مصلحة؛ فقد جنبت هتلر خطر الحرب على جبهتين، وجعلت ستالين يكسب الوقت. ويقبل دالاس الشق الخاص بهتلر. فقد كانت أنظار هتلر مركزة باستمرار على غزو روسيا الأوروبية واستطيانها. ولكنه لا يقبل ما يخص ستالين. ذلك أن ستالين كان ينظر إلى الاتفاقية على أنها ترتيب



بترتيب مع:
The Newyork review of Books

ترجمة: أحمد محمود

طويل الأمد. ولو رتبنا الأمور على نحو دقيق لوجدنا أن هتلر كان يمكنه أن يعطيه ما لم يكن بإمكان الديمقراطيات الغربية إعطاءه إياه، وهو إعادة تكون الإمبراطورية القيصرية والمزيد من المكاسب في المستقبل. وفي نوفمبر من عام ١٩٤٠ تَلَعَّب هو وهتلر بفكرة اقتسام الإمبراطورية البريطانية فيما بينهما. ولكن ذلك لم يكن حلم هتلر، وربما كان يغرى بذلك ستالين كي تستمر الواردات في التدفق من روسيا إلى أن يكون مستعداً لتوجيه ضربته.

يزعم دالاس أنه حتى بعد غزو الألمان لروسيا، لم يتخلَّ ستالين عن «التصورات الوهمية» التي خلقتها الاتفاقية الروسية النازية. «في ربيع وأوائل صيف عام ١٩٤٣، حاول ممثلو ستالين في ستوكهولم التفاوض على إحياء الاتفاقية؛ ولكن ذلك لم يتحقق لأن هتلر أصر على الصمود حتى أوكرانيا». وكان الانتصار السوفيتي في كورسك في يوليو من عام ١٩٤٣، وليس في ستالينجراد في ديسمبر من عام ١٩٤٢ (الذي أعقبه الهجوم الألماني المضاد)، هو ما أقنعه في النهاية بأن هتلر ليس لديه شيء آخر يقدمه. «عندما تقدمت الجيوش السوفيتية، انعش ستالين حلمه الخاص بفرض نوع جديد من الاتفاقية النازية السوفيتية؛ واحد ناقص النازيين».

تكمن قوة افتراض دالاس في تفسيره لحركة جيوش ستالين، وبالتالي ربطه الاتفاقية النازية السوفيتية بأصول الحرب الباردة. فضم الأراضي الذي قام به ستالين بعد الحرب، بما في ذلك بولندا حتى «خط كورزون»، حيث اتبع على نحو دقيق خطوط الاتفاقية النازية السوفيتية. وكان هناك ما ينذر بخطته الخاصة بالبلقان؛ وحتى تلك المتعلقة بالشرق الأوسط (حيث كان يُنظر إلى إسرائيل في الأصل على أنها دولة تابعة للسوفييت)، في المناقشات التي جرت في عام ١٩٤٠ بين مولوتوف وريبنتروب في برلين. وكان من المحتم أن تحطم طموحات ستالين التحالف الكبير. وما لم تكن بريطانيا وفرنسا على استعداد لمنحه لروسيا في عام ١٩٣٩ ثمناً لاتفاقية مناهضة للنازية، لم تكن أمريكا وبريطانيا على استعداد لمنحها إياه ثمناً لاستمرار التحالف الكبير. ويرى دالاس أن بذور الحرب الباردة وُضعت عندما أصر ستالين في طهران في نوفمبر من عام ١٩٤٣ على أن شروط الاتفاقية النازية السوفيتية مازالت مطبقة على بولندا.

ومع ذلك لا تخلو فرضية دالاس من المشاكل. فهل هناك حاجة إلى الاتفاقية لتفسير «تحرك» جيوش ستالين؟ وألم يكن ستالين يخدم نفسه فحسب للحصول على غنائم الحرب التي سقطت في حجره؟ فالواقع هو أن ستالين حصل على أكثر مما عرضه هتلر. وربما بدأت الحرب الباردة باستيلاء السوفييت على بولندا، ولكنها سارت سيرها الجاد في عام ١٩٤٨ فحسب مع الانقلاب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا التي لم تكن لها علاقة بالاتفاقية. (كانت تشيكوسلوفاكيا وليست بولندا هي ورقة عباد الشمس الخاصة باختبار النوايا السوفيتية في عام ١٩٤٨، مثلما كانت اختباراً للنوايا الألمانية قبل ذلك بعشرة أعوام).

يمكن القول بأن صلة «التصورات الوهمية» التي تبدت للاتحاد السوفيتي فيما بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ بفراغ القوة في أنحاء أوروبا الغربية وأوروبا الوسطى كانت أقوى من صلتها بالاتفاقية. كما يبدو زعم تفضيل ستالين لهتلر أمراً مبالغاً فيه، إذا ما أخذنا في اعتبارنا جهوده السابقة للتفاوض على إقامة تحالف معادٍ لألمانيا مع بريطانيا وفرنسا. ثم إنه إذا كان ستالين حريصاً على أن يتخذ هتلر رفيقاً في غزو العالم، فلم أرسل مبعوثاً شرساً مثل مولوتوف إلى برلين في عام ١٩٤٠؟ وعلاوة على ذلك، لا يقدم دالاس أي دليل على رأيه القائل بأن ممثلي ستالين حاولوا التفاوض من جديد على اتفاقية ريبنتروب/مولوتوف في ستوكهولم في عام ١٩٤٣. والحقيقة هي أننا لن نعرف أبداً وبشكل مؤكد ما الذي كان يجري في عقل ستالين. فقد قدم دالاس تحريضاً للفكر وليس استنتاجات قائمة على أدلة.



لم يكن روزفلت مهتماً بشأن من الذي ينبغي أن يحرر من، لأنه كان يحلم بسيادة مشتركة ما بعد إقليمية بواسطة «أنكل جو»(*) تُمارس من خلال المؤسسات التعددية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والأمم المتحدة. ويمكن أن تُعد تلك أوضح إساءة تقدير في التاريخ الأمريكي، وقد ساعد عليها وأغرى بها الجواسيس السوفييت داخل وزارتي الخزانة والخارجية. وأبدى تشرشل الذي كان يدافع عن الإمبراطورية الإقليمية قدراً أكبر بكثير من الاهتمام بالمناطق الحدودية؛ ومن ثم كانت محاولته للحد من النزعة التوسعية السوفيتية بواسطة «النِسب المئوية» مع ستالين في أكتوبر من عام ١٩٤٤. وللسبب نفسه، لم يبدِ روزفلت اهتماماً بدخول الجيوش البريطانية والأمريكية أوروبا الشرقية عبر ألمانيا قبل الروس. وربما كان ذلك مجدياً في خريف عام ١٩٤٤، حين كانت ألمانيا عاجزة عن الدفاع عن نفسها في مواجهة الهجوم الغربي. كما أنه لم يؤيد خطة تشرشل الخاصة بالاستيلاء على المجر والنمسا بتسريع الهجوم على الخطوط الألمانية في شمال إيطاليا. وقال هارولد ماكميلان، مبعوث تشرشل في البحر المتوسط، في مذكراته: «ربما كان اختراق ثغرة ليوبليانا والسير نحو النمسا سيغير المصائر السياسية للبلقان وأوروبا الشرقية». غير أن تنفيذ تلك الإستراتيجيات كان سيتطلب وجود مفهوم تشرشل الخاص بـ«توازن القوى» الذي لم يكن له مكان في عالم روزفلت ما بعد الإقليمي الرائع. ولم يكن تشرشل، وهو أضعف الثلاثة الكبار، يسيطر على السياسة الغربية.

كان انتصار بريطانيا الأكثر التباساً. فقد فاز الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية في أوروبا الشرقية، وأصبحت أمريكا القوة البارزة في العالم، بينما خرجت بريطانيا على نحو أضعف من أن يمكنها من الاحتفاظ بالإمبراطورية



من بين الظافرين الثلاثة، كان انتصار بريطانيا الأكثر التباساً. فقد فاز الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية في أوروبا الشرقية، وأصبحت الولايات المتحدة القوة البارزة في العالم، بينما خرجت بريطانيا على نحو أضعف من أن يمكنها من الاحتفاظ بالإمبراطورية التي كان هدف تشرشل هو الحفاظ عليها. ويؤكد دالاس نقطة أجد لزاماً عليَّ إقرارها، بما أنني قلت الشيء نفسه، وهي أن هدف الحرب الذي كان روزفلت مصراً عليه هو «طرد الإمبراطورية البريطانية باعتبارها قوة كبرى». وقد حارب تشرشل فيما يخصه من الجيوبوليتيكا وكينز في سياسته الاقتصادية بقدر استطاعتهما للحفاظ على استقلال بلدهما عن الأمريكيين، غير أن الأصول المنكمشة التي كانت بريطانيا تسيطر عليها بحلول نهاية الحرب لم تكن كافية لتحقيق تلك المهمة.

فهل كان هناك بديل؟ يذكرنا دالاس بأن ديجول اقترح تحالفاً أنجلو فرنسياً في ١٢ نوفمبر من عام ١٩٤٤. وقد قال لتشرشل: «لو اتفقت فرنسا وبريطانيا على العمل معاً فسوف يصبح لديهما من القوة ما يمنع حدوث ما لا تقبلانه أو تقررانه. وسوف تتبعنا بلدان. ولن يمكن لأمريكا وروسيا معارضتنا وقد قيد تنافسهما حرية حركتهما». وكان آخرون سينضمون إلى المعسكر الأنجلو فرنسي بسبب ما يشعرون به من «خوف فطري من العمالقة». ورفض تشرشل ذلك قائلاً: «استمالة الأقوى أفضل من معارضته». ويميل دالاس إلى وصف تفضيل تشرشل لأمريكا على أوروبا إلى افتقاره إلى الجذور (بدافع من أمه الأمريكية ومن تصوره الخاص بالتجارة الحرة). ولكن من الذي كان يخلق الوهم: هل هو تشرشل بآماله الخاصة بتشجيع الأمريكيين على ارتياد سبل الواقعية، أم ديجول بحلمه الخاص بتحول أوروبا المفلسة إلى قوة ثالثة؟



فكرة دالاس الموازية هي الصراع الذي جرى داخل حصن هتلر: بين المتواطئين والمقاومين، وبين جماعات المقاومة المختلفة. فقد كان المتواطئون يأملون في العثور على مكان مقبول داخل إمبراطورية هتلر، أما الأنصار والمقاومون فكانوا يتقاتلون على المستقبل ما بعد النازي؛ باعتبارهم رءوس حراب للجيوش وطلائع لحكومات ما بعد الحرب. وكان فوز أي اتجاه سياسي يتوقف على «تحرك الجيوش». ويذكرنا دالاس بكيف كانت النتيجة معلقة. ففي عام ١٩٤٣ «كانت المقاومة

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس

اللاشيوعية في بولندا تنتظر الحلفاء لتحريرها، وكان الشيوعيون في فرنسا على أهبة الاستعداد للتحرير السوفيتي. ولم يكن أي من التوقعين عبثياً بالقدر الذي يبدو عليه الآن. فلم يكن غزو نورماندي قد جرى بعد، وكانت القوات الألمانية لا تزال موجودة في عمق روسيا.

في كل تلك الأجزاء من أوروبا الخاضعة للألمان التي لم يكتب لشعوبها العبودية أو التصفية، كان للألمان حلفاء ومتواطئون يسعون للحصول على مكانة مميزة في نظام هتلر الجديد، بدافع الاقتناع أو الضرورة التي أدركوها. وكان نظام فيشي في فرنسا، لبعض الوقت على الأقل، أكثر مشروعية من أنظمة ما بعد الحرب المستقلة ظاهرياً التي أقامها الروس في أوروبا الشرقية. وبدا لكثيرين في عامي ١٩٤٠ و١٩٤١ أن ألمانيا كسبت الحرب. وبناء على هذا الافتراض، ماذا كان البديل للخروج بأفضل المكاسب من الوضع السيئ؟ كان بيير لافال والأميرال جان فرانسوا دارلان يأملان في مشاركة ألمانيا في اقتسام أفريقيا على حساب بريطانيا. ولم يكن ذلك أمراً يتسم بالحمق تماماً؛ فكما رأينا، كان ذلك أحد خيارات هتلر، وإن لم يكن خياره المفضل. وحتى على الجبهة الشرقية المهلكة كانت هناك قوات موالية للنازيين بدافع من المعاداة العرقية للروس أو المعاداة للشيوعية أو المعاداة للسامية. ولو كان هتلر أقل قسوة تجاه السكان المحليين لكان من المحتمل أن يستقبله الناس باعتباره محرراً في أنحاء كثيرة من الاتحاد السوفيتي، وليس في أوكرانيا فحسب. غير أن نظرياته العنصرية لم تترك مجالاً للحلفاء السلاف.

كانت فصائل المقاومة الأخرى تتنافس فيما بينها على السيطرة كي ترسخ مطالبتها بالحكم بعد الحرب. وغالباً ما بدت أكثر حرصاً على القضاء على منافسيها من محاربة المحتل. ففي فرنسا، حاول الشيوعيون ضمان أنهم، وليس ديجول، الذين سيرثون فرنسا المحررة. وربما شمل ذلك خيانة قادة المقاومة الديجولية، مثل جان مولان، للألمان. وكانت المشكلة التي واجهت ديجول، الذي يقول دالاس إنه عُرف باسم قضيب الدك، «لأنه كان في صلابة سيخ إذكاء النار دون أن يكون له دفئه العرضي» . هي أنه زعيم عيّن نفسه بنفسه في المنفى، بينما كان الشيوعيون يديرون معظم المقاومة الداخلية التي كانت تتفاعل مع الترحيل الجماعي للعمال الفرنسيين إلى ألمانيا. وكانت مشكلة ديجول الأخرى هي أن روزفلت كان يمقته. وكان روزفلت «في أعماق نفسه حليفاً لفيشي، وكان يظن باستمرار أن فيشي سوف تغير اتجاهها وتصبح دولة عميلة مريحة للأمريكان». وطوال عامين كان تشرشل وماكميلان وحدهما من يؤيد دعاوي الجنرال الفرنسي العصبي ضد العدوان الأمريكي. وفاز ديجول في معركة الشرعية عندما سيطر مؤيدوه على التمرد المسلح في باريس في أغسطس من عام ١٩٤٤ قبل وصول الأمريكان، بمساعدة القائد العسكري الألماني ديتريش فون شولتيتس الذي تجاهل أوامر هتلر بـ«محو» العاصمة الفرنسية. وكان الثمن الذي اضطر ديجول إلى دفعه هو أن يشاركه الشيوعيون في شرعيته. ودالاس محق في إشارته إلى أن علاقة ديجول الغامضة بالشيوعيين في الداخل وبالسوفييت في الخارج استمرت بقية حياته.



هتلر وستالين
لم يكونا سياسيين
«طبيعيين» يسعيان
لتحقيق أهداف
«السياسة الواقعية»،
بل كانا قاتلين جماعيين
يطمحان إلى إعادة
تشكيل المجتمعات التي
يسيطران عليها



كانت باريس مختلفة تماماً عن وارسو. فقد كانت المدينتان «رمزين للشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية؛ إذ حُررت باريس، وبيدت وارسو». وفي الجزء الذي كان الألمان يحتلونه من بولندا لم يكن هناك مجال كبير للتواطؤ مع الألمان، حيث كانت الخطة النازية هي جعلها دولة موالية. وأظهر قتل عشرات الآلاف من الضباط البولنديين في كاتين وأماكن أخرى في عام ١٩٤٠ بناء على أوامر ستالين أن الزعيم السوفيتي كان يخبئ مصيراً على نفس القدر من الرعب تقريباً للنخبة البولندية في الجزء الذي يسيطر عليه من بولندا. وبموت فلاديسلاف سيكورسكي في حادث طائرة في عام ١٩٤٣، خسرت بولند ديجولها، مع أنه كان سيصبح عاجزاً عن إنقاذ بولندا من السوفييت في مواجهة «تحركات الجيوش»؛ إلا في حال تلقي الحكومة البولندية في لندن دعماً أقوى بكثير من بريطانيا وأمريكا. وربما كان ذلك سيتطلب مكاشفة مع ستالين. وربما تهديداً بقطع الإمدادات المهمة لروسيا. وهو الأمر الذي ربما كان تشرشل مستعداً له، بينما لم يكن روزفلت كذلك.

في غياب أية مساندة غربية حازمة، كان مقدراً لانتفاضة وارسو التي بدأها «الجيش الوطني» في الأول من أغسطس عام ١٩٤٤ أن تتعرض لكارثة. وكان هدف الانتفاضة الاستيلاء على وارسو قبل وصول الجيش الأحمر، الذي كان سيتوجب عليها تحيته باعتباره مالك وارسو الشرعي. وقد نجحت جزئياً في تحقيق هدفها الأساسي، ولكن الجيش الأحمر ظل معسكراً على الضفة اليمنى لنهر فستولا ولم يدخلها، متيحاً بذلك الفرصة للألمان كي يقضوا على «الجيش الوطني» ومعظم وارسو خلال شهرين من القتال الشرس. بل إن ستالين لم يعط الإذن للقوات الجوية الملكية البريطانية بالهبوط وللقوات الجوية الأمريكية بنقل الإمدادات.

تركز الجدل التاريخي حول سبب قرار ستالين وقف تقدم جيوشه. هل كان ذلك لكونها مجهدة؟ هل كان يريد إتاحة الوقت للألمان كي يقضوا على المقاومة المناوئة للشيوعيين؟ أم أنه كان قلقاً من وقوع هجوم ألماني مضاد؟ لدى دالاس تفسير آخر، وهو أن ستالين أجّل التقدم إلى ألمانيا، ونقل جزءاً من قواته إلى البلقان كي «تعيد تثبيت المكاسب التي حققها وتلك المتوقعة من الاتفاقية النازية السوفيتية لعام ١٩٣٩ ....». ولأن دالاس تسيطر عليه فكرة واحدة، فهو يستخدمها في تفسير أمور كثيرة جداً.

من بين ضحايا النازية في أوروبا وعددهم ١٨ مليوناً، لقي ١١ مليوناً حتفهم في بولندا، منهم ملايين اليهود. ويذكرنا القسم الأخير من كتاب دالاس بأن هتلر وستالين لم يكونا سياسيين «طبيعيين» يسعيان لتحقيق أهداف «السياسة الواقعية»، بل كانا قاتلين جماعيين يطمحان إلى إعادة تشكيل المجتمعات التي يسيطران عليها بترحيل السكان جميعاً أو تصفيتهم. والشيء المثير على نحو خاص عند دالاس هو القول (مثل سولجنتسين) بأنه فيما يتعلق بمسألة أعمال السخرة والإبادة، كان هتلر تلميذاً لستالين «تفوق» على أستاذه في الحرب فحسب، ثم في الظروف الخاصة بالحرب «الشاملة». «كانت المعسكرات الروسية والألمانية تنفث الموت في بعضها البعض، كرياح السهل، في دورة تبادلية». وفي بولندا وروسيا، «انتقل النازيون إلى المعسكرات السوفيتية السابقة؛ ثم استولى السوفييت على المعسكرات النازية القديمة واستغلوها». والأسوأ من ذلك أن بعض تلك المعسكرات كان بها النزلاء الأسرى أنفسهم والإداريون ذاتهم. وهذه هي القصة التي لم تُروَ حتى الآن.



بدأ ستالين أعمال السخرة؛ فقد كان هناك بالفعل الملايين داخل المعسكرات الصناعية مثل كوليما في عام ١٩٣٩، في حين لم يكن داخل معسكرات الاعتقال الألمانية سوى ٢١ ألفاً. وأثناء الحرب، قلد هتلر ستالين بجمعه الملايين من العمال الأجانب لإنتاج الذخائر والطعام في ألمانيا، وهي السياسة المفجعة التي دفعت بالشباب في المناطق المحتلة إلى المقاومة. وكانت تلك السياسة النتيجة المنطقية لرفض السماح بتعبئة النساء الألمانيات، حيث كان هتلر يعتقد أن «نساءنا الألمانيات النحيلات ذوات السيقان الطويلة، لا يتناسبن مع العمل في المصانع». وكما هو الحال في معسكرات العمل السوفيتية (الجولاج)، كان الكثير من هؤلاء العمال يموت بسبب البطش والوحشية وسوء التغذية والمرض.

ويتبع دالاس سولجنتسين في إنكاره تفرد الهولوكوست. فالتمييز الكلاسيكي بين وسم جنس من الأجناس (وهو ما لا يمكنه تغيير صفات هذا الجنس) ووسم

طبقة من الطبقات (فيمكن «إعادة تثقيفها») ينهار في حالة ستالين. ويقول سولچنتسين إنه «ألقى أمماً بكاملها في البالوعات». فقد رحّل الأمم التي ظن أنها تواطأت، أو قد تتواطأ، مع الألمان. الچورچيون والشيشان والأنجوش والكلموك. مما أجهد جهاز النقل الروسي مثلما أجهد ترحيل اليهود إلى الشرق جهاز النقل النازي. وكان السبب في الحالتين واحداً: فقد جعلت سمات الضحايا العرقية منهم أعداء فعليين أو محتملين للنظام الحاكم. وفي عام ١٩٤١، تردد هتلر بين ترحيل اليهود وإبادتهم. وكان يفكر في إجلاء اليهود كافة في البداية إلى مدغشقر ثم إلى شرق جبال الأورال بعد ذلك. وكان «ضياع أية فرصة للسيطرة على تلك الأراضي... (هو ما) دفع النازيين في اتجاه... صالح الأخيرص».

وفي تحريف آخر للقصة، يقول دالاس إن «الحدث الحاسم بالنسبة لمصير اليهود» لم يبدأه هتلر وإنما ستالين، حين رحّل ألمان الفولجا إلى سيبيريا في سبتمبر من عام ١٩٤١. وقد أبلغ ألفريد روزنبرج وزير المناطق الشرقية النازي هتلر أن أياً منهم لن يبقى على قيد الحياة. «ويبدو أنه في الفترة من أواخر سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٤١ قرر هتلر، الرجل غير المتسامح، إبادة يهود أوروبا في المقابل». وبذلك كانت سياسات النظامين متصلة في ثأر قاتل. وكان الإسراع في تنفيذ برنامج هتلر للإبادة في عام ١٩٤٢ رد فعل لحرب كان يخسرها. ويقول دالاس إنه «بعد الهزيمة أمام موسكو، كان (هتلر) مضطراً للتفكير في الطرق التي يمكن بها للأيديولوجيا النازية أن تبقى... ولابد من قتل اليهود، كل اليهود، بينما لا تزال له السيطرة، قبل إنهاء الحرب».

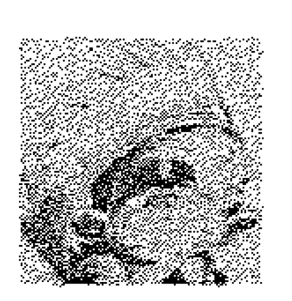
طبقاً لما يقوله دالاس، فالفرق الرئيسي بين النازيين والسوفييت هو أنه «كانت للنازيين أهداف محددة بينما كان الشيوعيون يطلقون النار في كل الاتجاهات». كان النازيون قتلة أكثر عزماً وتصميماً، غير أن أهدافهم كانت أكثر تحديداً بكثير. وبينما «اخترق الجولاج الروسي كل جانب من جوانب المجتمع السوفيتي»، نجد أن معظم الألمان «لم يكن هناك ما يخيفهم من النازيين». وكان الاتحاد السوفيتي، وليس ألمانيا هتلر، هو «الدولة الشمولية في أشد صورها صرامة».

من الممكن أن تكون هناك تفسيرات مختلفة لأصول الهولوكوست، وتفسير دالاس معقول تماماً. وتكمن قوته الكبيرة في إصراره على أن تلك المأساة المرعبة لم تكن مقررة سلفاً. وتثير روايته أسئلة حول ما كان يمكن أن تقوم به الدول الأخرى لمنع إبادة اليهود الجماعية. والسؤال الأكثر إزعاجاً من بين تلك الأسئلة كافة هو: هل كان من الممكن أن يحدث ذلك بحال من الأحوال لو أن بريطانيا وفرنسا تنازلتا عن دانتسيج لهتلر؟



خلّف توقف القتال أعداداً ضخمة من الأشخاص المشردين: من بقوا على قيد الحياة في المعسكرات، والسكان الألمان الذين فروا من الجيش الأحمر، وغير الألمان الذين تواطأوا مع الألمان، طوعاً أو كرهاً. وفي يالتا، قرر الثلاثة الكبار أن «حثالة أوروبا»، كما أسماهم كوستلر، سوف يعادون إلى «دولهم الأم»، حتى وإن أرغموا على ذلك. وكانت تلك محاكاة لـ«تقرير المصير القومي». وعانى اليهود أكثر من غيرهم: فمن بقوا على قيد الحياة في المعسكرات النازية ظلوا داخلها، وكان الكثيرون منهم يموتون بسبب التيفوس والدوسنتاريا. ورُحّل القوزاق والقوقاز والمسلمون والمسيحيون والأوكرانيون وحتى البولنديين الذى حاربوا مع الألمان أو عملوا معهم إلى الجولاج. وأشهر قصة هي إيداع ٢٥ ألفاً من القوزاق والآلاف من «التشتنك» اليوجوسلاف من النمسا التي تحتلها بريطانيا أمانة لدى الجيش الأحمر والأنصار التابعين لتيتو المتعطشين للدماء. واستمر استئصال الشعوب وقتلها بعد توقف تحركات الجيوش.

فمتى إذن انتهت الحرب العالمية الثانية النهاية الفعلية؟ لم يجر تصفية الاتفاقية النازية السوفيتية بشكل نهائي في السنوات التالية لعام ١٩٨٩. فقد فقدت روسيا ما بعد الشيوعية كل مكاسبها الإمبراطورية التي حققتها في ظل الاتفاقية: شرق بولندا (الآن روسيا البيضاء)، ودول البلطيق، وبيساربيا (الآن مولدوفا)، بالإضافة إلى أن الدائرة المحيطة بها من دول أوروبا الشرقية التابعة قد أصبحت جميعها دولاً مستقلة. بل إن بعض المناطق التي كانت خاضعة في الأصل لستالين. أوكرانيا وچورچيا وأرمينيا وأذربيجان وقازاقستان وقرغيزستان وطاچيكستان وأوزبكستان وتركمانستان. من خلال وراثته إياها من روسيا الإمبراطورية ضاعت. وقُضى على نفوذ روسيا في الشرق الأوسط من الناحية العملية. وذكر سولچنتسين في مقابلة أجرتها معه مؤخراً صحيفة «موسكوفسكايا نوفوستي» أن حلف شمال الأطلنطي (الناتو) «يطور انتشاره العسكري في أوروبا الشرقية وعلى الجانب الجنوبي لروسيا بشكل منهجي». وقد شرعت الولايات المتحدة في تنفيذ نسخة معدلة من مهمة فرانكلين روزفلت لنشر الديمقراطية والأسواق الحرة في أنحاء العالم. وقد يجعل ذلك الشخص المندفع إلى القول بأن الحدود في الأماكن تلك كلها ثابتة، مع أنه من غير الواضح المكان الذي ستكون ثابتة فيه، أو ما إذا كان تثبيتها سيُحدث ذلك الفرق الكبير أم لا.



المنافسة مع الاتحاد السوفيتي أجبرت الولايات المتحدة على بناء مناطق نفوذ إقليمية وما بعد إقليمية في الوقت ذاته



الولايات المتحدة هي الدولة المحاربة الوحيدة بلا مطامع إقليمية التي ناقشها دالاس. فقد كانت ألمانيا وإيطاليا واليابان تحاول امتلاك الإمبراطوريات، وكانت روسيا تحاول استعادة الإمبراطورية الروسية، وكانت بريطانيا تحاول الاحتفاظ بإمبراطوريتها. (وقلما ذكرت الصين.) فقد كانت الولايات المتحدة تطمح إلى إقامة «إمبراطورية الحرية» فيما بعد الحرب، وليس إلى مناطق النفوذ الإقليمية المفروضة بالقوة. واضطرت الولايات المتحدة إلى إقامة «مناطق حدودية» فحسب في أوروبا وآسيا في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٩، وهو ما كان يزدريه فرانكلين روزفلت، بسبب انهيار وهمه الخاص بقيام سيادة مشتركة أمريكية سوفيتية. وكما يصف البروفيسور تشارلز ماير من جامعة هارفارد الأمر في كتابه «بين الإمبراطوريات: الهيمنة الأمريكية وأسلافها». ففي عالم ما بعد الحرب، كانت للولايات المتحدة «مناطق حدودية بعيدة جداً ولكنها حقيقية». وكان وودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت قد حلما بقيادة أمريكية لا تعتمد على الأرض؛ ولكن المنافسة مع الاتحاد السوفيتي أجبرت الولايات المتحدة على بناء مناطق نفوذ إقليمية وما بعد إقليمية في الوقت ذاته.

لدى كتاب ماير الكثير الذي يقوله عن هذا البناء الذي جرى بعد عام ١٩٤٥. وهو بهذا المعنى يبدأ من حيث انتهى دالاس. فقد كان الحل الوسط الأمريكي بين الإمبراطورية التقليدية والكياسة الكانطية الخاصة بالجمهوريات الديمقراطية هو نشر «الهيمنة» الأمريكية على «العالم الحر» تساندها في ذلك التعهدات العسكرية والقواعد العسكرية، وتدعمها الأسلحة النووية وتكنولوجيا خط التجميع الخاصة بفورد. ويفرق ماير بين «إمبراطورية الإنتاج» و«إمبراطورية الاستهلاك». ففي المرحلة الأولى، نقل النظام الإنتاجي الأمريكي إلى حلفائها من خلال مشروع مارشال وغيره من برامج المساعدات، وكانت «إمبرطورية الاستهلاك» الخاصة بالمرحلة الثانية تقوم على سيادة الدولار، وبلغت ذروتها بـ«توءم العجز»: أي عجز الميزانية وعجز ميزان المدفوعات.

ويقارن ماير بين الطرق التي مولت بها بريطانيا والولايات المتحدة هيمنتهما العالمية. وهو يبين كيف أن نزعة المغامرة التي تميزت بها فترة كنيدي/خروشوف، التي بلغت ذروتها بأزمة الصواريخ الكوبية وبالفشل في فيتنام.

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس

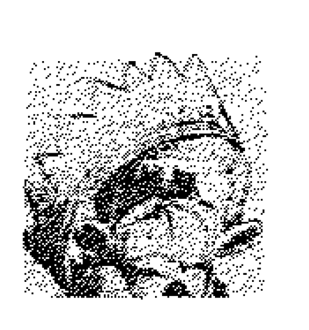
أفسحت الطريق لجهود نيكسون/ كيسنجر/ بريجنيف لفرض الاستقرار فى المناطق الحدودية الواقعة بين النظامين المتنافسين، وكيف أن تلك المحاولة الفاشلة لـ«تعليق... الحرب الباردة» تبعتها «حركة (جديدة) للأمام» قام بها الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان ومبدأ حقوق الإنسان الخاص بكارتر. وعن خطة نيكسون/ كيسنجر لتعدد الأقطاب الإمبراطورية، التى تشارك فيها القوة العظمى الأمريكية الصين والاتحاد السوفيتى العالم. يقول: «منذ أن عرض هتلر على مولوتوف جنوب ووسط آسيا فى نوفمبر من عام ١٩٤٠، لم يكن هناك مثل هذا النظام السياسى العالمى الأساسى الذى قُدِّم باعتباره صفقة كبيرة للمنافسين الدوليين».

رغم وجود بعض الأفكار اللافتة للانتباه هنا، فهذا هو الجزء من كتاب ماير الذى يحظى بأقل قدر من الرضا، حيث إن تاريخ الحرب الباردة أرض طالما طُرقت. وهناك ما يدل على أن ذلك الجزء كُتب على عجل، وملىء بالأخطاء الصغيرة المثيرة للغضب. كما أنه لم ينجُ من آفة المجال الأكاديمى المسمى بالاقتصاد السياسى؛ وهى المعالجة الغامضة للمفاهيم الأساسية ولما بين الاقتصاد والسياسة من ارتباطات.

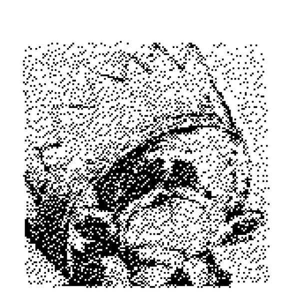


الجزء الأول من كتاب ماير أكثر إثارة للفكر، وهو يبحث معنى كلمة «إمبراطورية» وإلى أى حد يشبه الوضع الأمريكى فى العالم الإمبراطوريات السابقة كالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية. ومنهجه هو تحديد «الأفكار المتكررة» فى التاريخ الإمبراطورى والسؤال عن مقدار تطابق التجربة الأمريكية معها. وقد أصبح البحث ملائما للموضوع على نحو خاص، لأن هناك إجماعاً أكاديمياً آخذ فى الظهور على أن الولايات المتحدة بتدخلها العسكرى فى أفغانستان والعراق، وإقامتها قواعد عسكرية لأول مرة فى أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، وتهديدها بشن هجوم على إيران، قد انتقلت إلى ما وراء أشكال «السيادة» أو «الهيمنة» أو «القيادة» أو «السيطرة» التى كان يوصف بها دورها حتى وقت قريب، وهى تطمح فى الوصول إلى مرحلة جديدة قد ينطبق عليها فيها مصطلح «إمبراطورية». وقد وصف المؤرخ نيال فرجسون أمريكا بأنها «إمبراطورية مع الإنكار»؛ ويشير ماير إلى أنها قد تكون إمبراطورية قيد الإنشاء.

يريد ماير تخصيص مصطلح «إمبراطورية» لـ«بنية الحكم الموسعة إقليمياً» التى تُخضع «جماعات عرقية لغوية مختلفة» وتخصص القوة المتفوقة للسلطة التنفيذية ونُخبها. وبناءً على هذا التعريف لا تكون الولايات المتحدة، ولن تكون، إمبراطورية: فهى لم تسعَ إلى سيادة رسمية على أرض أجنبية. (يرى ماير أن التوسع الداخلى فى أمريكا الشمالية لا يؤهلها لذلك، لأن سكان أمريكا الأصليين كانوا شبه رُحَّل؛ وكانت الفليبين استثناءً.) ومع ذلك يجد ماير أنه من الصعب استخدام الكلمة على نحو متساوق عند الحديث عن الولايات المتحدة باعتبارها «إمبراطورية



ليس لأمريكا أباطرة بعد، وإن كان من الممكن النظر إلى رؤسائها على أنهم أباطرة منتخبون ذوو عناصر وراثية. ومنذ الحرب العالمية الثانية واعتبارات «الأمن القومى» تدمر المؤسسات المدنية أكثر وأكثر



استهلاك». وفى النهاية فإن أفضل ما يمكنه فعله هو أن يقول إن أمريكا لها بعض سمات الإمبراطورية وتفتقر إلى سواها.

فلنأخذ الطريقة التى تفرض بها الولايات المتحدة نفوذها. فالحكام التابعون يذعنون للولايات المتحدة. كما أن واشنطن عاصمة «إمبراطورية» تجتذب النخب الأكاديمية وغيرها التى تريد أن تكون قريبة من مركز النفوذ. غير أن تلك ترتيبات، على عكس ما هو عليه الحال فى الإمبراطوريات التقليدية، طوعية وتقوم على القيم المشتركة وقد خلقها تصور مشترك للتهديد الخارجى من جانب الاتحاد السوفيتى: فإذا كانت تلك إمبراطورية، فهى «إمبراطورية بالدعوة».

وكان للإمبراطوريات أباطرة. وكان لقب إمبراطور يرتبط بالحكم العسكرى. ويجسد الإمبراطور الحكم، وله علاقة وثيقة بالموارد العسكرية، ويمتلك (أو يدعى) عظمة أخلاقية، وهو على عكس الملك ليس بالضرورة حاكماً بالوراثة. ويرى ماير أن روما تظل النموذج الأكثر إقناعاً لمناقشة الولايات المتحدة لأن الغزو الخارجى حولها من جمهورية إلى إمبراطورية. وكانت تحتفظ بمؤسسات جمهورية مسلوبة القوة كمجلس الشيوخ، فى حين انتقلت السلطة إلى الإمبراطور، وأصبح التصويت استفتائياً. وبناء على هذا الرأى فإن الولايات المتحدة ليست إمبراطورية بعد، لأن سياستها الداخلية لم تصبح بونابرتية. ولكن ربما هى فى سبيلها إلى ذلك. وهناك تدهور للسلطة من السلطة التشريعية إلى السلطة التنفيذية، ومن المناقشة العلنية لسيطرة الخبراء، ومن السياسة والأحزاب السياسية إلى الجماعات الدينية وغيرها. وطبقاً لمبدأ بوش الخاص بـ«السلطة التنفيذية المركزية»، فإن الرئيس باعتباره القائد العام له سلطة عليا ولا يجب أن يكون عرضة للمساءلة من الكونجرس على ممارسة تلك السلطة.

ليس لأمريكا أباطرة بعد، وإن كان من الممكن النظر إلى رؤسائها على أنهم أباطرة منتخبون ذوو عناصر وراثية. ومنذ الحرب العالمية الثانية واعتبارات «الأمن القومى» تدمر المؤسسات المدنية أكثر وأكثر، رغم تعيين الرئيس ترومان للحاكم الإدارى الأمريكى الحقيقى واسع الصلاحيات لإحدى المستعمرات، وهو الجنرال دوجلاس ماك آرثر. ومع ذلك فالأيديولوجيا الرسمية والشعبية للولايات المتحدة معادية للإمبراطورية، ولهذا السبب وحده فمن غير المحتمل أن تكمل أمريكا التحول التقليدى من الجمهورية إلى الإمبراطورية.

الفكرة المتكررة الأخرى الخاصة بالإمبراطورية هى ما توفره من إشباع للرغبات: البطولة والمجد والشجاعة والشرف وفرصة الخدمة لجماعات النخبة، والتماثل التفويضى للجماهير. وليس لدى ماير الكثير الذى يمكنه قوله كوسيلة للتقييم الأخلاقى للإمبراطورية. فهو يكتب باعتباره عالم سياسة أو عالم اجتماع، وليس بصفته فيلسوفاً سياسياً. وهو لا يعير اهتماماً لدور الأفكار باعتبارها تأثيرات على أشكال الحكم. وهو ما ينتج عنه مناقشة ناقصة لمبررات الإمبراطورية والانهيار الإمبراطورى.

وكما أدرك ثوسيديديس منذ زمن بعيد، تنشأ الإمبراطوريات من إيمان بالحق فى الحكم، وتنهار حين يخبو هذا الإيمان. ومن المؤكد أن هناك عنصراً أيديولوجياً قوياً فى السعى الأمريكى الحالى إلى الإمبراطورية، وخاصة بين المحافظين الجدد فى الأكاديميات ومؤسسات البحث فى واشنطن. وهو يقوم على الإيمان بأن الغرب هو الأفضل، وأن الشىء الوحيد المأمون هو أن يصبح الأسلوب الغربى المعيار العالمى. وهؤلاء الذين يقاومون اعتناق مذهب الغرب يُعَدون همجيين ولابد من اقناعهم، أو إجبارهم، على الاعتراف بخطأ أساليبهم. وهذا هو حديث الإمبراطورية الأوروبى التقليدى، وتسمعه فى واشنطن الآن. غير أن مبدأ التفوق الغربى لم يتبلور بعد فى شكل أيديولوجيا إمبراطورية صريحة. فهو يفتقر إلى مكون النزعة العنصرية الخاص بالقرن التاسع عشر، وكذلك النزعة النازية، التى يصعب بدونها تبرير الحكم بلا موافقة، وإن كان السوفييت قد نجحوا فى تحقيق ذلك لبعض الوقت.



يناقش ماير ما إذا كانت الإمبراطوريات تستغل رعاياها بالقطع أم لا، وينتهى على نحو مقنع إلى أن نظريات الاستغلال كافة تطرح «دعاوى معيارية لا سبيل إلى حلها». وبالإضافة إلى ذلك، يثير ماير بعض الأسئلة الواقعية: هل تفوق تكاليف الإمبراطورية فوائد النفوذ الإمبراطورى؟ وهل يمكن استعادة تلك التكاليف من رعايا

الإمبراطورية من خلال الضرائب؟ وأى الجماعات يكسب وأيها يخسر من خلال الصلة الإمبراطورية؟ يميل ماير إلى دعم الرأى الليبرالى القائل بأن الإمبراطوريات، بكل تكاليفها العسكرية وغيرها، استنزاف صاف للنفوذ الإمبراطورى، ولكن النخب السياسية والتجارية، وبعض المصالح الخاصة، فى كل من المركز الإمبراطورى وعلى الهوامش، قد تحقق مكاسب على حساب ذوى الدخول المنخفضة.

يبدو أن هذا يتناسب مع التجربة الأمريكية (فيما يتصل بأمريكا اللاتينية على سبيل المثال)، غير أنه من غير المرجح أن يدعم المشروع الإمبراطورى فى غياب التأييد الشعبى. ويشير ماير بتبصر وإدراك إلى تردد الليبراليين فى الاعتراف بالصلة بين الأسواق والإمبراطورية. وهم يميلون فى علم الاقتصاد كما فى علم النفس إلى اعتبار تعويضات الإمبراطورية ومكافآتها من بقايا الظروف القديمة، ولا ينظرون إليها على أنها جزء من طريقة عمل الأسواق. ويقول ماير إن نموذج السوق الحالى الخاص بالعولمة يخفى دور الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات فى نشر «أنماط التوظيف الإمبراطورى» من خلال إنتاج «الأوفشور». وبما أن الإمبراطوريات كانت باستمرار موافقة على السيطرة على الموارد، فإن المغامرة الأمريكية الحالية فى الشرق الأوسط الغنى بالنفط تتناسب مع المنطق الإمبراطورى التقليدى.

يتعلق الجزء الأكثر إثارة من كتاب ماير بدور الحدود والعنف فى التجربة الإمبراطورية. فالإمبراطوريات، شأنها شأن الدول (على الأقل فى التراث الغربى) تُعرَّف بأن لها حدوداً ثابتة؛ غير أن تثبيت الحدود بالغزو، والحفاظ على الحدود التى تثبت بهذه الطريقة، مصدر للعنف المتكرر «على الحدود»، الأمر الذى يؤثر على السياسة الداخلية. ويقول ماير إن الحدود الإمبراطورية متنازع عليها بالوراثة، حيث إنها لا تقوم على الاتفاق. ولذلك فإن الإمبراطوريات، على عكس الدول، بُنى غير مستقرة. ومع ذلك فإن النقطة الرئيسية لديه هى أن محاولة «تثبيت» الحدود تمثل تراجعاً عن دعاوى السيادة العالمية، واعترافاً بأنه يمكن إصدار الأوامر الإمبراطورية لتصل إلى هذا الحد فحسب. والمثال الكلاسيكى هو قرار أغسطس بتحديد الإمبراطورية الرومانية بنهر الراين فى أعقاب فقدان فيالق فاروس فيما وراءه فى العام التاسع الميلادى. ويقول ماير إن «يوتوبيا الولايات المتحدة كانت نسقاً من المعاملات العالمية الحرة... وعندما تتحطم اليوتوبيا، يفرض منطق الأرض نفسه». وكما أجبر تعزيز الإمبراطورية السوفيتية فى أوروبا الشرقية الولايات المتحدة على الحد من دعاواها بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أجبر ظهور الإرهاب الولايات المتحدة على التحول من اليوتوبيا ما بعد الإقليمية إلى الدفاع الإقليمى فى العالم ما بعد الشيوعى.



وهكذا فإن التناقض الأساسى فى قلب الإمبراطوريات هو أنها تعد بالسلام ولكنها تنجب الحرب. وادعاؤها بأنها مؤسسات محبة للخير يقضى عليه الصراع المستمر على الحدود وتمرد الشعوب الخاضعة. ويتذكر ماير مجزرة إنجلترا التى راح ضحيتها الشعب الأيرلندى المحلى فى القرن السادس عشر. فمع ولع الإمبراطوريات بالتصنيف، نجد أنها قد زادت كذلك من حدة الانتماءات العرقية والاندماج فى الجماعات والانقسامات؛ وعادةً ما يتضح أن ما تُسمى «كراهيات قديمة» من صنع السياسات الإستعمارية.

يتسم ماير باللاأدرية فيما يتعلق بالدفاع الحالى الأكثر شيوعاً عن الإمبراطورية باعتبارها أحد عوامل العولمة، بغض النظر عن صحتها التاريخية. وحجة ذلك أن العولمة تقتضى ظروفاً من السلام والأمن يمكن للإمبراطوريات وحدها توفيرها. غير أن المدافعين عن الإمبراطورية ينسون أن آخر عصور العولمة، الذى كان كذلك عصر الإمبريالية، انتهى بالحرب العالمية الأولى. والحقيقة هى أنه لن يُقبل أى بديل إمبراطورى للمؤسسات والسلطات التعددية فى العالم المتعولم الذى هو كذلك فى سبيله لأن يكون أكثر تعددية. وليس هناك بديل سوى التقدم بالسرعة التى تجد أبطأ القوى العظمى أنها مقبولة.

فإلى أين تتجه أمريكا إذن؟ سيكون من الصعب فى المستقبل دعم فكرة أن الولايات المتحدة «إمبراطورية دعوة» وليست غزواً فى غياب التهديد السوفيتى. ومن الواضح أن الولايات المتحدة ليست موجودة فى العراق بدعوة. ويبدو أنه جرى تجاوز خط ما. وكما حدث فى فيتنام، سيكون على الولايات المتحدة إما أن تجعل حدودها الجديدة فعلية. وهو ما يتضح أنه ليس كذلك فى العراق، حيث تشتعل الحرب الطائفية دون أن يقيدها شىء تقريباً، أو أن تخرج. وفى أى الأحوال، كانت فكرة «إمبراطورية الدعوة» باستمرار قصة خيالية إلى حد ما؛ فالولايات المتحدة لم تكن «مدعوة» إلى ألمانيا واليابان فى عام ١٩٤٥، بل غزتهما. ومنذ ذلك الحين «تحتلهما» القوات الأمريكية. ويمكن القول بأنه منذ الحرب العالمية الثانية وهاتان الدولتان فى موضع ما بين كونهما مستقلتين وتابعتين؛ ويصدق الشىء نفسه على الاتحاد الأوروبى ككل، الذى يفتقر قادته وشعوبه إلى الإرادة والتماسك للخروج من القفص الذى تحميه الولايات المتحدة.

النتيجة الأساسية التى تخرج من دراسة ماير، مع أنه لا يبدو لى أنه قالها صراحة، هى أن بين قطبى «الإمبراطورية» و«الاستقلال» هناك عدد كبير من المواقع الوسطى التى يبدى كل منها مزيجاً مختلفاً من الاستقلال والخضوع. والواقع أن الرواية الخيالية التى تقول إن هناك بديلين فقط. وهى الرواية الخيالية التى تعد إنتاجاً مشتركاً للمثالية الويلسونية ومناهضة الاستعمار. هى التى تتسبب فى معظم ما يوجد حالياً من اضطراب. وأية ممارسة للنفوذ من جانب القوى يسميها خصومه «إمبريالية»، بينما يجب على الإمبريالى التظاهر بأن أعماله تتسق اتساقاً تاماً مع الاستقلال الوطنى.



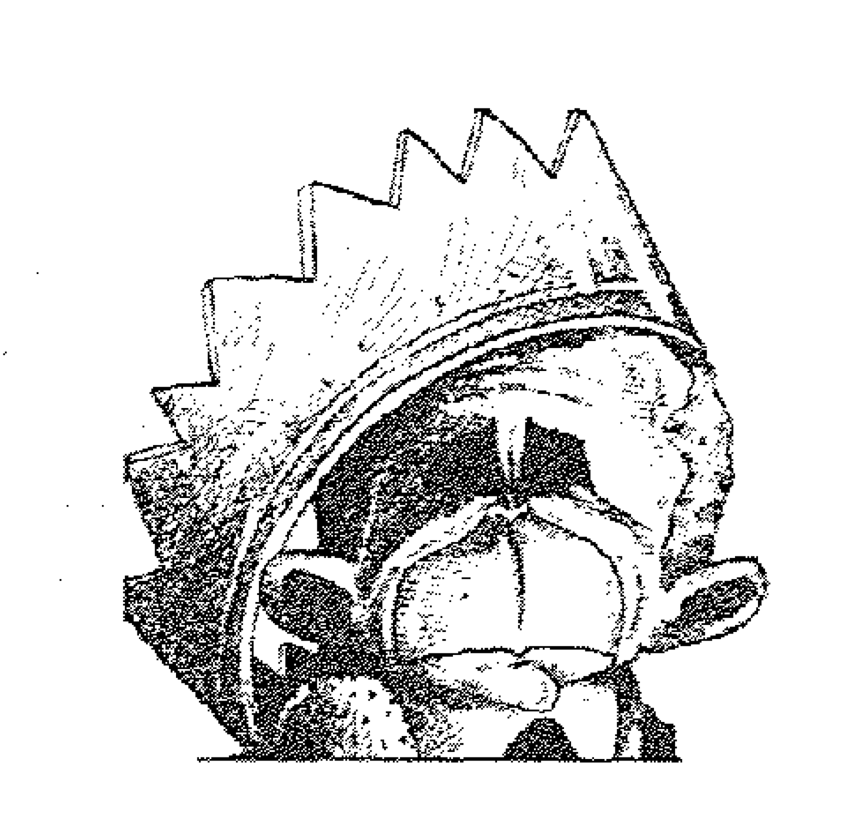
إلى أين تتجه أمريكا إذن؟ سيكون من الصعب فى المستقبل دعم فكرة أن الولايات المتحدة «إمبراطورية دعوة» وليست غزواً فى غياب التهديد السوفيتى

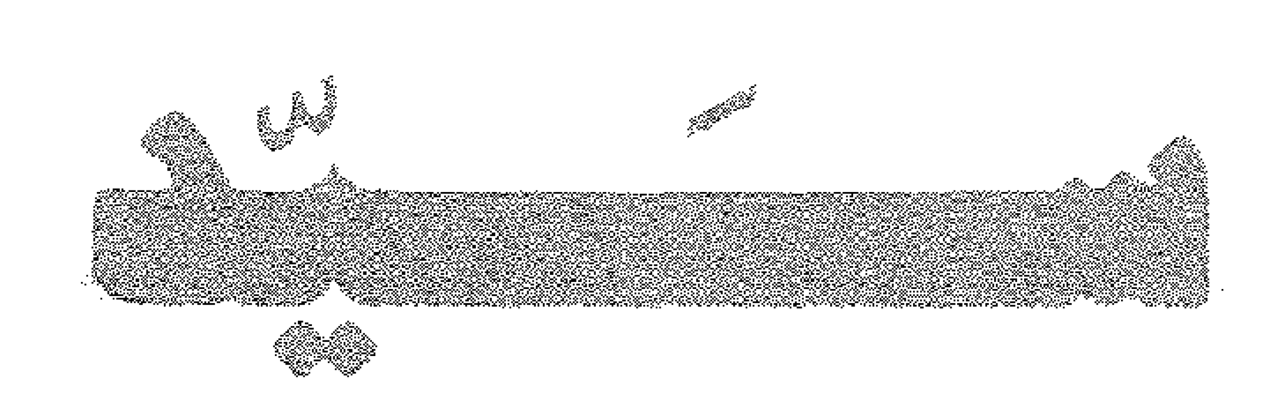


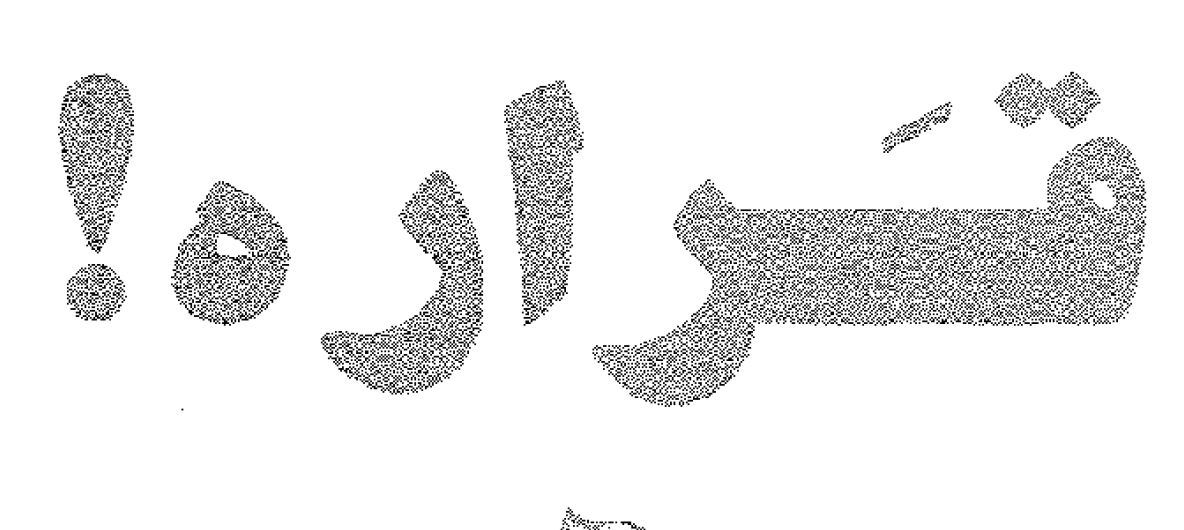
ومع ذلك فإنه بينما يؤذى هذا المظهر الخادع الأرواح الساذجة التى ترغب بشدة فى التباينات الحادة، فهو قد يكون كذلك دليلاً على التقدم. وهناك أدلة على أن أشكال الحكم تزداد نعومة وحكمة وإنسانية؛ وحيث إنها أقل شفافية، فإن تعريفها أكثر صعوبة. ورغم أعمال القتل الجماعية وغيرها من الفظائع التى لا تزال تشوه أجزاء من العالم، فإن القسوة «الإمبراطورية» المنظمة الخاصة بهتلر وستالين التى يوثقها دالاس تاريخ قديم. فقد عذبا وقتلا الملايين؛ والآن هناك عدد أقل نسبياً من الوفيات وانتهاكات «حقوق الإنسان» المنسوبة للجهود الإمبراطورية التى تثير الإدانة العالمية؛ وهو ما يعود فى جزء منه، وليس بشكل كامل، إلى صعوبة حجب العنف عن موجات الأثير.

الاتحاد الأوروبى بدعة سياسية جديدة، ونحن الأوروبيين لدينا فى تعريفه المشكلة ذاتها التى يجدها ماير بالنسبة للولايات المتحدة. فهل هى دولة فدرالية قيد الإنشاء؟ وهل هو اتحاد كونفدرالى؟ إنى أرى أنه تجربة تتخذ شكل حكم لمجموعة من الدول لم نجد له اسماً بعد. وأشك أن الشىء نفسه يصدق على وضع الولايات المتحدة فى العالم. وهكذا فإنه رغم وضوح محاولة المطابقة بين الولايات المتحدة والأنماط التاريخية للإمبراطورية، فهى محاولة مضللة تماماً. فالولايات المتحدة ليست تحولاً من الهيمنة إلى الإمبراطورية. العالم فى سبيله إلى التحول إلى أشكال جديدة من التنظيم السياسى الذى يمكن تصور خطوطه العامة على نحو غير واضح، بينما لا يمكن تثبيت حدوده بعد. ■

● الجنرال الأمريكى الذى كان يرأس قوات الحلفاء فى الصين وبورما والهند أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد توفى فى عام ١٩٤٦، أى بعد عام واحد من انتهاء الحرب. (المترجم)









محمد السطوحي

عاش بوش الابن حياته كلها منذ طفولته خارج قطيع الأسرة وكان شابا مستهترا متواضع المستوى وفشل في تحقيق نجاحات تذكر في حياته المهنية



لم تكن مباراة الملاكمة قد بدأت بعد، لكن النتيجة كانت محسومة مقدما للملاكم الأوكراني فلاديمير كليتشكو، الذي لم يكن قد تعرض للهزيمة قط في أكثر من أربعين مباراة. فاز في أغلبها بالضربة القاضية، حتى إن المعلق تساءل قبل أن تبدأ الجولة الأولى عما إذا كانت هناك نقطة ضعف واحدة في هذا الملاكم العملاق الذي يزن أكثر من مائتين وستين رطلا واشتهر بلكماته القوية، ومهارته داخل الحلبة. لكن الإجابة لم تنتظر أكثر من دقيقتين، عندما تمكن الملاكم الجنوب إفريقي المغمور كوري ساندرز من إسقاطه بلكمة قوية في ذقنه. ثم أسقطه بعدها ثلاث مرات قبل أن يوقف الحكم المباراة. عندها قال المعلق الأمريكي الشهير لاري ميرشانت: «إن الملاكم العظيم ليس فقط من يمكنه توجيه اللكمات القوية، لكن من يستطيع أيضا أن يتلقى ويتحمل تلك اللكمات».

وليس لدى شك في أن نظرة العديد من دول العالم وكذلك الدول العربية للولايات المتحدة، لم تكن تختلف كثيرا عن تقييم لاري ميرشانت للملاكم الأوكراني. فلم يكن هناك جدل كبير في قدرة واشنطن على توجيه اللكمات بما لديها من قدرات عسكرية هي الأكبر في تاريخ البشرية. ولكن كانت هناك شكوك وتساؤلات دائمة عن قدرة واشنطن على تلقي اللكمات العنيفة. هذه التساؤلات نبعت في الأساس من بعض التجارب التاريخية، ومنها الحرب في فيتنام التي اضطرت الولايات المتحدة للانسحاب منها بعد سقوط أكثر من ٥٥ ألف قتيل من جنودها. ثم انسحبت من بيروت بعد الهجوم الانتحاري لحزب الله على موقع لمشاة البحرية عام ١٩٨٣. وجاء الانسحاب الأمريكي من الصومال في عام ١٩٩٣ بعد سحل جثث ثمانية عشر جنديا أمريكيا في شوارع مقديشيو ليؤكد الصورة التي ترسخت لدى الكثيرين، وهي أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تتحمل الخسائر البشرية، وأن تأييد الشعب الأمريكي للحرب سرعان ما ينهار مع رؤية صور القتلى بين الجنود الأمريكيين. ولاشك أن الكثيرين داخل واشنطن ذاتها كانوا قلقين من هذا الأمر، حتى إن مسئولي البنتاجون منعوا لفترة نشر صور نعوش الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في العراق، حتى لا يهتز تأييد الشعب الأمريكي للحرب.

المؤكد أن تنظيم القاعدة كان يفكر بهذا الشكل عندما خطط لإحداث أكبر قدر من الدمار والخسائر في الأرواح في هجمات سبتمبر. كما أن الكثيرين يتابعون عدد القتلى الأمريكيين في العراق، وهم يتساءلون - حتى لو لم يجهروا بذلك - عن الرقم السحري للقتلى الذي تضطر معه واشنطن إلى أن تلعق جراحها وتنسحب من العراق.

غير أن اعتقادي أن هؤلاء قد ينتظرون طويلا، تماما مثلما كان أسامة بن لادن مخطئا في حساباته عندما تصور أن مقتل آلاف الأمريكيين في هجوم إرهابي يعني نهاية «الشيطان الأكبر»، أو على الأقل تقليم أظفاره. ويأتي خطأ الحسابات - في تصوري - من عدم فهم نفسية وتركيبة الشعب الأمريكي، من ناحية، وانعدام المعرفة بشخصية الرئيس الأمريكي جورج بوش بسلبياتها وإيجابياتها. فانسحاب الأمريكان من فيتنام على سبيل المثال لم يكن فقط بسبب عدد القتلى، وإلا لما انتظروا حتى تجاوز ٥٥ ألف جندي. لكن الضغوط زادت بعد أن تأكدت قناعة الأمريكيين بعدم جدوى البقاء هناك دون وجود رؤية واضحة للمستقبل أو خطة محددة للخروج من المستنقع الفيتنامي، هنا فقط يصبح سقوط أي جندي غير مبرر. أما في الصومال ولبنان، فقد قدمت القضية للشعب الأمريكي على أنها إنسانية في الأساس، ولم يوضح أحد للأمريكيين طبيعة المصالح الحيوية التي سوف تتأثر بالانسحاب. وربما يوضح ذلك سر إصرار إدارة بوش على ربط غزو العراق بالحرب ضد الإرهاب. فهذه قضية يفهمها الأمريكيون، كما أنهم على استعداد لتحمل الخسائر البشرية في أي عملية عسكرية في الخارج إذا كان ذلك يعني حمايتهم من تكرار هجمات الحادي عشر من سبتمبر. لذلك برر الغزو في البداية بالربط بين صدام حسين ومنظمة القاعدة. ثم زيد على ذلك التهديد بأسلحة العراق ذات الدمار الشامل، وأن سقوطها في أيدي القاعدة قد يجعل هجمات سبتمبر مجرد ضربة بسيطة مقارنة بما يمكن أن يحدث.

إلا أن تكشف الكثير من الحقائق فيما بعد عن عدم وجود تلك الأسلحة، وأن العراق لم يكن مسئولا بأي شكل عن هجمات سبتمبر هو الذي دفع الكثير من الأمريكيين للتشكك في رواية الإدارة الأمريكية قبل الغزو، وارتفعت المعارضة للحرب في العراق إلى واحد وستين في المائة في آخر استطلاع للرأي العام. هنا تعود الإدارة لربط العراق بالإرهاب ولكن بطريقة مختلفة، حيث تؤكد أن انسحاب القوات الأمريكية الآن يعني سيطرة «القاعدة» والإرهابيين على البلاد بما يوفر لهم المأوى والقاعدة التي ينطلقون منها مثلما حدث من قبل في أفغانستان. والأمر المؤسف أن الإدارة ربما تكون محقة في تحذيرها هذه المرة، كما أن العراق أصبح على شفا حرب

أهلية يرى البعض أنها بدأت بالفعل، وانسحاب القوات الأمريكية الآن يعني اندلاعها بصورة شاملة تدمر الأخضر واليابس. غير أن نقطة الضعف لدى الإدارة هي أنها فقدت مصداقيتها لدى نسبة كبيرة من الأمريكيين الذين لم يعودوا يقبلون بمبرراتها، كما أنها لم تقدم خطة واضحة لتصحيح الأوضاع والخروج من المأزق العراقي، وهنا يتكرر النموذج الفيتنامي. فإذا كانت الإدارة نجحت في إقناع البعض بمبررات البقاء، إلا أنها فشلت حتى في إقناع حلفائها من الجمهوريين والمحافظين بخططها للنجاح. هنا قد يتراءى للبعض أنها مسألة وقت فقط قبل أن تتكثف الضغوط على إدارة بوش للانسحاب من العراق. لكنهم يخطئون هذه المرة في قراءة الرئيس الأمريكي شخصيا.

لن أعيش في جلباب أبي!

في أول مؤتمر للدول الصناعية الثماني الكبرى بعد تولي الرئيس بوش، سارع الرئيس الفرنسي جاك شيراك للاتصال بصديقه القديم الرئيس السابق بوش الأب، ليبلغه بسعادته بأداء ابنه في القمة. ورغم أن المكالمة كانت في إطار الإشادة بالرئيس الجديد، إلا أنها أثارت غضبه الشديد. أسباب هذا الغضب كانت خافية في ذلك الوقت على شيراك، مثلما لاتزال خافية ربما على الكثيرين في الدول العربية الذين راهنوا على العلاقة بين الابن وأبيه، وتصوروا عندما احتاج الأمر، أن كلمة الرجل العجوز ستكفي لتطوي الابن عن غيه وسياساته.

إلا أنهم لم يدركوا أن بوش الابن عاش حياته كلها منذ طفولته خارج «قطيع الأسرة» أو الـ Black Sheep كما وصفه العالم النفسي والمحلل السياسي ستانلي ريشتون، الذي أصدر مؤخرا كتابا بعنوان «In His Father's Shadow» أو في ظل أبيه، حاول فيه ان يشرح كيفية التحول في شخصية جورج، الابن الأكبر لعائلة بوش، الذي كان شابا مستهترا، متواضع المستوى في الدراسة، وفشل في تحقيق نجاحات تذكر في حياته المهنية، هذا بالإضافة لإدمانه الكحوليات، بما جعله موضع انتقاد في أسرته التي خيب أملها فيه. ويرى ريشتون أن هذه المرحلة دعمت قدرة بوش على الوقوف بعيدا عن الآخرين، واستعداده للدخول في صراعات بدلا من تفاديها، كما أن ثقته بنفسه لم تعد تستند إلى الآخرين أو رأيهم فيه. ومن هنا فإن ما حدث من تحول في شخصيته استند كما يقول ريشتون إلى الإرادة والإيمان، وقد أثر ذلك على سياساته فيما بعد كرئيس. فالشخص الذي تمكن من هزيمة الشيطان في داخله، أصبح يصر على هزيمة شيطان الإرهاب والتطرف في أنحاء العالم. ونلاحظ هنا أن قراءة ريشتون رغم جديتها التحليلية في الجانب النفسي، إلا أنها تأثرت كثيرا بميوله الجمهورية المحافظة في تفسير سياسات بوش وتبريرها.

عكس ذلك تماما نراه في قراءة المحلل النفسي جستين فرانك لشخصية بوش، كما عرضها في كتابه «George Bush: A Puppet Who Chose His Puppeteers» أو جورج بوش: الدمية التي اختارت محركيها. فبوش هو يعرف تماما ما يريد، وهو الذي يتخذ القرارات بنفسه، إلا أنه يعتمد بشكل كبير على نائبه ديك تشيني ليقوم بدلا منه بعملية التفكير التي تجعله قلقا ومضطربا. كما أنه في شبابه لم يكن يجد من يتحدث إليه عن مشاعره وانفعالاته، ولم يكن يميل للقراءة بما يساعده على فهم نفسه من خلال الآخرين، وهذا - كما يقول فرانك - جعله قاسيا في علاقته بالناس والحيوانات، كوسيلة للتفريج عن مشاعر القلق بداخله، كما دفعه بقوة إلى الكحوليات التي أدمنها حتى تجاوز الأربعين من عمره. وبوش بهذه المواصفات لديه خطوط دفاع نفسية يلجأ إليها عند الحاجة. منها مثلا الانفصال عما يضايقه بالعزلة عن الآخرين. وهذا يفسر كما يقول فرانك عودته المستمرة إلى مزرعته في كروفورد بولاية تكساس. فهي «كروفورد عقلية» يجد فيها الراحة بعيدا عن الضغوط التي يتعرض لها. كما يبدي فرانك انزعاجه الشديد من نوعية الأحاسيس الدينية للرئيس الأمريكي التي يرى أنها تربطه بالمسيح، وتعطيه الشعور بأن لديه مهمة مقدسة.

هذه «الإدانة النفسية» لشخصية بوش إذا صح هذا التعبير، تجد رفضا شديدا من ستانلي ريشتون، الذي تحدثت إليه في مقره بنيويورك. فالرئيس الأمريكي -كما يقول- لا يتحدث إلى الله ولم يزعم يوما أنه تلقى منه التعليمات عما يفعله. أما مسألة المهمة المقدسة فهي في الأساس تعبير عن قوة الهدف لديه نتيجة إحساسه الحقيقي بأنه يفعل الشيء الصحيح.

وأيا كانت التحليلات النفسية لشخصية بوش، فإنها رغم اختلافها في التفسير، تتفق في النهاية على أنه صانع القرار حتى لو كان في حاجة لمن يحركه كما يقول فرانك. وقد لفت نظري ما أورده الكاتب الصحفي بوب وودوارد في كتابيه الشهيرين: بوش في حرب «Bush At War» وخطة الهجوم «Plan Of Attack»، حيث يوضح مدى سيطرة بوش على جلسات مجلس الأمن القومي لبحث القضايا الخاصة بهجمات سبتمبر وأسلوب الرد عليها، ثم بعد ذلك فيما يتعلق بقرار غزو العراق. وسر الدهشة هنا هو أن هذه الجلسات كانت تضم شخصيات قوية وذات خبرة وتاريخ طويل من أمثال ديك تشيني ، ووزير الخارجية كولين باول، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، بينما كان بوش يفتقد تماما للخبرة في هذه القضايا. وهنا أذكر أول مؤتمر صحفي مشترك عقده بوش مع وزير خارجيته الجديد كولين باول أثناء مشاوراته لتشكيل حكومته، حيث تنحى الرئيس المنتخب جانبا ليتولى باول الرد على أسئلة الصحفيين في القضايا الحرجة للسياسة الخارجية، بما أثار التساؤلات عما إذا كان باول سيفرض اختياراته وسياساته على إدارة بوش. إلا أن الأيام أثبتت عكس ذلك تماما. بل ربما كان بوش يتعمد أحيانا التصرف بعكس ما يقوله باول كما حدث في قضيتي الشرق الأوسط، وكوريا الشمالية، في محاولة للتأكيد على من هو صاحب القرار.

لم يكن يميل للقراءة بما يساعده على فهم نفسه من خلال الآخرين، وهذا جعله قاسيا في علاقته بالناس والحيوانات، كوسيلة للتفريج عن مشاعر القلق بداخله



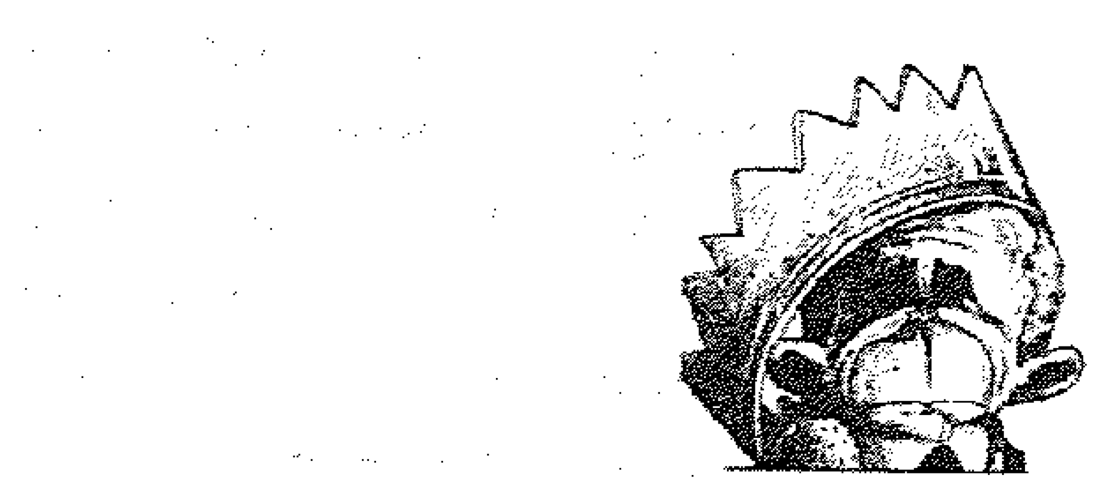


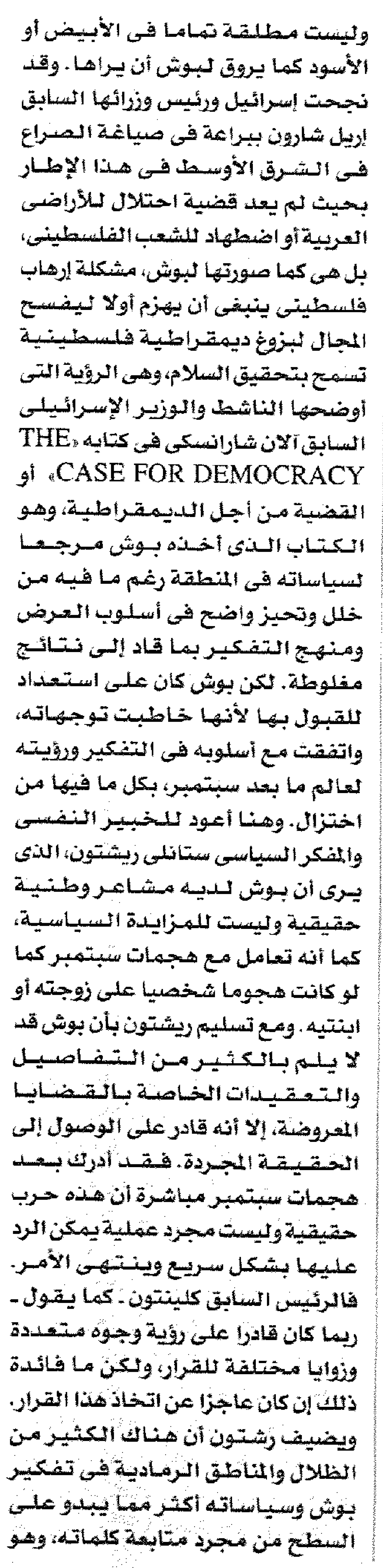
إلا أن ذلك لم ينف الانتقادات العديدة التي لا يزال يتعرض لها بوش، وكثيرا ما تكون في صورة نكات تسخر من محدودية فهمه للقضايا المعقدة أو معرفته بالعالم المحيط، فهو لم يغادر الولايات المتحدة طوال حياته إلا مرة واحدة لعدة أيام زار فيها إسرائيل، واصطحبه رئيس الوزراء السابق إريل شارون في جولة بطائرة الهليوكوبتر شرح له فيها ضيق مساحة إسرائيل بما يفسر تمسكها بأراض في الضفة الغربية لأسباب أمنية. وقد انعكس ذلك على تفكير بوش بعد توليه الرئاسة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. والأمر المؤكد أن بوش حاول أن يتعلم ويتفهم الكثير من القضايا بعد دخوله البيت الأبيض، إلا أن هذه القضايا أكثر تعقيدا من أن يتم التعامل معها في عجالة، خاصة مع ما عرف عن الرئيس الأمريكي من عزوفه عن القراءة الطويلة المتعمقة، حيث يفضل المناقشات بدلا منها. الطريف أن بعض المدافعين عن بوش يجدون في ذلك ميزة وليس عيبا. حيث ذكر المعلق الشهير بيل أورايلي أن تركيبة بوش كانت مناسبة تماما لنوعية القيادة المطلوبة بعد هجمات سبتمبر والحاجة إلى شخصية حاسمة لا تضيع الوقت في قضايا بيزنطية. وضرب مثلا على ذلك بأنه لو كان بيل كلينتون في مكان بوش وقيل له إننا نريد أشياء معينة من اليمن، فإن كلينتون كان سيحاول أن يفهم الموقف اليمني وأوضاعه الداخلية وانعكاسات القرار اليمني إلى آخره. أما بوش -كما يقول أورايلي- فهو لا يعرف أين يوجد اليمن ولا يريد أن يعرف، فكل ما يهمه أن ينفذ اليمنيون المطلوب منهم، وسيكون حاسما وقويا حتى يحصل على ما يريده.

ويرتبط بذلك أسلوب رؤية الرئيس الأمريكي للأمور، فهي دائما أما أبيض أو أسود.. أو قوى الخير في مواجهة الشر الذي هو في هذه الحالة الإرهاب. وهو بشخصيته هذه غير قادر أو غير راغب في رؤية المنطقة الرمادية التي يقع فيها الكثير من القضايا، فهي غالبا ما تكون نسبية



سيد قراره!





وليست مطلقة تماما فى الأبيض أو الأسود كما يروق لبوش أن يراها. وقد نجحت إسرائيل ورئيس وزرائها السابق إريل شارون ببراعة فى صياغة الصراع فى الشرق الأوسط فى هذا الإطار بحيث لم يعد قضية احتلال للأراضى العربية أو اضطهاد للشعب الفلسطينى، بل هى كما صورتها لبوش، مشكلة إرهاب فلسطينى ينبغى أن يهزم أولا ليفسح المجال لبزوغ ديمقراطية فلسطينية تسمح بتحقيق السلام، وهى الرؤية التى أوضحها الناشط والوزير الإسرائيلى السابق آلان شارانسكى فى كتابه «THE CASE FOR DEMOCRACY» أو القضية من أجل الديمقراطية، وهو الكتاب الذى أخذه بوش مرجعا لسياساته فى المنطقة رغم ما فيه من خلل وتحيز واضح فى أسلوب العرض ومنهج التفكير بما قاد إلى نتائج مغلوطة. لكن بوش كان على استعداد للقبول بها لأنها خاطبت توجهاته، واتفقت مع أسلوبه فى التفكير ورؤيته لعالم ما بعد سبتمبر، بكل ما فيها من اختزال. وهنا أعود للخبير النفسى والمفكر السياسى ستانلى ريشتون، الذى يرى أن بوش لديه مشاعر وطنية حقيقية وليست للمزايدة السياسية، كما أنه تعامل مع هجمات سبتمبر كما لو كانت هجوما شخصيا على زوجته أو ابنتيه. ومع تسليم ريشتون بأن بوش قد لا يلم بالكثير من التفاصيل والتعقيدات الخاصة بالقضايا المعروضة، إلا أنه قادر على الوصول إلى الحقيقة المجردة. فقد أدرك بعد هجمات سبتمبر مباشرة أن هذه حرب حقيقية وليست مجرد عملية يمكن الرد عليها بشكل سريع وينتهى الأمر. فالرئيس السابق كلينتون - كما يقول - ربما كان قادرا على رؤية وجوه متعددة وزوايا مختلفة للقرار، ولكن ما فائدة ذلك إن كان عاجزا عن اتخاذ هذا القرار. ويضيف رشتون أن هناك الكثير من الظلال والمناطق الرمادية فى تفكير بوش وسياساته أكثر مما يبدو على السطح من مجرد متابعة كلماته، وهو يدلل على ذلك بعبارته الشهيرة فى خطابه أمام الكونجرس عقب هجمات سبتمبر، بأن على كل دولة أن تقرر لنفسها إما أن تكون مع الولايات المتحدة أو مع الإرهابيين. إلا أنه عند التطبيق كان عليه القبول بمواقف أقل وضوحا وصرامة من دول مثل السعودية وباكستان بل وفرنسا. لكن يبقى الأمر المؤكد فى التحليل النهائى، أن بوش أحدث نقلة نوعية فى طبيعة وتوجهات السياسة الخارجية الأمريكية، فهو أكثر جرأة فى الدخول فى مغامرات خارجية، ولا مانع لديه من استخدام القوة العسكرية حتى لأسباب يراها وقائية كما حدث فى العراق. وهو فى ذلك بعيد عمن سبقوه من الديمقراطيين أو الجمهوريين بمن فيهم والده الرئيس السابق بوش، الذى تشير كثير من المصادر أنه لم يكن راضيا عن كثير من هذه التحولات. وقد روى الكاتب الصحفى جيمس ريزن فى كتابه «حالة حرب» State Of War أن الرئيس الحالى أنهى مكالمة هاتفية حامية مع والده بوضع السماعة بغضب، بعد أن لامه الرئيس السابق على النفوذ الكبير لمجموعة المحافظين الجدد فى إدارته من أمثال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وعدم استماعه للأصوات المعتدلة مثل كولين باول. كان هذا عام ٢٠٠٣، حيث كانت بعض الدول العربية تأمل أن يؤثر الأب على ابنه ويثنيه عن غزو العراق. وقد روى لى المحقق الصحفى الأمريكى سيمور هيرش أن دولة عربية كبرى أرسلت طائرة خاصة للرئيس السابق لزيارتها وإقناعه بالتدخل لدى ابنه، ليتبين للجميع بعد ذلك أن الابن شب عن الطوق. إنه قد يستمع لوالده، لكنه يختلف عنه كثيرا، وهو فى النهاية «سيد قراره». لقد عاد بوش الابن للاتصال بأبيه واعتذر عن إنهاء المكالمة السابقة الذكر بهذه الطريقة، وانتهى الأمر بينهما عند هذا الحد. لكنه لم ينته مع بقية دول العالم التى ستعيش مع نتائج سياساته بسلبياتها وإيجابياتها لأجيال عديدة قادمة. ■

إيران وأمريكا







البحث عن طريق ثالث!!

«حكاية» العلاقات الأمريكية الإيرانية هى من «الحكاوى» القديمة المتجددة باستمرار، بدأت تبرز قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتواصلت فصولها، حتى مع انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٧٩.



إيــران وأمريكــا

وليـــد محمود عبدالنـاصر

■ يكاد موضوع العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران أن يكون المتصدر بلا منازع لجدول أعمال العلاقات الدولية ولتغطية وسائل الإعلام العالمية منذ فترة طويلة، أى هو بعبارة أخرى «موضوع الساعة». تختلف العناوين من وقت إلى آخر، ولكن يبقى الجوهر توتر العلاقة فى الإجمالى والتناوب بين بوادر انفراج أحيانا وفترات شد فى معظم الأحيان.

فهناك حوار حول العراق ثم اتهام امريكى لإيران بتمويل الإرهاب فى العراق وإدراك إيرانى ودولى - بما فى ذلك أمريكيا ضمنياً أحياناً وعلنياً فى كثير من الأحيان - بأن الاحتلال الأمريكى للعراق أوجد لإيران تاثيراً غير مسبوق فى العراق من الناحية الفعلية. وهناك أيضاً اتهام أمريكى مستمر لإيران منذ انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بالعمل على إعاقة «عملية السلام» بين العرب والاسرائيليين عبر توفير الدعم والغطاء للمنظمات الفلسطينية المناهضة لهذه العملية والتلويح بالتهديدات لإسرائيل والمعاداة للسامية، ويقابل ذلك «كروت» إيرانية هامة ومؤثرة على هذه الجبهة، ما بين تحالف مع سوريا ودعم لحزب الله وآخر لحكومة حماس. ثم هناك اتهام واشنطون المتواصل لنظام الجمهورية الإسلامية فى طهران بدعم الإرهاب ممثلاً على وجه الخصوص من وجهة النظر الأمريكية الرسمية فى حزب الله اللبنانى، يقابله خلاف إقليمى ودولى متزايد وهوة تزداد اتساعاً حول تعريف الإرهاب أصلاً.

وخلال هذا كله يتواصل الجدل الذى لا يلبث أن يهدأ حتى يثور من جديد حول الملف النووى الإيرانى ويكتسب اهتماماً إقليمياً ودولياً واسعاً لا يخلو من جهود استقطاب فى هذا الاتجاه أو ذاك، وهو ملف شهدت الشهور الأخيرة تصعيداً غير مسبوق فيه فى اتجاه ينذر بمواجهة سيدفع الجميع إقليمياً ودولياً ثمناً باهظاً لها إذا حدثت، أو مماطلة قد تؤدى إلى أوضاع اكثر تعقيداً فى الشرق الأوسط ومنطقة الخليج ويراها الكثيرون حينذاك كتهديد للسلم والأمن الدوليين. وكأن كل ما سبق لا يكفى فيأتى اشتعال الجبهة اللبنانية/ الإسرائيلية ليدفع بالولايات المتحدة لاتهام محور إيران/ سوريا بالوقوف خلف تصعيد حماس وحزب الله الذى أدى بدوره إلى تسخين الأجواء وقدم المبرر للهجوم الإسرائيلى على لبنان.

ولا يسعنا أن نتجاهل التحرك البندولى للعلاقات الإيرانية الأمريكية فيما يخص أفغانستان، فما بين إشادات أمريكية متحفظة وغامضة عن «تعاون» إيرانى فى أفغانستان وكذلك فى جهود مكافحة المخدرات بها ومنها، ثم اتهامات أمريكية لإيران بإيواء عناصر من تنظيم القاعدة ولعب دور تحريضى فى صفوف شيعة أفغانستان بل ومحاولة بناء تحالف مناهض للحكم الموالى لواشنطون فى كابول عبر تأليب قادة مجاهدين سابقين، وبين هذا كله يبرز - كما فى الحالة العراقية - أن إيران كانت المستفيد الأول من الحرب الأمريكية فى أفغانستان.

وأخيراً، وليس آخراً، هناك الضجة التى أفرزها داخل الولايات المتحدة منح تأشيرة دخول للرئيس الإيرانى السابق خاتمى للولايات المتحدة لإلقاء عدد من المحاضرات بها ما بين مؤيد لها، كلفتة انفتاح نحو أحد أصوات الإصلاح والاعتدال فى إيران وبين من يرى ما يحدث داخل إيران مجرد توزيع أدوار متفق عليه ويذكر بأن خاتمى لم يحقق ما وعد به من إصلاحات خلال ثمانى سنوات فى سدة الرئاسة ويشير إلى أن من شأن فتح خط مع خاتمى توفير فرصة للنظام الإيرانى للخروج من عزلته، وكأنه يسلم بأن هذا النظام بات معزولاً بالفعل!

والواقع أن «حكاية» العلاقات الأمريكية الإيرانية هى من «الحكاوى» القديمة المتجددة باستمرار، بدأت تبرز قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتواصلت فصولها، حتى مع انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٧٩. ولهذه العلاقات محاور متعددة ومستويات متباينة ومراحل متفاوتة، تمر عبر النفط والغاز والموقع الجيو-استراتيجى، ولم تقف عند حدود الحرب الباردة كما فى حالات العلاقات الأمريكية مع دول أخرى بالمنطقة وخارجها. وتداخلت فيها الأيديولوجيا والمصالح والثقافة، ولعبت الدبلوماسية غير الرسمية فيها أدواراً هامة. وتعددت دوائرها بين أفغانستان والعراق والصراع العربى الإسرائيلى وأمن الخليج والتاثير فى مناطق التواجد الشيعى والمد الإسلامى فى مجمله والأوضاع فى آسيا الوسطى.

ووصلت أصداء العلاقة/ المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران إلى جنوب أفريقيا جنوباً عبر مشروع تخزين النفط الإيرانى فى جنوب أفريقيا فى النصف الثانى من التسعينيات، وإلى أمريكا اللاتينية غرباً من خلال تعزيز الروابط مع مناهضى واشنطون فى فنائها الخلفى ممثلين فى كوبا وفنزويلا، وهو ما شكل استمراراً لإرث أحد الزعماء الأوائل للثورة الإيرانية الراحل آية الله سيد محمود طالقانى الذى استقبل عام ١٩٧٩ وفد جبهة الساندينيستا اليسارية الحاكمة حينذاك فى نيكاراجوا والتى كانت تناصب واشنطون العداء وأعلن وقوف «الجمهورية الإسلامية» مع الجبهة فى مواجهة «الشيطان الأكبر» (وهو الاسم الذى أطلقه الراحل آية الله الخمينى على الولايات المتحدة) وبرر ذلك بآية فى القرآن الكريم تحث المسلمين على مساندة الذين يجاهدون من أجل «القسط» (العدل) فى العالم، واعتبر طالقانى أن ذلك يسرى فى كل الأحوال حتى ولو كان هؤلاء المجاهدون من الشيوعيين.



ونتناول هنا كتاباً هاماً صدر منذ شهور قليلة نشعر بازدياد أهميته بمرور الأيام وتطور الأحداث على صعيد الأوضاع والمواقف بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية. والكتاب بعنوان The Persian Puzzle، ومن تأليف باحث له اسمه وصيته فى الدراسات والبحوث المتصلة بمنطقة الشرق الأوسط بصفة عامة، ومنطقة الخليج والعراق وإيران على وجه الخصوص، وهو Kenneth Pollack والذى يشغل منصب مدير البحوث بمركز سابان لدراسات الشرق الأوسط التابع لمؤسسة بروكنجز، أحد أهم مراكز الأبحاث بالعاصمة الأمريكية واشنطون، وسبق له العمل فى مجلس الأمن القومى الأمريكى خلال إدارة الرئيس السابق «بيل كلينتون» وإدارته الديمقراطية متولياً مسئولية الملفين الإيرانى والعراقى، كما سبق له قبل ذلك العمل كمحلل بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وسنتعرض هنا بالعرض والتحليل النقدى لمضمون كتاب «بولاك»، وفى سياق هذا العرض النقدى سنحاول وضع الكتاب فى إطاره الطبيعى تاريخياً ومنهجياً وبحثياً كجزء من سياق طويل للعلاقات الأمريكية الإيرانية التى مرت بأطوار مختلفة، خاصة خلال نصف القرن الأخير.

ويشكل انقلاب ١٩٥٣ الذى دبرته المخابرات الأمريكية لإسقاط الزعيم الإيرانى الإصلاحى والوطنى ذى الشعبية العريضة محمد مصدق وتمكين الشاه الصغير حينذاك محمد رضا بهلوى من السلطة نقطة البداية

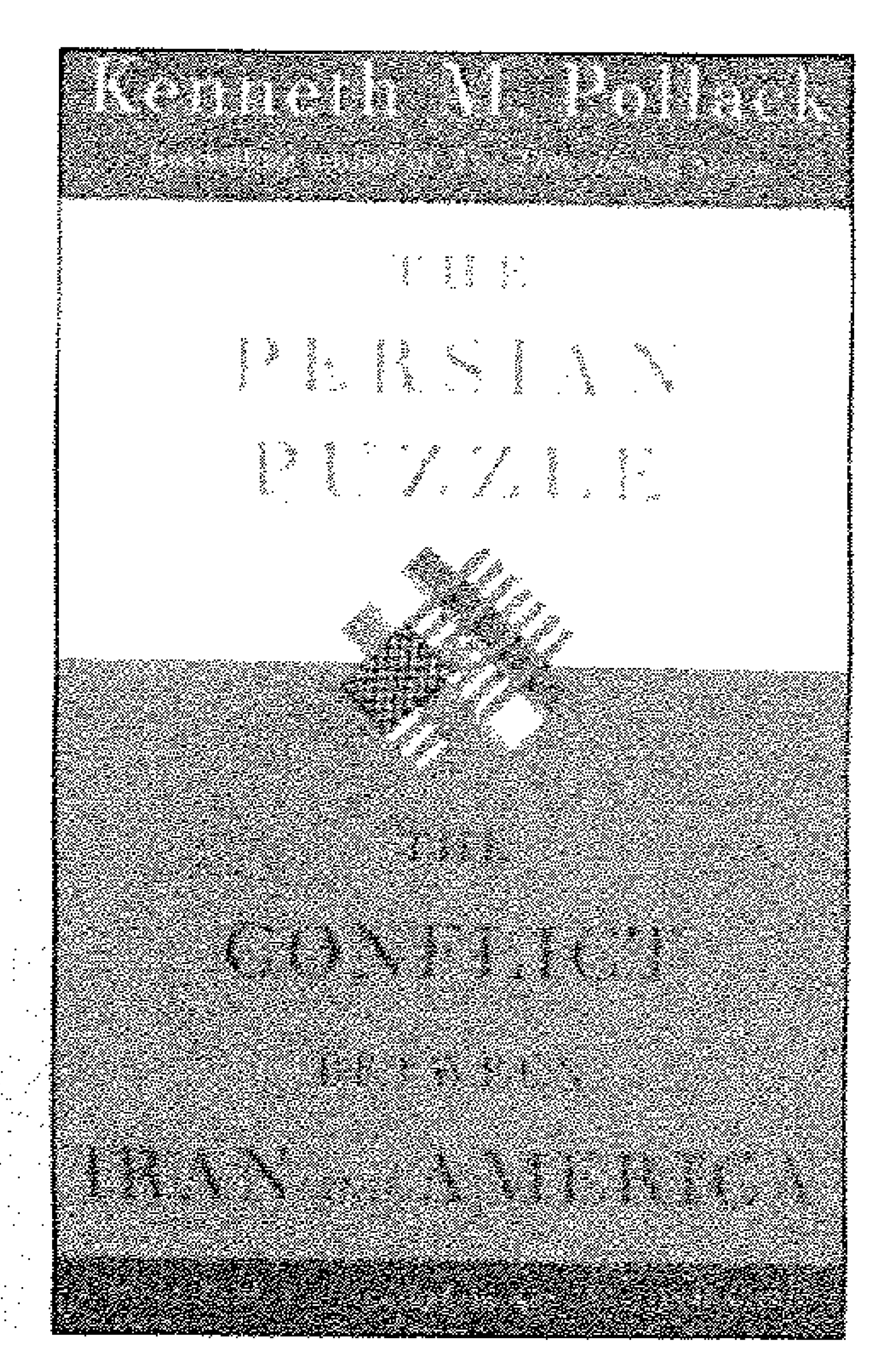
The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America

(اللغز الفارسى: الصراع بين إيران وأمريكا)

Kenneth M. Pollack
New York: Random House, 2005, 539PP

إحدى المشكلات المزمنة فى الموقف الأمريكى من إيران أن واشنطون كانت تقوم بمبادرات تجاه قيادات إيرانية تتوسم فيها الاعتدال والبراجماتية ثم يتضح لها متأخراً أنها أدت إلى عكس ما كان مرجواً منها





الحقيقية في تغطية بولاك للعلاقات الأمريكية الإيرانية، نظراً لما أوجده هذا الانقلاب لدى الإيرانيين من اعتقاد بأنه ليس فقط الولايات المتحدة تريد السيطرة على إيران بل انها تمكنت من ذلك بالفعل. ومن هنا يبرز بولاك في كتابه أهمية تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت عام ٢٠٠٠ بالأسف للتراجع في تطور إيران السياسي في عهد الشاه المخلوع، بما شكل إشارة ضمنية لمسئولية الولايات المتحدة عن هذا التراجع، دون أن يرقى إلى الاعتراف الصحيح أو الاعتذار اللذين كانا يحتاجهما الإيرانيون بل ويشترطونهما لإطلاق حوار مع الولايات المتحدة.

ويرى بولاك أن الاعتراف بأخطاء السابق وإن لم يكن له نتيجة آنية فإنه هام لتجنب أخطاء المستقبل. فبحسب بولاك، فإن الأمريكيين الذين دبروا انقلاب عام ١٩٥٣ لم يفهموا لا مصدق ولا الشاه. فمصدق أدرك أن الولايات المتحدة تنظر إلى إيران باعتبارها هامة وحيوية لمصالحها وأمنها القومي على الصعيد الإقليمي، وبالتالي اعتقد -عن صحة أو خطأ- انه يستطيع الحصول على تنازلات من الولايات المتحدة عندما يظهر وكأنه مستعد لعقد صفقات مع الاتحاد السوفيتي السابق. أما الشاه فقد رأى نفسه معتمداً بالكامل على الولايات المتحدة ولكنه من منطلق هذه الحماية الأمريكية الكاملة يتدلل على من يحميه، كما فعل عام ١٩٧٣ عندما دفع منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) إلى مضاعفة أسعار النفط بشكل غير مسبوق.

وقد انكشفت هذه التبعية للشاه السابق على الولايات المتحدة - بحسب بولاك - في أيامه الأخيرة بشكل كامل عندما بدأ يخطط لحملة قمع دموية للثورة الإيرانية ولكنه ذكر للسفير الأمريكي في طهران أنه لن ينفذ هذه الخطة بدون موافقة واشنطون، وهي موافقة رفض أن يمنحها حينذاك الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر. وبخصوص هذه اللحظة التاريخية، يوجه بولاك اشد الانتقادات لإدارة الرئيس كارتر وعملية صنع السياسات والقرارات بها حيث يصف المعتدلين والمتشددين فيها على حد سواء بأنهم عملوا في ظل فرضيات لا أساس لها من الصحة على ارض الواقع ولكنها من بنات أفكارهم.

ويعتبر كتاب «بولاك» -وبحق- أن الأزمة التي عصفت بالعلاقات الأمريكية الإيرانية منذ قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ ثم أزمة الرهائن بالسفارة الأمريكية في طهران -والتي بدأت في العام نفسه- كانت مصدر إحباط لآخر خمسة رؤساء للولايات المتحدة، بدءاً بالديمقراطي جيمي كارتر وانتهاء - حتى الآن على الأقل- بالجمهوري جورج بوش الابن، حيث فشلت مختلف الاستراتيجيات والسياسات والمبادرات التي طرحوها للتعاطي مع الشأن الإيراني ومع حالة العلاقات الأمريكية الإيرانية، المجمدة على افضل تقدير منذ فبراير ١٩٧٩.



ويفسر المؤلف أن إحدى المشكلات المزمنة في الموقف الأمريكي من الجمهورية الإسلامية في إيران والتي سببت هذا الفشل والإحباط هو أن واشنطون كانت تقوم بمبادرات تجاه شخصيات في القيادة الإيرانية تتوسم فيها الاعتدال والبراجماتية ثم يتضح لها متأخراً أن هذه المبادرات أدت إلى عكس ما كان مرجواً منها. ويرى «بولاك» أن هذا النمط بدأ عندما التقى مستشار الأمن القومي الأمريكي حينذاك زبيجنيو بريجينسكي مع رئيس الوزراء الإيراني في ذلك الوقت الراحل مهدي بازرجان في نوفمبر ١٩٧٩. إلا انه بعد هذا اللقاء بأيام قليلة تم الهجوم على السفارة الأمريكية في طهران بواسطة ما سمي بـ «الطلاب السائرين على نهج الإمام» واحتجاز العاملين بها في أزمة استمرت لحوالي أربعة عشر شهراً، وسقطت حكومة بازرجان «المعتدلة» وسط اتهامات لها من دوائر المتشددين في طهران بالسعي للتقارب مع واشنطون والتغاضي عن «الجرائم» الأمريكية في حق الشعب الإيراني.

وفيما يتعلق بحادث احتجاز الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية بطهران من نوفمبر ١٩٧٩ إلى يناير ١٩٨١، فإن بولاك يؤكد من جديد أن موقف الخميني لم يقتصر على تبني الاستيلاء على السفارة الأمريكية واحتجاز الرهائن ولكنه تخطى ذلك إلى الدفع لإبقائهم محتجزين أطول فترة ممكنة حتى يتحقق هدف إسقاط الرئيس كارتر، كنوع من الثأر للموقف الأمريكي المدبر لانقلاب ١٩٥٣ ضد مصدق.

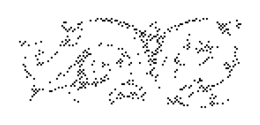
ولكن لا تبدو لنا الصلة هنا مؤكدة فالمؤسسة الدينية الشيعية في إيران بقيادة آية الله كاشاني كانت قد اختلفت مع مصدق قبل سقوطه وتصالحت مع الشاه بعد عودته على أسنة الحراب بتخطيط أمريكي عام ١٩٥٣ ولم تواجه الشاه من جديد سوى عندما تعارضت مصالح الطرفين حين أطلق الشاه ما أسماه بـ «الثورة البيضاء» في مطلع الستينيات من القرن الماضي وتم المساس بالمصالح الاقتصادية للمؤسسة الدينية الرسمية الشيعية. كما أن آخرين ممن كتبوا عن العلاقات الأمريكية الإيرانية اتفقوا مع بولاك في أن مد الجانب الإيراني لأمد أزمة الرهائن كان بغرض إسقاط الرئيس كارتر ولكنهم خلصوا إلى دوافع مختلفة، أهمها السعي لصفقة مع الإدارة الجمهورية الجديدة للرئيس ريجان كرد لهذا الجميل لإيران، أو تصور البعض داخل القيادة الإيرانية أنه قد يكون الأسهل لنظام الجمهورية الإسلامية في إيران التعامل مع إدارة جمهورية محافظة عن التعامل مع إدارة ديمقراطية ليبرالية تركز على قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، وربما لم يدر بخلد هؤلاء للحظة أن الإدارة الجمهورية الجديدة ستدشن حقبة من تعاظم تأثير اليمين المسيحي في دوائر الحزب الجمهوري وإداراته المتعاقبة بما يؤدي في نهاية المطاف إلى نمو تراكمي للعداء لإيران في ظل حكم الجمهورية الإسلامية.

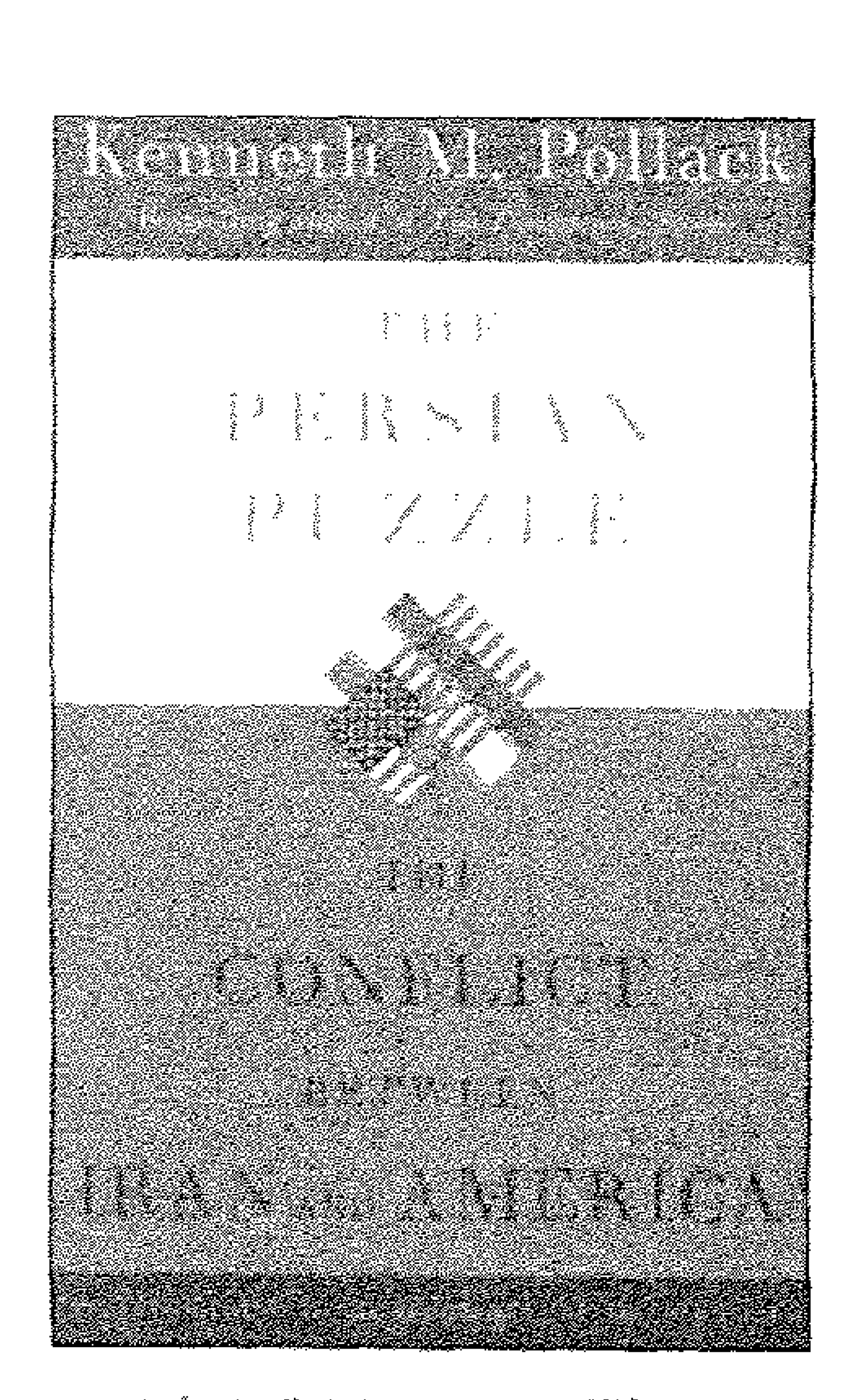
ويعطي المؤلف مثالاً آخر بما عرف بفضيحة «إيران-كونترا» خلال حكم الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان -وتحديداً عام ١٩٨٤ - حيث اتبع مجلس الأمن القومي نهج التعامل السري مع قيادات إيرانية مثل «علي أكبر هاشمي رفسنجاني» رئيس مجلس الشورى (البرلمان) الإيراني حينذاك في صفقة لإمداد إيران بالسلاح مقابل إطلاق سراح رهائن أمريكيين محتجزين لدى تنظيمات شيعية مسلحة قريبة من إيران في لبنان، وأيضا مقابل أموال تم تحويلها لتمويل متمردي «الكونترا» الذين كانوا يقودون تمرداً مسلحاً ضد حكومة الساندينيستا في نيكاراجوا بزعامة «دانيال أورتيجا» اليسارية التوجه والمناهضة للولايات المتحدة حينذاك. ولم يتحقق أي عائد للولايات المتحدة من جراء هذه الصفقة، بل عندما انكشف الأمر تحول إلى فضيحة بكل المعايير للإدارة الأمريكية وتم محاكمة بعض المسئولين عنها وأجبر البعض الآخر على الاستقالة، كما لم تحقق أي مردود إيجابي على المواقف الإيرانية إزاء الولايات المتحدة. وفيما يتعلق بهذه الفضيحة يفسرها بولاك بأن الكونجرس حين حظر على الإدارة الأمريكية توفير موارد للمخابرات المركزية لتمويل برنامج لدعم متمردي الكونترا في نيكاراجوا فان مسئولي مجلس الأمن القومي والمخابرات المركزية وجدوا طريقاً غير مباشر لتمويلهم عبر تلك الصفقة.

ونزيد هنا بأنه حتى الشخصيات الإيرانية



يوصي بولاك بأن تتعامل الولايات المتحدة مع التحديات التي تشكلها إيران لها بالتعاون والتنسيق مع مجموعة أخرى من الدول ذات الصلة بالحالة الإيرانية، سواء من خارج الإقليم أو من داخله





المتورطة فى فضيحة «إيران - كونترا» سارعت بالإعلان عن مواقف متشددة إزاء الولايات المتحدة لتبرئة ساحتها من «تهمة» التقارب مع الولايات المتحدة، بل وبررت موافقتها على الصفقة بأنها كان يمكنها التعامل مع «الشيطان» للحصول على السلاح الذى كانت إيران تحتاجه حينذاك فى حربها مع العراق، وكان هذا «الشيطان» بالطبع من وجهة نظرهم هو الولايات المتحدة، وهو وصف سبق أن ذكرنا أنه أطلق عليها فى إيران الثورة منذ أيامها الأولى وكان يقرن بـ «الأكبر» وكان أول من أطلقه هو آية الله الخمينى نفسه.

وفى الفصل السابع من كتابه، يتناول بولاك ما يسميه «إيران فى حالة حرب مع العالم» ويركز على عقد الثمانينيات من القرن العشرين. فإيران كانت فى حالة حرب مع العراق، وفى الوقت نفسه تتبنى حزب الله فى لبنان وتشرف على خطط لهجمات مثل الهجوم على مقر قوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) فى بيروت عام ١٩٨٣. ويرى بولاك أن الصراعات داخل إدارة الرئيس الراحل ريجان وفضيحة إيران- كونترا كانتا على قمة سجل الأخطاء الأمريكية فى تلك الحقبة، ويرى بولاك أن قرار إرسال قوات المارينز إلى لبنان كان كارثة للسياسة الأمريكية فى المنطقة، وكان كارثة للسياسة الأمريكية تجاه إيران، بل ويرى أن التدخل الأمريكى فى لبنان فى حد ذاته كان خطأ كبيراً.

وتستمر عملية سوء التقدير وسوء الحكم على الأمور المتبادلة بين الجانبين الأمريكى والإيرانى -من وجهة نظر بولاك- طوال فترة وجود آية الله الخمينى كمرشد للثورة (أى حتى عام ١٩٨٩). ويقر بولاك بوجود صراع مستمر بين من أسماهم بـ «الثيوقراطيين» وبين من يسميهم بـ «العلمانيين المتغربين» وذلك استمر حتى فى الفترة التى تلت وفاة آية الله الخمينى. وانتهى الأمر بتكرار ما يسميه بولاك بالنموذج الصينى، أى بالثيوقراطيين يخففون بعض القيود فى المجال الاجتماعى ويمنحون قدراً من الحريات فى هذا المجال مقابل الحصول على كل السلطة والقوة السياسية بلا قيود. ويدهشنا هنا تصنيفات بولاك الحادة والتى لا يقدم مبرراتها بقوة فلا نعلم من تحديداً المقصود بالثيوقراطيين داخل السلطة الإيرانية التى تقوم أسسها الدستورية وشرعيتها الفقهية بالكامل على مفهوم «ولاية الفقيه»، ومن هم «العلمانيين المتغربين» داخل هذه السلطة التى لا مجال بداخلها إلى وجود علمانيين ولا متغربين إلا إذا كانت التعريفات عنده نسبية وفضفاضة للغاية داخل إطار الجمهورية الإسلامية الإيرانية وفى إطار مقارن. إلا أن المقارنة بين الحالة الصينية والحالة الإيرانية تبدو لافتة للنظر وإذا تناولناها بالتحليل لا تخلو من جدة ووجاهة، وأهمية ودلالة، مع الأخذ فى الاعتبار اوجه التباين فى المشروع الفكرى والسياسى للنخبة السياسية والثقافية الحاكمة فى الحالتين.

ثم يقدم «كينيث بولاك» لنا رؤيته من داخل الإدارة الأمريكية الديمقراطية فى عهد الرئيس السابق بيل كلينتون حيث عمل حينذاك فى مجلس الأمن القومى وكان منوطاً به الملف الإيرانى، ويسير على نفس المنهج فى العرض، فيعرض لجهود إدارة كلينتون للتقارب مع العناصر المعتدلة فى القيادة الإيرانية. ولكن النتيجة النهائية التى يخلص لها من هذه التجربة هى الإقرار بسوء تقدير الإدارة، وسوء تقديره هو شخصياً، حيث أنه تصور فى مرحلة ما أن الولايات باتت قريبة جداً من تحقيق «اختراق» من العيار الثقيل فى العلاقة مع إيران، إلا انه وعى -على حد قوله- أن السلطة الحقيقية لاتخاذ القرار على الجانب الإيرانى كانت فى أيدى أشخاص إما كانوا ليسوا مستعدين أو غير مكترثين بتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية.



السلطة الحقيقية لاتخاذ القرار على الجانب الإيرانى كانت فى أيدى أشخاص إما أنهم ليسوا مستعدين أو غير مكترثين بتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية



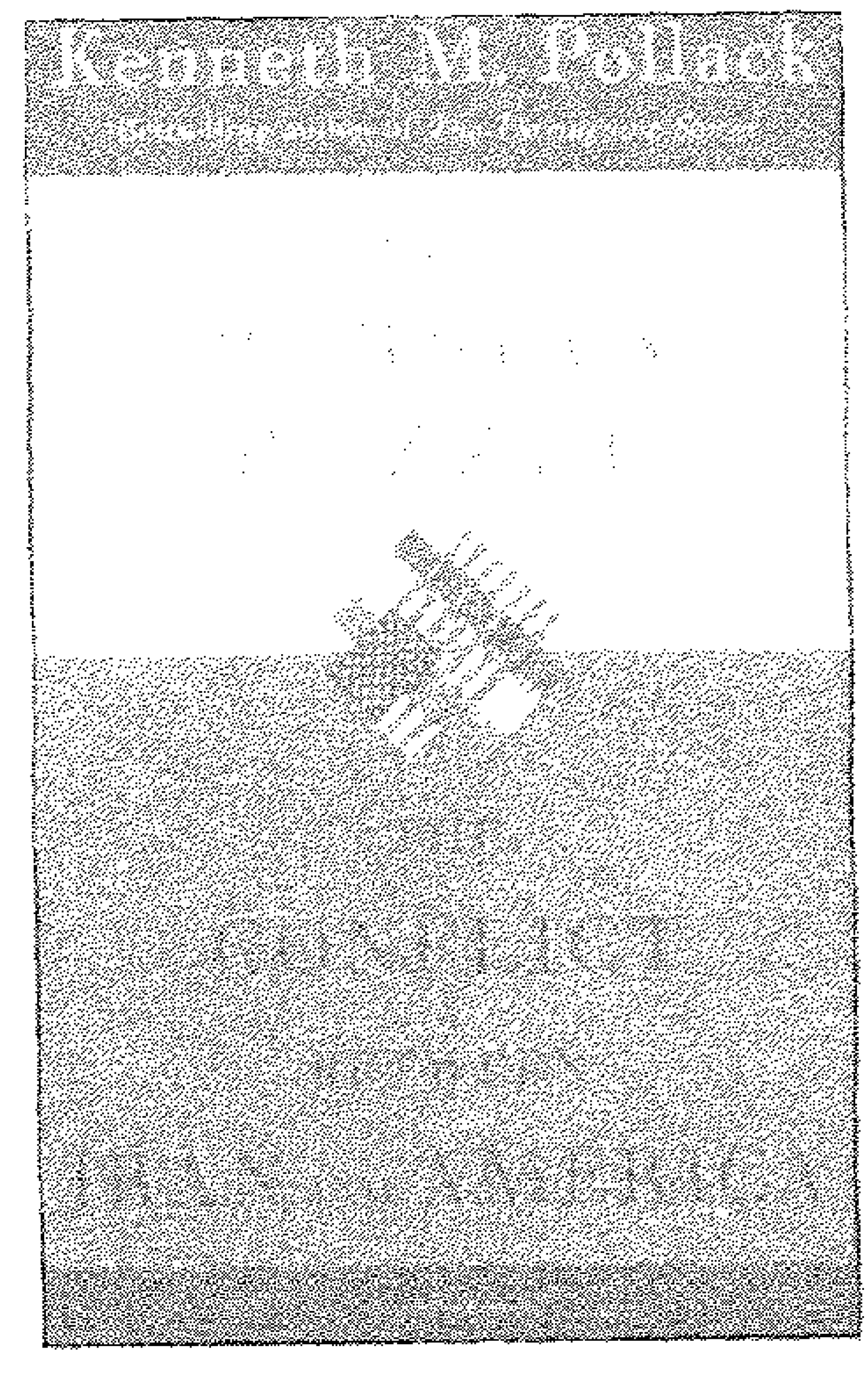


وفى تناوله لفترة الإدارة الجمهورية الراهنة يتناول المؤلف المنهج الأمريكى الخاص بتصنيف إيران ضمن مجموعة دول معادية، سواء كانت التسمية «الدول المارقة» Rogue States أو لاحقاً «محور الشر» Axis of Evil وهى مجموعة بدأت واسعة لتضم العراق وإيران وسوريا وكوريا الديمقراطية الشعبية وكوبا والسودان وأفغانستان والجماهيرية الليبية، ثم تقلصت وخرجت منها أفغانستان والعراق بفعل الحرب، وليبيا عبر تسوية تفاوضية مع بريطانيا والولايات المتحدة، وصارت السودان على حدودها تدخل احياناً كضغوط سياسية أو عبر قرارات للأمم المتحدة وتخرج أحياناً أخرى عبر تسويات دبلوماسية. ولكن الكاتب يتجاهل هنا واقع وجود تقليد سابق هو سعى العديد من الإدارات الأمريكية المتعاقبة إلى وصم الدول أو التنظيمات السياسية أو العقائد المناهضة لها بأوصاف ونعوت ذات مكون أخلاقى سلبى، ومن منا لا يذكر وصف الرئيس الراحل ريجان للاتحاد السوفيتى السابق بـ «امبراطورية الشر» فى الثمانينيات من القرن الماضى. فالإدارة الحالية إذاً لم تبتدع سنة جديدة فى هذا المجال.

وفى مجال توصياته لمستقبل السياسة الأمريكية إزاء إيران، فان «بولاك» حاول الجمع بين ودروس وخبرة الماضى ومنح الأمل فى مستقبل أفضل، فهو من جهة يوصى باستمرار السعى الأمريكى للوصول إلى البراجماتيين فى القيادة الإيرانية وفى المجتمع الإيرانى ومحاولة التوصل معهم إلى صفقة «ما»، ولكنه على الجانب الآخر، وتحديداً فيما يتعلق بالملف النووى الإيرانى يوضح انه إذا أصرت طهران على الاستمرار فى برنامجها النووى، فعلى الإدارة الأمريكية اتخاذ إجراءات والقيام بأفعال أكثر حزماً إزاء إيران، بما فى ذلك -وفى الحالة القصوى على حد تعبيره- النظر بجدية لإمكانية اللجوء للخيار العسكرى.

وقد سبق لنفس الكاتب إصدار كتاب أثار جدلاً واسعاً عام ٢٠٠٢ بعنوان The Threatening Storm : The Case For Invading Iraq، وهو ما مثل دعما موازياً لموقف من كان يسمى حينذاك بالمتشددين فى إدارة الرئيس بوش الأولى الذين كانوا يدعمون خيار الغزو العسكرى للعراق. وجاءت توصيات كتاب «بولاك» فى نفس الاتجاه لتثير الاستغراب على نطاق واسع أخذاً فى الاعتبار خلفية عمل المؤلف فى إدارة كلينتون الديمقراطية التى لم تتبن خيار غزو العراق.

ولئن كانت إجابة المؤلف على حالة العراق هى ضرورة الحرب، ففى حالة كتابه الأخير عن إيران فان إجابته هى رفض مشروط لاعتبار الحرب الوقائية هى الحل لما تصفه الدوائر الأمريكية بالمسألة الإيرانية. فبولاك يقر فى كتابه الجديد أولاً أنه أخطأ فى كتابه السابق ويبرر ذلك بأنه كان يستند إلى معلومات استخباراتية اتضح فيما بعد أنها كانت مضللة أو على أفضل تقدير خاطئة. وأسباب رفضه للحرب فى حالة إيران متعددة منها الكثافة السكانية للإيرانيين، الطبيعة الوعرة للأرض وكثرة عدد المرتفعات والهضاب، والأعداد الكبيرة المتوقعة لمقاومين إيرانيين لأى غزو أمريكى لبلادهم نتيجة ما يؤمنون به عقائدياً بما يدفعهم للموت دفاعاً عن «الجمهورية الإسلامية» وهى قناعة أيديولوجية لم تكن متوفرة بحسب رأى بولاك فى الحالة العراقية لدى المدافعين المفترضين عن حكم الرئيس السابق صدام حسين. كما يشير بولاك إلى مخاطر قد تتعرض لها المصالح الأمريكية والمواطنون الأمريكيون فى مناطق أخرى عبر العالم فى حالة القيام بهجوم عسكرى أمريكى ضد إيران.



وحتى بالنسبة لتوجيه ضربة وقائية ضد منشآت إيران النووية أسوة بالضربة العسكرية الإسرائيلية لمنشآت العراق النووية في يونيو ١٩٨١، فانه يستبعد هذا الخيار لأنه يرى فيه عيوبا أكثر من مزاياه. ويوصي بولاك بأن تتعامل الولايات المتحدة مع التحديات التي تشكلها إيران لها بالتعاون والتنسيق المكثف مع مجموعة أخرى من الدول ذات الصلة بالحالة الإيرانية، سواء من خارج الإقليم أو من داخله، ومواجهة إيران بمزيج من عصي كبيرة وجزرات كبيرة أيضاً Big Carrots and Big Sticks.

وقد أخذت بعض الدوائر داخل مراكز الأبحاث ووسائل الإعلام الأمريكية المؤيدة لدعوات التغيير الديمقراطي في العالم العربي والإسلامي التي أطلقتها الإدارة الأمريكية الحالية، خاصة منذ بداية الولاية الثانية للرئيس بوش الابن، على «بولاك» في كتابه عدم تعرضه بما يكفي لخيار دعم القوى والاتجاهات الديمقراطية داخل إيران، بالرغم من أن تحول إيران من نظام إسلامي إلى نظام ديمقراطي على النسق الغربي - حسب رؤية هذه الدوائر- هو السبيل الوحيد لضمان نشأة وتطور علاقات جيدة ومستدامة بين إيران والولايات المتحدة على المدى المتوسط والطويل.

الأمر الآخر الذي أخذه بعض الأكاديميين على كتاب «بولاك» هو اعتماده شبه التام على المصادر الأمريكية في مراجعه، فلم يستخدم مراجع أوروبية هامة عن إيران، بالإضافة إلى عدم استخدامه مراجع إيرانية هامة. وبالتالي أخذ هؤلاء على الكتاب أنه عكس نقاط القوة والضعف للأدبيات السياسية والأكاديمية الأمريكية حول إيران وتاريخها. وإن كان العذر الذي يمكن التماسه لبولاك في هذا السياق أنه يبحث أساساً في إخفاقات السياسة الأمريكية إزاء إيران وليس عن تطورات الحالة الإيرانية في حد ذاتها.

وهناك أمر ثالث أخذه بعض الإيرانيين والأمريكيين المؤيدين أو المتعاطفين مع شاه إيران الأخير محمد رضا بهلوي على «بولاك» وكتابه، حيث اتهمه هؤلاء بالتحامل على الشاه السابق، وتضخيم أخطائه وإخفاقاته بشكل مبالغ فيه مع تجاهل ما حققه من إنجازات لإيران وللعلاقات الإيرانية الأمريكية، وكذلك اتهموه بالتحدث مطولاً في كتابه عما أسماه بفشل سياسات الشاه الاقتصادية دون أن يذكر أن إيران حققت خلال بعض السنوات ما بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٧٨ معدلات نمو كانت تعتبر الأعلى بين مختلف دول العالم في تلك الفترة.



يوفر الكتاب أرضية هامة ولا مثيل لها كثيراً لخلفية العلاقات الإيرانية الأمريكية وتطورها. ويبدو أقوى في حججه ومنهجه عندما يتحدث عن الماضي وليس المستقبل، وربما هذا ما تتصف به دراسات وبحوث العلوم السياسية والعلاقات الدولية بشكل عام بالرغم مما حدث فيها من تقدم وطفرة في مناهج وأدوات التحليل - بما فيها الكمية - في العقود الماضية. فبولاك يذكر القارئ مثلاً مراراً وتكراراً كم أن الكثير من الفرضيات والمسلمات الأمريكية حول إيران وأولوياتها ومصادر قلقها هي ببساطة خاطئة. ويستدعي هذا إلى الذاكرة ما فعله تشارلز دويلفر كبير خبراء الأسلحة الأمريكيين في العراق عندما كشف للعالم كله، وللأمريكيين على وجه الخصوص، أن الرئيس العراقي السابق صدام حسين كان يدعي أن لديه أسلحة دمار شامل لأنه كان معنياً أساساً بردع إيران، الخصم الإقليمي اللدود، وليس الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة.

ولا شك أن مواقف بولاك تجاه إدارة كلينتون وسياساتها كانت اكثر إيجابية وتعاطفاً، وهو أمر متوقع في ضوء عمله هو شخصياً في هذه الإدارة كمحلل سياسي في المخابرات المركزية ثم كمسئول عن ملف إيران والعراق بمجلس الأمن القومي. فهو يعطي لإدارة كلينتون الفضل فيما يعتبره تراجع إيران عن «الإرهاب» المعادي للولايات المتحدة بعد انفجارات أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦. ولكنه يقر أن لفتات إدارة كلينتون تجاه إيران لم تؤد إلى نتيجة. وبالرغم من أن البعض يشير إلى ما أوردته لجنة التحقيق في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من وجود أدلة على تسهيل إيران سفر السعوديين المتهمين بالاشتراك في هذه الهجمات، فان بولاك يتجاهل هذه النقطة كلية ويشير بالمقابل إلى ما يسميه بتعاون إيران على المستوى العملي مع الولايات المتحدة عقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة وخاصة خلال الحرب ضد حركة الطالبان في أفغانستان.

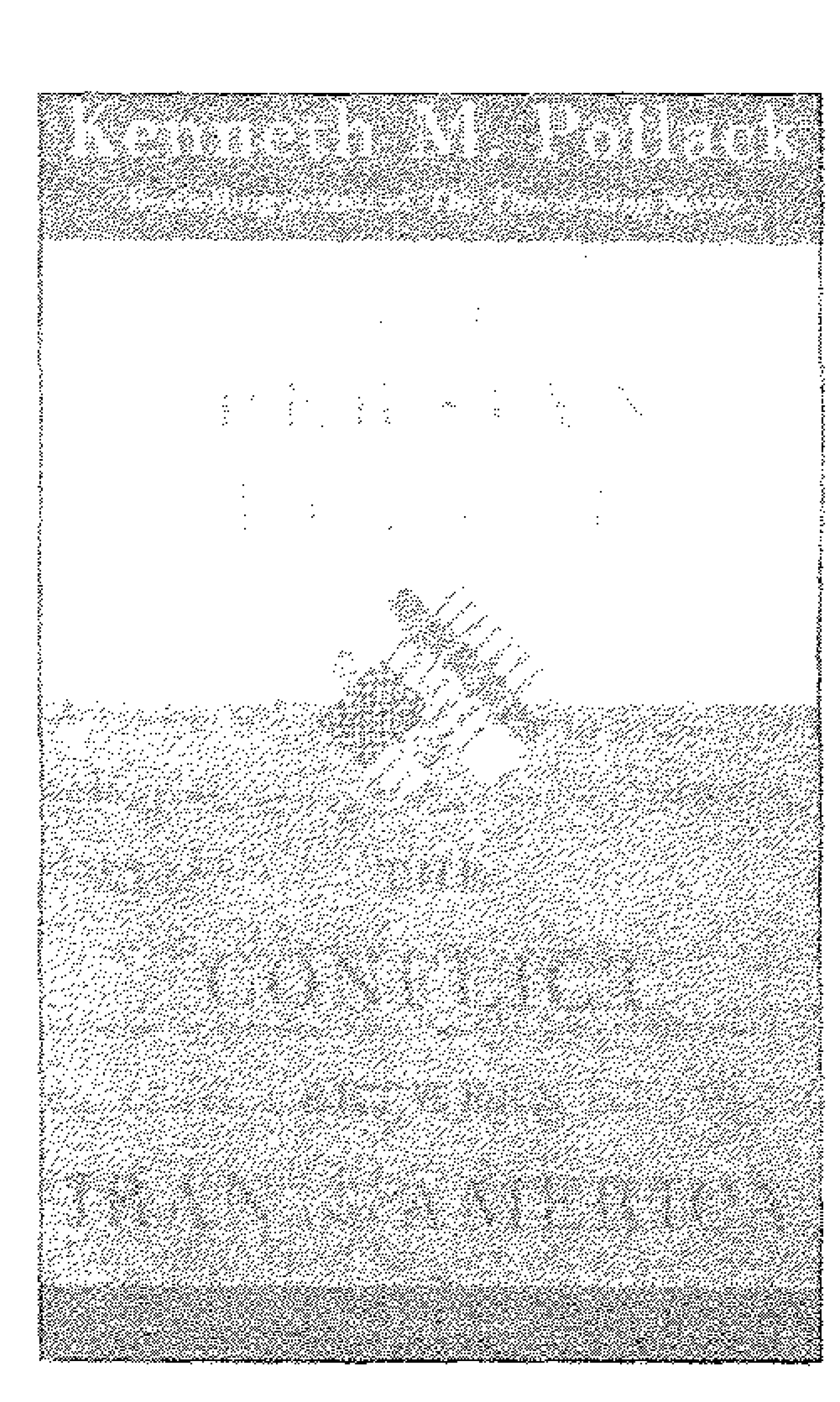
إلا أن الكاتب لم يمنح اللفتات والمبادرات المحدودة للانفتاح والمصالحة ولكن الهامة وذات الطابع غير الرسمي خلال العقد الأخير التفطية أو الوزن الذي تستحقه، رغم تنوعها بين الإعلامي والثقافي والفني والرياضي والقادم من المجتمع المدني. ولم يتناول بالإسهاب المطلوب الجدل المستمر داخل الولايات المتحدة بين مؤيدي الانفتاح على المجتمع الإيراني، ولو بدون سياسة، وبين من يعتقد أن أي انفتاح على الشعب الإيراني سيصب لصالح النظام الإيراني. وهو في الواقع خلاف أعمق مما يبدو على السطح، فهو في حقيقته نزاع بين دعاة تغيير النظم المناوئة للولايات المتحدة ولو بالقوة او بالغزو الخارجي أو تقديم الدعم الفعال لمعارضي هذه النظم من خارجها أي اتباع طرح Regime Change وبين من يؤمنون بإمكانية حدوث التغيير بشكل سلمي وتدريجي من داخل هذه المجتمعات في سياق إصلاح النظم من داخلها. كما أنه خلاف بين من يسعى إلى «تسييس» و«أدلجة» كل شيء، وبين من يسعى إلى الاحتفاظ باكبر قدر من الفضاء الإنساني بعيداً عن قيود السياسة وتأثيرها المباشر.

وأخيراً، فإن كتاب بولاك لا يمنح الثقل المطلوب لدور العامل المعنوي في العلاقات الأمريكية الإيرانية، خاصة من جانب نقص أو أحياناً غياب لإدراك الجانب الأمريكي لأهمية هذا العامل على الجانب الإيراني وتأثيره على الرؤية الإيرانية للولايات المتحدة، وهو أمر يبدو أنه متوارث في تحليل العلاقات الإيرانية الأمريكية من الجانب الأمريكي. فمشاعر المرارة تتواجد لدى الشعب الإيراني تجاه الدور التاريخي للولايات المتحدة في بلادهم وتدخلاتها المتتالية في شئونهم الداخلية في ضوء معرفتنا بأن الشعب الإيراني يمثل حضارة آلاف السنين ويعتز بهويته القومية والدينية وبالتالي باستقلاله الوطني وتميزه الحضاري. ويدل على هذه المشاعر أنه حتى رموز المجتمع المدني الإيراني في الداخل - مثل المحامية شيرين عبادي الحاصلة على جائزة نوبل للسلام - حريصون على حث الولايات المتحدة على عدم إعلان دعمها لهم لأن من شأن هذا الدعم الإساءة إلى نظرة الشعب الإيراني إليهم، وعلى حثها على عدم التدخل في الشئون الإيرانية الداخلية وترك شأن إيران لشعبها. ويستدعي هذا إلى الذاكرة ما ذكره الأستاذ الدكتور حسن حنفي في تقديمه للترجمة العربية لكتاب «الحكومة الإسلامية» لآية الله الخميني عام ١٩٨٠ من أن حادث احتجاز الرهائن الأمريكيين في طهران مثل جزءًا مما أسماه «رد فائض قيمة الإذلال التاريخي» من الشعب الإيراني للولايات المتحدة. ■

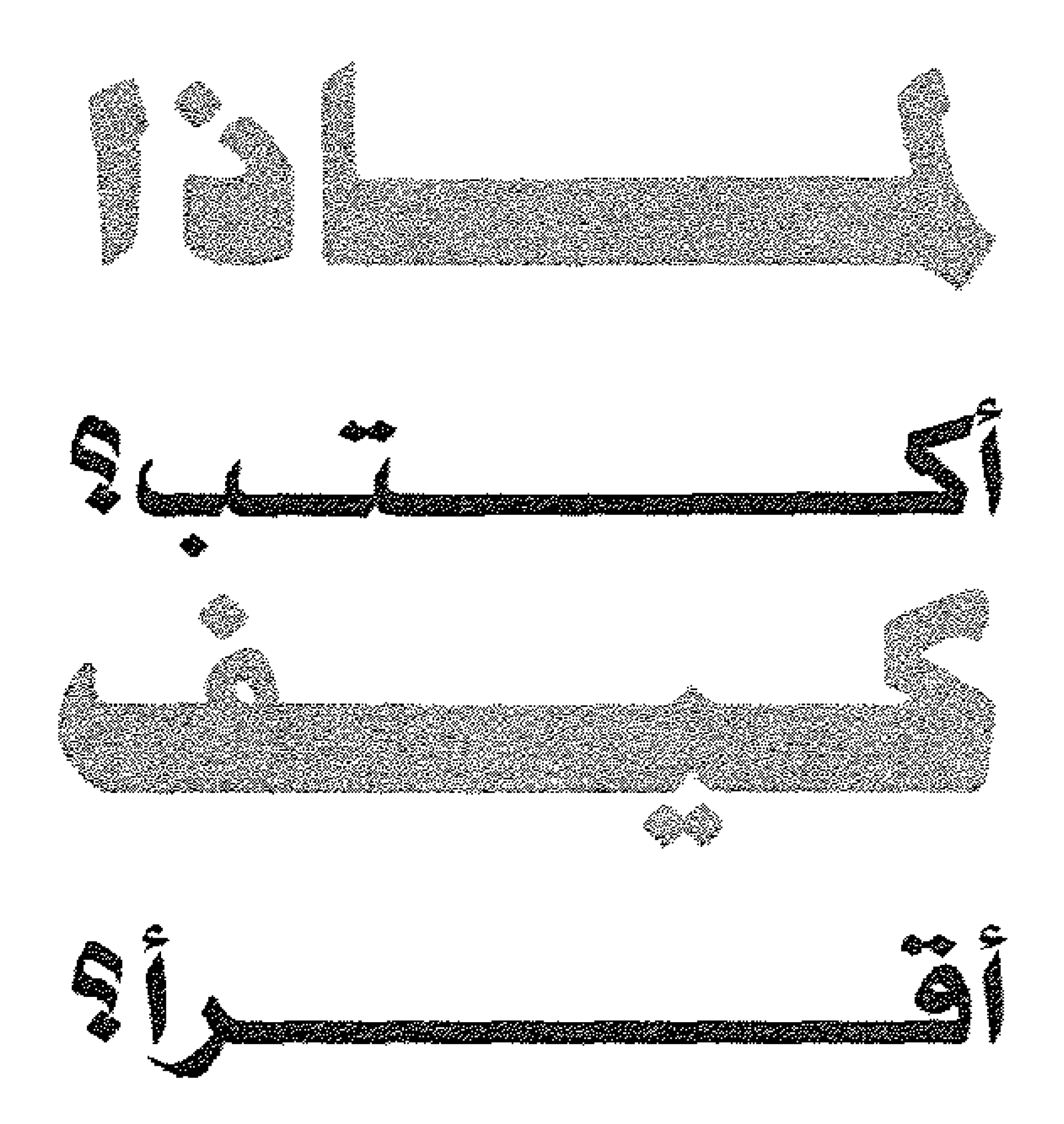


مشاعر المرارة تتواجد لدى الشعب الإيراني تجاه الدور التاريخي للولايات المتحدة في بلادهم وتدخلاتها المتتالية في شئونهم الداخلية





محمد مزالي



■ لم أزل منذ شبابي مؤمناً بجملة من القيم الروحية والثقافية والسياسية، ملتزماً بالدعوة لها والدفاع عنها والسعي إلى نشرها بين الناس ما وجدت إلى ذلك سبيلا، لأن الحياة عقيدة وجهاد وهي رسالة سامية يضطلع بها الإنسان الذى شرفه الله وميزه بالعقل واستخلفه في الأرض ورزقه الفكر وألهمه الحس الأخلاقي وحبب إليه العمل.. ليكون في مستوى إنسانيته وقادراً على تحمل الأمانة.

ولئن كان النضال من أجل القيم السامية - في المجال السياسي والاجتماعي والثقافي خاصة - يستوجب الدعوة باللسان والاتصال بالجماهير والقدرة على التنظيم وعلى ممارسة جدلية الموجود والمنشود، والاهتداء إلى بلوغ الغايات النبيلة، دون التورط في استعمال الوسائل الدنيئة، خلافاً لما ذهب إليه «الواقعيون» ومثلهم الأعلى «مكيافيللي» في كتابه «الأمير» والتسامي عن خلة الغدر عملاً واقتداء بما قاله الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: «والله ما معاوية بأدهي مني، لكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهي الناس، ولكن لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يغرت به يوم القيامة».. وإنه ليس كالكتابة ضبطاً وتقييداً للمعاني ولا تأثيراً على وجدان القارئ ولا أشد اشتباهاً وإدراكاً لفكر قراء اليوم في الماضي والغد كذلك أي الأجيال الصاعدة ما دام الكلام على بعد وقعه في التقرير معرضاً لأن تذروه الرياح وتنساه الذاكرة، بينما يبقى المكتوب محفوظاً في نفائس الكتب ترجع إليه الأجيال جيلاً بعد جيل أخذاً وانتقاداً واستلهاماً.

لذلك كله، حرصت منذ عهد الطلب على الكتابة. إنها عندي تعبير عما أومن به وأدعو له! إنها حوار بيني وبين أبناء وطني، بل بيني وبين الناس أجمعين، اليوم وغداً.

ولكن الكتابة - من وجهة نظري - ليست ترصيف كلمات وتنميق ألفاظ ولا هي نشاط مجاني ترفيهي لقتل الوقت وطرد الملل والكلل! الكتابة مسئولية والتزام! إن أحداً لم يلزم «كاتباً» بالكتابة ولا وجهه توجيهاً ما في تحبير المقالات وتصفيف الكتب.. اللهم إلا إذا رضي هذا «الكاتب» أن يكون مرتزقاً محترفاً، طامعاً أو خائفاً.

إن الالتزام غير الإلزام! إنما الشعور بالمسئولية اختيار نابع من الذات، مرادف للتجربة ودليل عليها، ومقوم هام من مقومات الشخصية الفردية ووعيها بمنزلتها، في الكون ورسالتها في الوجود.

لذلك فإني إذ أكتب إنما أريد أن أعبر عن وجودي وأفرض حريتي وأضطلع بإنسانيتي وأبلغ إخوتي في الوطن وفي الإنسانية جمعاء في مفهومي للخير والحق والجمال وتصوري لجوهر الحرية وتبعاتها، وحقيقة الواجب ومستلزماته.. ذلك أن وظيفة الكاتب - كما أكدت ذلك منذ الخمسينيات - تتمثل في كونه يسمي الأشياء بأسمائها ويكشف عنها فيؤثر في مواقف الناس وفي علاقات البشر بعضهم ببعض. وإذن فإن الكاتب مسئول نحو نفسه ونحو معاصريه عن كل ما يكتب، أي عن كل ما يفعل طالما أن الكتابة موقف و«فعل».

يختلف الكُتاب ويتفاوتون قيمة فتأثيراً بحسب قيمة فنهم وروعة أسلوبهم وحسن ديباجتهم.. وهم في ذلك أحرار.. ولكنهم - في نظري - يفقدون أصالتهم ويزيغون عن رسالتهم إذا هم اهتموا - دون الجوهر - بتنميق الألفاظ واستهواء القارئ بحلاوة الجرس والرنين وآثروا أن يكونوا - كما يقول طه حسين - «معازف يتعين على أنغامها المقربون» (انظر كتابه «تحت شمس الفكر» فصل «الفكر والشعب»).

أنا لم يخطر على بالي أن أمارس الفن للفن بل كتبت دائماً «توصيلاً» وتبليغاً وسعياً إلى التأثير ووفاء لالتزامي نحو الأمة والإنسانية وما ترنو إليه من مستقبل أسعد وغد أفضل.

لماذا أكتب؟ سؤال قد يجد القارئ الكريم جواباً له - إلى جانب ما سبق - في هذه المقتطفات من مقدمة كتابي «في دروب الفكر» (١٩٧٩): «هذه أيها القارئ الكريم، «معالم أخرى» أضعها في طريقك: ألقاك بها وتلقاك، بعد أن كانت سعت إليك كتبي «من وحي الفكر» و«مواقف» و«دراسات» و«وجهات نظر».. فحفلت بها ورحبت. ورأيت فيها صورة بينة الملامح، بعيدة الأفق، لنضال دأبت عليه سنين طوالاً - ومازلت - مساهمة في إيقاظ الهمم، واستنهاض العزائم، وفتح البصائر، ودعوة أهل الفكر من أبناء أمتنا إلى تكسير أغلالهم وتفجير طاقاتهم وتسخير قواهم لخدمة ثقافتهم ومعالجة قضاياهم وإنارة شعوبهم.

لقد حاولت، يا قارئي الكريم، أن أطرح بين يديك قضايا هي قضاياك، وأن أثير مشاكل هي مشاكلك، وأن أجابه متناقضات هي متناقضاتك، وأن أواجه تساؤلات هي تساؤلاتك. وأن أقف من الوجود مواقف دعوتك إلى التفكير فيها بكل جد، ورجوتك إمعان النظر في أبعاده بكل حبى ومعالجتها بكل شجاعة!



ولقد كان ديدني في كل ذلك أن أكون معك صريحاً، إذ كنت أطمح بآمالي إلى أن أفيد قومي وشباب بلادي، وأن أعرض عليهم مآسينا وقضايانا عارية كيوم الحساب، وأن أصدع بما أعتقده الحق غير مكتف بعرض القضايا دون حلولها، بل كنت أدعو إلى إعمال الفكر وإيثار الصدق والاعتبار بما يجري في غير دارنا.. وهل التفتح شيء آخر غير الاعتبار أساساً بما يقع حولنا وفي ظروف حياة تشبه ظروفنا؟

فلا تطمعن إذن - أيها القارئ الكريم - في أن تجد فيما أقدمه لك - أدباً «إبداعياً» يجنح بك إلى الخيال ويدعوك إلى التأويل.. ويسمو بك - أو ينزلق - إلى ضرب من التسابيح الضبابية والتجليات الصوفية. بل لقد سلكت إليك أسلوباً واضح العبارة، فصيح الإشارة، لم أركب فيه مركب الرمز والإغماض، ولم ألتجئ إلى المداورة والالتواء، رجاء النفاذ إلى نفسك بلا تأشيرات ولا مسوغات، وإقامة حوار معك وحوار آخر بينك وبين ذاتك. حوار قوامه نزاهة في الحكم وصراحة في القول وصدق في معالجة الأمور.. فعسي أن أكون قد وفقت».

أما كيف أقرأ فجوابي هو أني أطالع بنهم كبير وإقبال شديد كلما استسغت كتاباً أو استجزت مقالاً في مجلة أو جريدة.

إن المسئوليات الجسام التي تحملتها طيلة ثلاثين سنة منذ استقلال تونس إلى سنة ١٩٨٦ حالت دون قراءة كل ما كنت أود مطالعته من أدب رفيع نثراً وشعراً ومن دراسات تاريخية وأبحاث حضارية عربية وأجنبية، بل إني كنت مضطراً طيلة تلك الفترة الطويلة إلى قراءة مئات التقارير والرسائل الإدارية عديمة الفائدة الثقافية، وأشعر اليوم أن ما فاتني في مجال الثقافة لا يمكن تداركه لأن عملية النشر في نمو متزايد وعلي واجب انتقاء أغزر ما ينشر اليوم فائدة وألصق باهتماماتي.

إن ولعي بالكتاب كبير، وما أبلغ ما قاله فيه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري: «.. ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جاراً آمن ولا خليطاً أسعد ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملالاً ولا إبراماً.. ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب..».

وما أفصح ما قاله الجاحظ في الكتاب: «.. وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتي كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء..».

لقد أصبحت في منفاى منذ خمس سنوات أشد حباً للكتاب وأطول معاشرة له، وأكثر اعتماداً عليه لتجاوز الوحدة والوحشة وتعميق وعيي للناس والحياة. ■



حيز مطبخك يحدد طبقتك

«ثقافة الطعام» فى مصر

ملك رشدى

خلال السنوات الأخيرة طرأت فى مصر عدة تغييرات مهمة فى الثقافة الغذائية وحيز المطبخ. يمكن ملاحظة هذه التطورات فى مجالين أساسيين: التوسع فى شكل جديد من أشكال الطهى عملت على نشره وسائل الإعلام الرسمية ودور النشر والإنترنت؛ وإعادة تشكيل حيز المطابخ تماشياً مع أسلوب الطهى الحديث. ويسعنا اقتفاء أثر هذه التغييرات منذ نهاية العقد التاسع من القرن العشرين وبداية العقد الأخير منه. وذلك مع التوسع فى إقامة شركات إنتاج المأكولات الجاهزة والمجمدة وسلاسل المطاعم وشركات تصميم الأثاث الخاصة. وقد تطلب هذا التوسع تسويقاً «مبتكراً» وإستراتيجيات للتعليب - غالباً ما تكون نسخة طبق الأصل من التصاميم الغربية - ترمى إلى نشر المنتجات وتوزيعها على نطاق قومى.

لقد عمدتُ فى هذا البحث إلى سبر العوامل التى تعكس من خلالها الثقافة الغذائية صورة جديدة لطعام يتمحور حول الطبقات الاجتماعية. كما تفحصتُ أيضاً كيف تعيد هذه الصورة تعريف حيز المطبخ باعتباره رمزاً للهوية الطبقية. إن المهمة الأولى وثيقة الصلة بالأخرى والاثنتان تنتجان فى النهاية هوية اجتماعية تميز بين الفاعلين لها و«الآخرين» (بيير بوردو، الفوارق الاجتماعية: نقد اجتماعى للحكم، ١٩٧٩: ١٩١) إن تلك البنية تحديداً، بنية التفاوت الاجتماعى الممثلة فى الثقافة الغذائية والحيز، هى التى تبين كيفية حدوث عملية التغيير الاجتماعى والثقافى بالمجتمع القاهرى، ولا سيما الطبقتين الغنية والمتوسطة.

وقد استخدمت مصطلح الطبقة هنا للإشارة إلى الطبقتين الوسطى والعليا، حيث الأخيرة متميزة اقتصادياً واجتماعياً، وفى النهاية سياسياً. وهى متأثرة ثقافياً بالغرب بشكل أو بآخر وأنماط استهلاكها تتسم بالذوق الرفيع. بمعنى آخر، سيحاول هذا البحث أن يستوعب كيف يتسنى لمقاربات الطهى الجديدة تحويل العلاقات الاجتماعية وبناء هويات اجتماعية جديدة ليسفر هذا عن انقسامات اجتماعية وثقافية جديدة.

إن الطعام والطهى يشغلان مكانة أساسية بالاقتصاد والمجتمع المصرى. إذ يتجليان فى حجم الاستهلاك والعلاقات الاجتماعية، وفى فئات عاملة مختلفة تهيمن على الممارسات اليومية للطبقات المدينية المتباينة بالقاهرة. ثمة ملاحظات بسيطة للحيوات اليومية للقاهريين - بغض النظر عن انتماءاتهم الإقليمية أو الدينية أو الطبقية - تبرز الشبكات والنظم المتعددة التى يتبعها القاهريون لإدارة هذه المساحات. وعلى صعيد آخر، برهنت الدراسات الاقتصادية على أهمية الإنفاق المنزلى للطعام فيما يتعلق بمعدلات الفقر والدعم الغذائى، وأوضح بعض علماء الأنثروبولوجيا أن تجهيزات المطبخ تضطلع عادة بجزء لا يتجزأ من أى زواج (عبد الخالق جودة وكريمة كريم، إجراءات السياسة المالية فى مصر: الدين الداخلى والدعم الغذائى، ٢٠٠١؛ وهوما هودفار، بين الزواج والسوق. سياسات جوهرية والبقاء فى مصر، ١٩٩٧: ٨٦، ١٦٨).

غالباً ما تمثل تلك التجهيزات عبئاً مادياً على ميزانية المتزوجين حديثاً وتصبح محل تفاوض بين عائلتى العروسين. هناك مثلاً نظام لا خلاف عليه يحكم توزيع تجهيزات المطبخ تنهض أسرة العروس وفقاً له بأغلبية النفقات. بل إن الأسرة ميسورة الحال تبتاع خزائن المطبخ لمنزل ابنتهم (هوما هودفار، ١٩٩٧: ٦٨، ١٦٦ ــ ٦٨). وفى واحدة من المقابلات التى أجريتها مع سيدة من المقطم متزوجة حديثاً، أفضت إلى العروس أنه تبعاً للتقاليد، كان على أسرتها أن تزود الزوجين الشابين بالطعام المطهو والمكونات النيئة لمدة شهر من بداية زواجهما بغرض رفع العبء المادى لاستهلاك الطعام. وتماماً كما تأثر الفقراء بالعبء المادى للاستهلاك الغذائى، تأثرت الطبقتان المحدودة والمتوسطة تأثراً لا يستهان به بارتفاع أسعار الطعام وإلغاء الدعم الغذائى خلال السنوات الأخيرة. وعليه ضعفت قدرتهما على الاحتفاظ بمستواهما المعيشى (عبد الخالق وكريم ٢٠٠١: ٦٩-٧٨، ٨٧-٩١). وفيما تحاول الطبقة المتوسطة بلا انقطاع الحفاظ على أسلوب حياتها وطموحاتها للترقى بمستواها مقارنة بنموذج الطبقات العليا، تكافح بلا هوادة فى مواجهة ظروف اقتصادية صعبة لتجابه فى العادة نتائج تصيبها بإحباط لا حد له.

يظهر أحد جوانب هذا الصراع فى مذاق الطعام وأنماط استهلاكه. يوضح بوردو أن الممارسات الاجتماعية والثقافية ترتبط عادة بالطبقات المختلفة وتنتظم طبقاً لبنية التعارض. وعليه، فإن تنظيم المساحات الاجتماعية يشكل البنية ويغير أسلوب حياة المستهلك وثقافته. وبناء على هذه الفكرة، تحاول الطبقتان الفقيرة والمتوسطة بكل قوتهما تشكيل حيزهما الاجتماعى واستهلاكهما داخل بنية تتعارض مع الأطعمة المميزة لعامة الشعب. سيحاولان دائماً وأبداً بلوغ «مذاق الرفاهية» والابتعاد عن «مذاق الحاجة». ويشدد بورديو على أن مذاق الحاجة يتعارض تعارضاً حاداً مع مذاق الرفاهية، حيث يصبح الأخير مذاق من يتمتعون بالرفاهية المرافقة لرأس المال لينأوا بعدها بأنفسهم عن عالم الحاجة. هكذا يقبع مذاق الحاجة فى تعارض مع مذاق الرفاهية ليُعبر عن الحاجة الدائمة لتأمين الضروريات الأساسية. ويقول بورديو إن هذا يتجلى فى استهلاك الطعام حيث نجد الطعام الشعبى زهيد الثمن إنما مغذ بما يكفى لضمان القيام بنشاطات الطبقة العمالية بأقل تكلفة ممكنة (بوردو ١٩٧٩: ١٩٨، ١٩٦). ويفسر لنا هذا التناول النزوع النظامى للشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة إلى مذاق الطبقات العليا. فهى تحاول أن تبتعد اجتماعياً عن دنيا الحاجة ودنيا «الشعبى» كى تدنو من دنيا الرقى والتميز.

وفى هذا الإطار لم يسبق للدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية بحث العلاقة بين الاستهلاك الغذائى والممارسات الاجتماعية كما ينبغى. فأغلبية الدراسات التى أجريت عن أهمية الطعام فى مصر تدور فى المجمل حول المجال الاقتصادى وتتركز على موضوعات تتصل بالفقر ودخل الأسرة وإنفاقها. إن الأبحاث فى هذا الحقل لا تضع فى اعتبارها الأبعاد الثقافية التى تسمح لنا بفهم آلية التحول الاجتماعى وديناميكيته. فالدراسة الأنثروبولوجية والاجتماعية الحديثة الوحيدة - على حد علمى - التى تحاول ربط النظم الغذائية بالأبعاد الثقافية فى القاهرة هى المجلد الصادر عام ١٩٩٥، نظام التغذية الحضرى فى القاهرة (جورج جيرتيل، ١٩٩٥).

أما الدراسات الأخرى فتلقى الضوء على القضايا الغذائية والعادات الصحية والتغذية والأشكال الحديثة لاستهلاك الطعام الصحى. وفى هذه الكتابات، تغيب الجوانب السوسيولوجية والأنثروبولوجية للثقافة الغذائية عن السياق المصرى برغم أهميتها المتزايدة فى الدراسات التاريخية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية بوجه عام (فرانسوا أشر، الأكل المفرط فى الحداثة، ٢٠٠٥؛ جيمس واطسون، القناطر الذهبية شرقاً: ماكدونالد فى شرق آسيا، ١٩٩٧، Ariès 1997, Ferriéres 2002, Flandrin ٢٠٠٢). لذا يمكن الزعم أن ثمة ثغرات فى المعالجة النقدية لمجال الاستهلاك الغذائى والثقافة فى مصر.

بيد أن المفارقة تكمن هنا فى تصاعد اهتمام واضح، على الصعيدين

النص الكامل للمقالة ينشر أيضًا فى:
Cultural Dynamics in Contemporary Egypt
(متغيرات الثقافة فى مصر)
Cairo Papers in Social Seience, Volume, 27
The American University in Cairo Press

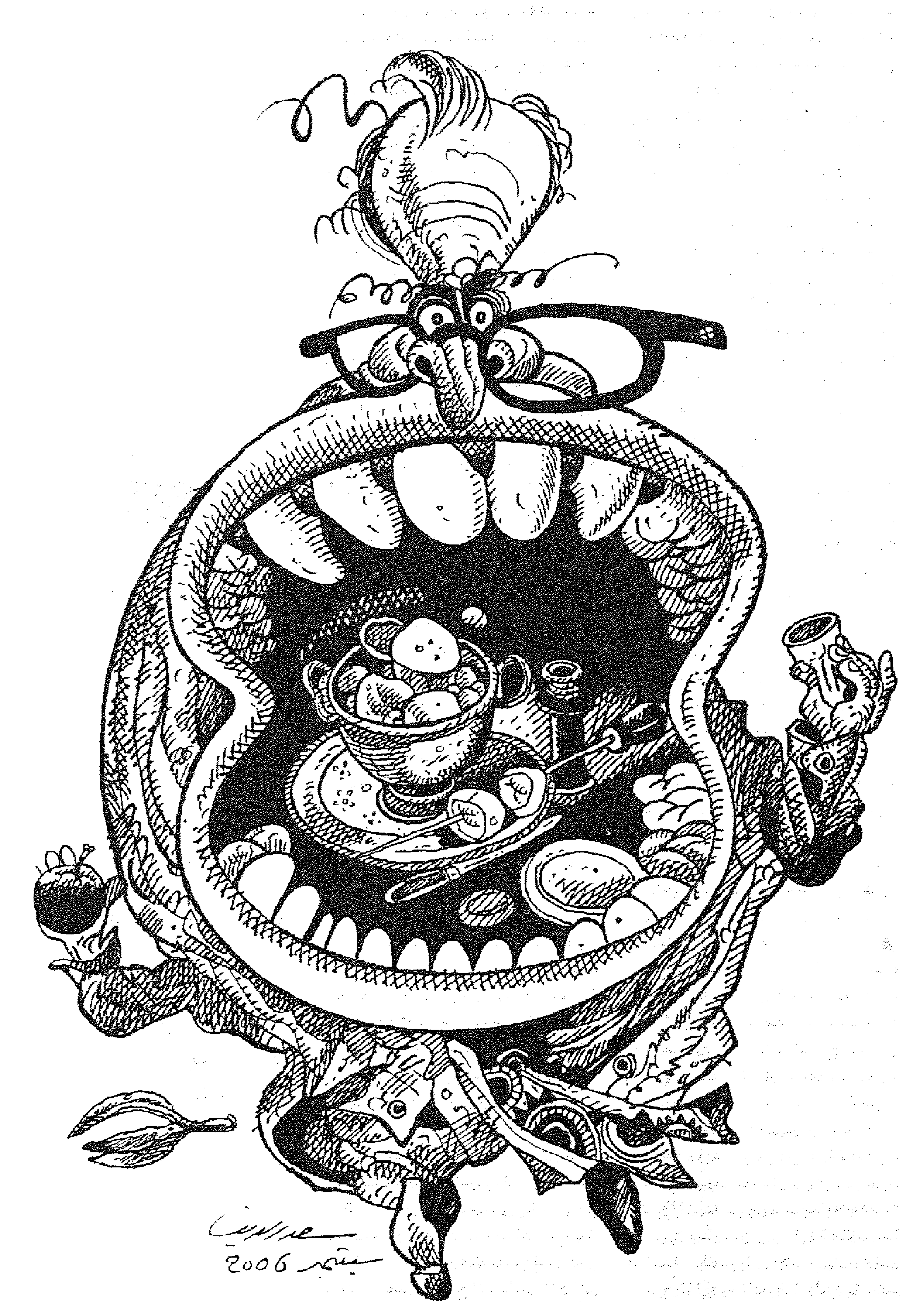
ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

الاجتماعى والجماهيرى، بنشر المعرفة والثقافة الغذائية وتعميمهما من خلال وسائل الإعلام والإنترنت ومختلف الشبكات الاجتماعية. فالطهاة المحترفون والصحافة ووسائل الإعلام وأسواق الطعام ومتاجر الأثاث والأجهزة الكهربائية جميعها تستثمر أموالها فى الترويج لمكونات الطعام الجديدة والوجبات الجاهزة ومفاهيم الطهى. ويتعين علينا معالجة هذا الاتجاه وتحليله والوقوف عليه فى سياق الاستهلاك العالمى واقتصاد السوق. كما أن القراءة التحليلية لهذا الواقع ستعاوننا على وصف التغيرات الاجتماعية والثقافية المعقدة التى تتداخل مع الديناميكيات المحلية والعالمية. وفى إطار العلاقات المتشابكة للديناميكيات العالمية والمحلية، يتعين النظر إلى المعرفة والثقافة الغذائية بوصفهما حاملتين للبُنى والصور والعلاقات الاجتماعية والثقافية. إذ غالباً ما تشير مثل هذه النوعية من المعرفة إلى بُنى الهوية والفوارق الطبقية. وعند هذا المستوى من التحليل تحديداً نستطيع القيام بتناول نقدى بهدف تعيين بضعة أبعاد للتغيير الاجتماعى والثقافى وما يتولد عن مثل هذا التحول من انقسامات داخل المجتمع المصرى.

لقد انتقلت المعرفة والثقافة الغذائية إلى اللغة العربية فى مصر من خلال التليفزيون ووسائل الإعلام المكتوبة والإنترنت وكتب الطهى. وبلغت هذه الوسائل المتباينة العديد من الفئات الاجتماعية المختلفة: المتعلمة والجاهلة، الغنية والفقيرة. وعلى الرغم من تنوع وسائل الانتشار المتاحة حالياً، تضمر هذه المعرفة ثقافة تستعصى على الأغلبية العظمى استهلاكها، إذ تلبث ملكية خاصة لأقلية ومطمحاً لطبقة متوسطة فى سبيلها إلى الحراك الاجتماعى صعوداً أو هبوطاً.

إن كل شكل من أشكال الانتشار يسرد قصة مختلفة - قصة تفد من الماضى أو الحاضر، قصة عما يعتبره الناس غذاء جيداً أو رديئاً، قصة عن الطريقة التى يجب أن يطهى بها الطعام ويؤكل. فأدوات انتقال تلك المعرفة تحدد معايير الطعام الجيد وكيفية تعامل الناس معه. إنها رسالة تطلعنا على كيفية تقديم أنفسنا على ضوء تلك المعرفة وكيفية تصوير «الآخرين» (أرجون أبادوراى، دراسات مقارنة فى المجتمع والتاريخ، ١٩٩٨: ٣، ٧).

سوف أبحث أولاً فى كتب طهى محددة وبرامج تليفزيونية عن الطهى تذاع باللغة العربية، برامج كتبها مصريون وقدموها خلال الأعوام الخمسة الأخيرة. وسيتبع ذلك نقاش حول العلاقة بين نماذج الطهى المقترحة.



«ثقافة الطعام» في مصر

وكلاء وفاعلون ومؤلفون

لقد نجم عن التوسع في تكنولوجيا النشر وزيادة أعداد القنوات التليفزيونية في السنوات الأخيرة تدفق حقيقي لمنشورات وبرامج ترتبط بالطعام والطهي. فقد أصدرت الكثير من البرامج التليفزيونية كتباً تصاحبها شرائط فيديو تبرز تقنيات الطهي الجديدة (منى عامر؛ وأسامة السيد). ومن بين معظم النصوص الموجودة يمكننا تعيين ثلاثة أنواع:

- النوع الأول يتمثل في كل المتأثرين بالثقافة الغربية/العالمية والمطلعين عليها.
- الثاني يغطي هؤلاء المؤمنين بأن معرفتهم وخبرتهم الخاصة في الطهي يجب نشرها ومشاركة أكبر عدد من المشاهدين والقراء فيها.
- يتضمن النوع الثالث الحاصلين (أغلبيتهم من النساء) على دبلومة في مجال الطهي من كلية الاقتصاد المنزلي.

لقد أنتجت النساء أغلبية الوثائق المجمعة - سواء كانت مكتوبة أو مسجلة أو تم تحميلها على الحاسبات الإلكترونية - باستثناء بضعة طهاة مهرة من أمثال أسامة السيد وإسماعيل هاشم، رئيس الطهاة بوزارة الخارجية. ويعتبر الاثنان من الطهاة المتخصصين بسبب مواقعهم المهنية المتميزة.

لقد اعتمدت اختياراتي للمواد على أن يكون المؤلفون مصريين وينشرون باللغة العربية ويوجهون خطابهم إلى الجمهور العربي. إن هذه المجموعة المختارة لا تمثل الطهي المصري تمثيلاً شاملاً بأية حال كما أنها ليست محاولة مني لنقد الاتجاهات العامة لأنماط الطهي الحديثة؛ إلا أنها محاولة لتقديم بضعة أمثلة ستعاون القارئ على فهم الصورة الاجتماعية والتمثيل الأيديولوجي وعملية بناء الهوية. ولا بد أن يلم القارئ بكل فئة من العوامل الموضحة أعلاه في سياقها الخاص.

الفئة الأولى: شخصية الطهي العالمية

صادفتُ اسم منى عامر أول مرة في مقالة نشرها مكتب الشئون الزراعية عام ٢٠٠١ بالسفارة الأمريكية في القاهرة وأنا أتابع دراسة عن السلع الغذائية المستوردة من الولايات المتحدة (منال المصري، «طهاة مصريون يروجون الصادرات الأمريكية»، ٢٠٠١). عرض التقرير وصفاً مفصلاً لما تنفقه الولايات المتحدة من جهود للترويج لمنتجات الطعام الأمريكية المصدرة إلى مصر. وكجزء من مجهوداتها، أطلقت السفارة الأمريكية في القاهرة مسابقة بعنوان «مهرجان الطعام الأمريكي العظيم» استضافه فندق خمسة نجوم بغرض جذب رؤساء الطهاة المصريين والمستوردين المصريين الأساسيين. وقد قدّم هذا الحدث الترويجي حوالي تسعة عشر منتجاً وتضمن مسابقة تنافس فيها أربعون طاهياً مصرياً لابتكار أفضل وصفة تتكون من ٩٠٪ على الأقل من منتجات أمريكية مستوردة. وقد ترتب على هذه المسابقة كتاب عن الطهي باللغتين العربية والإنجليزية، أول كتاب للوصفات الأمريكية، وقد تم توزيع هذا الكتاب على الفنادق ذوات الخمسة نجوم والمتاجر الكبرى. وطبقاً لمنال المصري «إن تأليف (كتاب) عن الطهي - مع التركيز على مكونات الطعام الأمريكية - من شأنه أن يدعم الواردات المصرية مستقبلاً» (المصري ٢٠٠١: ٨) كانت منى عامر أول فائزة عام ٢٠٠٠، وقد صرحت في أحد اللقاءات أن «استخدام المكونات الأمريكية أمام الجمهور يعطي انطباعاً رائعاً»، وأردفت قائلة:

لطالما استعملتُ المكونات الأمريكية في طبخي لأنني أنال مذاقاً أفضل والوجبة تجهز سريعاً... أستخدم دقيق القمح الأمريكي والصلصة وما أزين به الحلوى... إن المستهلكين المصريين يصعب إقناعهم لذا يتوجب على الشركات الأمريكية بذل المزيد من المواد الدعائية والترويجية (اقتباس من منال المصري، ٢٠٠١: ٨).

لا تنفك عامر تروج منتجات الطعام الأمريكية عبر حملات دعائية تستهلها سفارة الولايات المتحدة بالقاهرة. وقد أقيمت آخر حملة في يناير ٢٠٠٤ بغرض زيادة «... وعي المستهلك بتوافر المنتجات الأمريكية وجودتها». وقد انطلقت هذه الحملة في المتاجر الكبرى حيث تتسوق بانتظام الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة. ومن خلال عروض حية للطهي بمتجري ألفا وشوبرايت، طورت عامر ثمانية عشر طبقاً أثناء حملة استغرقت أربعة أشهر كما روجت قوائم طعام مختلفة بكل متجر من المتاجر.

يجب الإشارة إلى أن مجهودات الحكومة الأمريكية للترويج لمنتجات الطعام الأمريكية بالسوق المصري جاءت نتيجة لنقص حصة المنتجات الزراعية والغذائية الأمريكية بالسوق المصري من ٥٠.٥ مليون دولار عام ٢٠٠١ إلى ٤٧ مليون دولار عام ٢٠٠٢. ويرجع هذا النقص إلى اتفاق وقعته الحكومة المصرية وخمس عشرة دولة من أعضاء الاتحاد الأوروبي يقضي بتقليص تعريفة الواردات على معظم المنتجات خلال ١٢-١٥ عاماً مقبلة. وعلاوة على ذلك، أفضى الوضع السياسي الحالي بالشرق الأوسط وتخفيض قيمة الجنيه المصري إلى انخفاض يعادل ٣٠٪ من المبيعات (منال المصري وعلى عبدي، «دليل الصادرات المصرية»، ٢٠٠٣: ٢ - ٣). ومع الوضع في الاعتبار هذه الأرقام وما يوشي به المقال من نبرة قلقة، تم اتخاذ عدد من التدابير للإعلان عن المنتجات الغذائية الأمريكية وترويجها عن طريق وكلاء كمنى عامر وغيرها.

وقد عرفتُ عن طريق المعلومات الصحفية المتاحة لدى أن منى عامر عاشت لبضع سنوات في أمريكا الشمالية حيث تعرفت على الثقافة الأمريكية وتلقت دورة في الطهي (شاهيناز العقباوي، «أنا خارج المنافسة»، «الأهرام العربي، ٢٠٠٤») تعرض عامر في برنامجها «صحي ومفيد» على القناة الأولى بالتليفزيون المصري وصفات وافدة من دول متباينة كالمكسيك وجامايكا. يجدها المشاهدون في أكثرية الأحيان غريبة وعصرية، فهي تقدم مقاربات مبتكرة للطهي من خلال مزج وصفات مختلفة لإخراج طعوم متباينة (العقباوي، ٢٠٠٤)، وجمهورها، سواء كان قارئاً أو مشاهداً، يستطلع عوالم لم يعهدها من المكونات التي تكون أحياناً متوافرة محلياً إلا أن هذه العروض الجديدة تكسبها قدراً من الاعتراف بها. فقد أعادت عامر على سبيل المثال تقديم حبوب السمسم المستخدمة في السميط إلى الطبقة المتوسطة عن طريق مجموعة من الأطباق الصينية. وعليه لم تعد تلك الحبوب مجرد مكون من مكونات خبز السميط أو المعجنات الشرقية إنما خضعت لعملية إعادة تعريف في إطار قائمة الطعام الصينية وصورتها الاجتماعية. لقد أحرزت هذه المكونات مغزى جديداً بمجرد أن تم تقديمها واستخدامها في سياق ثقافي جديد.

وبالإضافة إلى نشاطاتها الإعلامية، افتتحت عامر مطعماً يدعى «فاين تاتش» في حي المعادي السكني بضواحي القاهرة حيث يقطن العديد من الأجانب والمصريين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة. وسواء أفردت لها الصحافة صفحات الإعجاب أو النقد ودار حولها الجدل، لا مراء أن عامر قد قدمت اتجاهات جديدة إلى الثقافة الغذائية حتى إن بعض الصحفيين ادعوا أنها أحدثت ثورة في عادات المطبخ المصري (إنجي الكاشف، «ابتكر، لا تقلد»، الأهرام ويكلي ٢٠٠٠؛ العقباوي، ٢٠٠٤). غير أن ثمة صحفيين آخرين يزعمون أن برنامجها المعروض في أوقات الذروة بالتليفزيون المصري يؤدي إلى عزل أكثرية المشاهدين وتهميشهم، المشاهدين الذين لا ينتسبون إلى طبقة متوسطة صاعدة تطمح إلى الاستيلاء على الرموز الثقافية للطبقات العليا. وقد أردفوا أن منى عامر تحاول إعادة صياغة المفاهيم القائمة بين الطعام والآكلين وكذا إعادة تشكيلها في سياق الاقتصاد العالمي.

في إحدى المقالات التي انتقدت عامر وسخرت منها، اقترح أحد المؤلفين تحويل الطابق الأول من مبنى

نجم عن التوسع في تكنولوجيا النشر وزيادة أعداد القنوات التليفزيونية في السنوات الأخيرة تدفق حقيقي لمنشورات وبرامج ترتبط بالطعام والطهي

التليفزيون المصرى إلى معرض دائم «للأطباق التقليدية» التى تقدمها عامر ببرامج التليفزيون. واقترح أن يُخرج هذا المعرض للجمهور كل الأطباق التى صنفتها عامر باعتبارها «طعوماً شائعة»، مثل «كريسبى تشيكين»، و«الاستيك دو بوافر» و«التشيكين آلا جريك» و«التشيزى ديب ستيكص وذلك كى يتفرج عليها الناس ويتذوقوها. كما يقترح أيضاً أن يكون دخول المعرض مجانياً وأن تؤخذ صور الزوار بجانب الأطباق حتى يتذكروا هذا الحدث. (محمد على إبراهيم، «وجبات التليفزيون»، حريتى، ٢٠٠٤: ٢٠). ووسط تلك الانتقادات، يمكن القول إن ظهور منى عامر المكثف قد ألهب الجدل حول ما إذا كانت عامل ابتكار وحداثة أم اغتراب وتهميش.

وفى سياق مشابه آت من أحد مطابخ شمال أمريكا، يقدم أسامة السيد على نحو منتظم برنامج «بالهنا والشفا» على القناة الأولى المصرية وقنوات فضائية أخرى. ويصاحب البرنامج كتاب متقن التأليف يحمل نفس العنوان صدر باللغة العربية فى الولايات المتحدة ويوزع بالقاهرة. ويطل الشيف أسامة، كما يشار إليه فى العادة، على المشاهدين فى وسائل الإعلام بقدر مساو لعامر بيد أنه أكثر حضوراً على الإنترنت من خلال موقعه ومشاركاته فى العديد من مواقع الطعام بالشرق الأوسط. عاش الشيف أسامة بالولايات المتحدة منذ أوائل العقد التاسع من القرن العشرين. وهو يقدم نفسه بوصفه متخصصاً فى مطبخ حوض البحر المتوسط وأخصائى تغذية حائزاً على دبلومة من جامعة كورنيل (أسامة السيد، بالهنا والشفا، ٢٠٠١: ٦-٧). كما يعمل مستشاراً لعدد من المواقع الإلكترونية العربية والمصرية المتخصصة فى وصفات الطعام مثل www.wasfasahla.com و www.chefosama.com حيث تتحادث النساء من دول مختلفة من العالم العربى ويتناقشن ويتجادلن فى موضوعات تتعلق بالطهى. إذ يجدن فى هذه المواقع فسحة حقيقية للاطلاع على فتاوى عمرو خالد الدينية ووصفات الشيف أسامة ونصائح الطهى ومنتجات التجميل. ويستخدمن الموقع لتبادل الأفكار حول أية موضوعات تطرأ لعقولهن. وكما هو حال عمرو خالد فى دنيا التقوى، بات السيد حجة معترفاً بها فى مسائل الطهى بالعالم العربى.

يمنحنا حسين الإمام مقاربة تختلف عن مقاربات الآخرين. فهو - الممثل والمذيع ببرنامج رمضانى والابن لمخرج ذائع الصيت ألا وهو حسن الإمام - يقدم على شبكة الأوربت برنامجاً يومياً عن الطهى بعنوان «القاهرة اليوم».

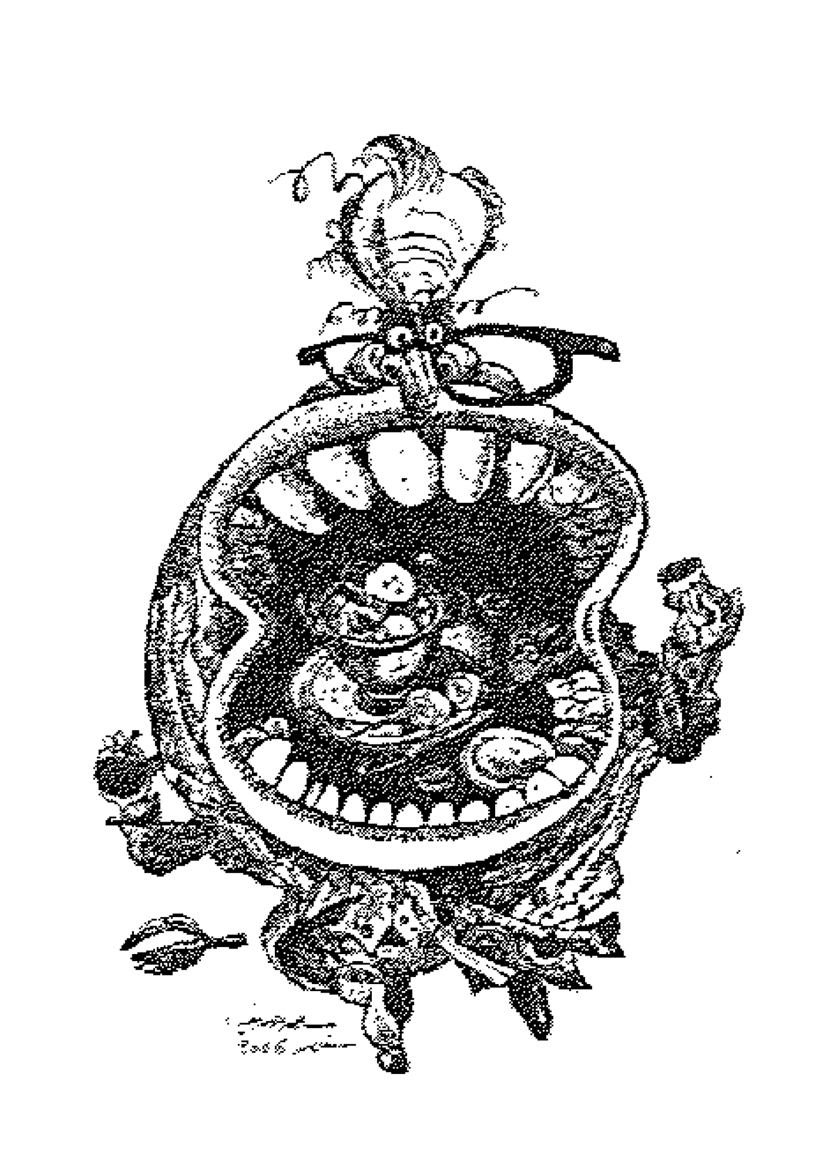
إن الإمام يتمتع بموهبة الممثل وإبداع المتذوق الخبير، وهو لا يدعى الإلمام بأية كفاءة فى الطبخ عدا ما ينعم به من موهبة بحاستى الشم والتذوق. فهو مثال بارع للمتذوق الجيد وممثل يجلب المتعة للمشاهدين بأدائه. يقدم الإمام برنامجه وسط مطبخ بالغ العصرية معد بكل التجهيزات الممكنة حيث يقوم بدور الطاهى وفى نفس الوقت يستضيف الضيوف. يبدى شيئاً من الحرية فى أساليب طهيه ويلوح وكأنه يرتجل بدون تقيد بالوصفات.

وفى هذا الجو استضاف الإمام منذ عدة أعوام عماد أديب فى برنامجه. راح الإمام يطبخ طبق فتة فى بيئة تشيع فيها الراحة، ويتجاذب فى استرخاء أطراف النقاش حول متع الطعام. إن جسمى أديب والإمام لا يتناغمان مع المعايير المثالية للنموذج الصحى؛ فهما - فى الخمسين من العمر - زائدا الوزن وقد تراءت عليهما ملامح الاستمتاع الشديد عند أكل الفتة. ومن ثم يقفان فى وضعية تتعارض مع صورة مذاق الرفاهية على حد قول بوردو. فتلك الصورة تحتقر البدانة والمكونات الدسمة وكميات الطعام الضخمة. أما الاعتدال والنحافة والمظهر الصحى وكميات الطعام المقننة والطعم الراقى الفخم فهى فى العادة علامات لمذاق الرفاهية (بورديو، ١٩٧٩: ١٩٩).

لقد نقل كل من الضيف والمذيع مزيجاً من المذاق الشعبى ومذاق الرفاهية، الأمر الذى انعكس على ملابسهما ولغة جسميهما وحديثهما عن الطعام. بعد الشكل المعتاد للبرنامج، ينتقى الضيف الوصفات - وهو فى هذه الحالة هاو للفتة بكل أشكالها - ثم يساهم المشاهدون من البلاد العربية المختلفة فى مناقشة تحتدم بين الإمام وضيفه حول قضايا تتعلق بالسياسة والاقتصاد والرياضة وثقافة الشباب. وفيما تقع تلك الأحاديث، ينهمك الإمام فى الطهى، وعند نهاية البرنامج، يتناول المذيع والضيف الوجبة معاً. هكذا يصبح حيز المطبخ حيزاً للمرح والاختلاط الاجتماعى ويصير الطهى نشاطاً بسيطاً يحكمه المذاق الطيب ولا يخضع للتعقيدات والقواعد الصحية والتقنيات. إن السياق الاجتماعى والوصفات تقدمان بطرق تتوافق مع المذاق الثقافى للجمهور بينما يتحلى الموقع بجماليات دولية عالية.

يشترك عامر والشيف أسامة والإمام فى صفات واحدة: اتصالهم بوسائل الإعلام والشخصية العصرية وتعرضهم لتأثيرات الثقافة الغربية. الأولان يروجان نموذجاً عصرياً تسوده التكنولوجيا والقواعد الصحية والطعوم الغربية بينما يشدد الثالث على متع التذوق والتسلية الاجتماعية المرافقة للطهى والأكل.

«ثقافة الطعام» فى مصر





فيما تحاول الطبقة المتوسطة بلا انقطاع الحفاظ على أسلوب حياتها وطموحاتها للترقى بمستواها، تكافح بلا هوادة فى مواجهة ظروف اقتصادية صعبة

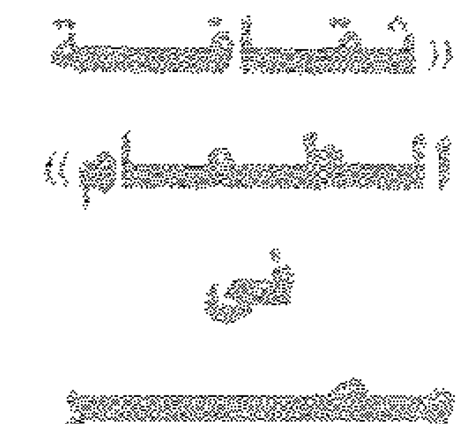
الفئة الثانية: التقليد والحداثة

لا يمكن فى أى حديث عن المطبخ المصرى تجاهل ماجدة المهداوى. كانت قد أصدرت كتاباً، مطبخ جدتى أكلات مصرية، حلو وحاذق، يحوى تصاميم ملونة وصورة للمؤلفة تتصدر الصفحة الثانية منه ومقدمة طويلة عن مشروعها وآرائها. ولدت المهداوى فى الإسكندرية وتربت بها وقد قررت جمع وصفات ما تسميه المطبخ المصرى «التقليدى» من السيدات العجائز وكتب الطهى القديمة. فجمعت وصفات قديمة وأعادت تأليفها قبل أن تختفى من ذاكرة المجتمع الجمعية. غير أنها لا تفسر لنا ما هو المقصود بالمطبخ «التقليدى» ولا تعرفه. تحاول المهداوى بعدها تحسين الوصفات التقليدية حتى تتكيف مع المعايير الحديثة للنظافة والصحة. للمهداوى خلفية فى علم المصريات وهى تعلن أن هدفها هو جمع وصفات المطبخ المصرى القديم الأصيل وحفظها، الوصفات المشتقة بالأساس من الأطباق المصرية القديمة. (ماجدة المهداوى، مطبخ جدتى، أكلات مصرية، حلو وحاذق ٢٠٠٣: ٦-٧). ففرضها هو تحديث الوصفات القديمة دون إحداث تغيير فى أصالة الطبق. وترى المهداوى أن تحديث الطهى يشمل تخفيض كمية الدهون وتبسيط خطوات التجهيز والارتقاء بشكل الطبق فيما يتعلق بألوانه وأسلوب تقديمه (المهداوى، ٢٠٠٤).

إن العاملين فى هذه الفئة يتولاهم القلق من اختفاء الثقافة والأصالة المحلية فى مواجهة ثقافة غربية عالمية تغزو المطبخ المصرى ويتملكهم إحساس قوى بالقومية والحنين إلى الماضى.

الفئة الثالثة: المقاربة العلمية

معظم من تشملهم هذه الفئة مؤلفون يدعون أنهم يخاطبون بخلفيتهم العلمية جمهوراً أوسع فى إطار مقاربة عصرية تستند إلى «الثقافة التقليدية». تباع كتبهم عادة بأسعار زهيدة وهى فى متناول أيدى القراء بمعظم المحافظات المصرية. وتصدر بعض هذه الكتب كمراجع «أكاديمية» لطلبة كليات الاقتصاد المنزلى بينما يستعين آخرون بشركات غذائية محلية كالمخابز وشركات تصنيع الحلويات لتمويل نشر كتبهم. يعمل العديد من المؤلفين أعضاء بهيئة التدريس فى كليات الاقتصاد المنزلى ويعدون هذه الكتب ككتب دراسية للطلبة. يصعب علينا هنا تحديد مجال توزيع تلك الكتب أو مبيعاتها إلا أنه من غير المحتمل أن تضارع



مبيعات هؤلاء المؤلفين مبيعات مؤلفين من الفئة الأولى كمنى عامر وأسامة السيد الذين هم فى النهاية نجوم إعلاميون.

إلا أن هذه المقارنة لا تجدى نفعاً بالغاً فى المجمل بما إن الكتب وبرامج التليفزيون والمواقع الإلكترونية تعكس نزعات مختلفة وتوجه لجماهير متباينة كما تبعث برسائل مختلفة. فى الصفحات القادمة، لن أسبر بالتفصيل سوى الفئتين الأوليين وذلك لأنهما وثيقتا الصلة بالنقاش الحالى ألا وهو تحول الثقافة الغذائية فى مصر.



برامج وكتب ومواقع إلكترونية

أقدم فى هذا المجال أعمال أربعة مؤلفين/فاعلين كعوامل تؤثر فى تطور الطهى بين الطبقات الموسرة. إن عامر والسيد والإمام والمهداوى ممثلون للمذهب الحديث الذى يقول بتقديم ممارسات مبتكرة ورموز جديدة إلى المبادئ الثقافية للطبقة المتوسطة والشريحة العليا منها. فهم يوجهون خطابهم فى الأغلب إلى المجموعات الاجتماعية الغنية بغرض تبديل المعرفة والممارسات التقليدية للطهى والتقديم والأكل. الحق أنهم يحاولون خلق نموذج معين للتفوق الثقافى والاجتماعى، نموذج يميز بين جمهورهم وقرائهم وبين العامة أو بين ممارسات يحسبونها غير مناسبة أو عتيقة أو ضارة بالصحة. إن مقاربتهم مقاربة إصلاحية تتلون بملامح عصرية.

يتبين لنا بعد القراءة الدقيقة لأغلبية كتب الطهى أو المواقع الإلكترونية أن إشارات دينية طويلة - آيات قرآنية وأحاديث شريفة تلائم مقتضى الحال - لا بد أن تتصدر النصوص. إلا أن النصوص المنتقاة هنا قد قلصت هذه الإشارات أو على الأقل غدت تستعملها باعتدال (بيتر هاينه، «إحياء الطهى التقليدى بكتب الطهى العربية الحديثة»، مذاق الزعتر: ثقافة الطهى بالشرق الأوسط، ١٤٥:١٩٩٤). إذ تم استبدال أغلب تلك الإشارات إلى الدين ونواميسه بالمعنى الحرفى للكلمة بخطاب قوى اللهجة يتمحور حول التحديث وإن انسجم مع المبادئ الدينية الإسلامية. وهذا الضرب من الخطابات يضع فى الحسبان الحساسيات والثقافة الدينية للطبقة المتوسطة المصرية. الواقع أن الطبقة المتوسطة ازدادت فى الحجم وشهدت تقلبات ثقافية واقتصادية وسياسية مهمة منذ اندماجها مع اقتصاد البترول إبان هجرة الأيدى العاملة وسياسة الانفتاح خلال العقد الثامن من القرن العشرين وما تلاه (جلال أمين، مصر تحت حكم مبارك، ١٩٨٩: ١٠٥). فاتصال الطبقة



مذاق الحاجة يتعارض تعارضاً حاداً مع مذاق الرفاهية، حيث يصبح الأخير مذاق من يتمتعون بالرفاهية المرافقة لرأس المال لينأوا بعدها بأنفسهم عن عالم الحاجة



المتوسطة بثقافات الخليج العربى حث العديد من مؤلفى كتب الطهى على تقديم وصفات من أجزاء مختلفة من الشرق العربى من أبرزها دول الخليج وفلسطين ولبنان. وتقديم المصريين لهذه الوصفات بكتب الطهى العربية يدل على نشأة تبادل ثقافى بين مناطق معينة من العالم العربى، تبادل نتج عن الهجرة والاتصالات المختلفة بين المهاجرين العرب بأمريكا الشمالية وجنوبها وأوروبا. ويتجلى هذا البعد واضحاً فى وصفات الإنترنت والدردشة الإلكترونية.

لقد صارت الصفة العلمية للطهى والتقديم والحفظ والأكل مذهباً تتقيد به ثقافة يشترك فيها إخصائى التغذية كما يتضح لنا من خلال تلك الكتب الثلاثة مطبخ جدتى وأطباق صحية وشهية وبالهنا والشفا. فقط الإمام يشذ ببراعة عن هذا الإطار الفكرى ليظل الوحيد (هو وضيفه أديب) الذى يطرى على متعة الطعام. فبينما يجهز طبق الفتة فى البرنامج السابق ذكره، جاهر أديب بأنه يعتقد أن الأكل فى النهاية متعة: «إن الأكل ليس أن يحشو المرء معدته أو فمه كما اعتدنا نحن المصريون. الأكل هو الخطيئة الوحيدة التى لا ترمى بنا فى النار... هل سبق لك أن رأيتَ متذوقاً للطعام يدخل النار؟» ووصف الطعام بأنه «الخطيئة الحلال» (القاهرة اليوم، مارس ٢٠٠٤). وبرغم اعتراف الإمام بأهمية تقليل الدهن فى الطهى مراعاة للمقتضيات الصحية إلا أنه يستخدم السمن أكثر من الآخرين بحجة أنه لا يمكن إعداد طبق شهى بدون جرعة مناسبة من السمن الحيوانى. وهكذا يستخدم السمن فى تحضير الفتة بتشجيع من ضيفه وإن كانت نبرات صوته تنم عن الاعتذار.

فى معظم البرامج التى تقدمها عامر والسيد، تتسم علاقتهما بالمشاهدين بالبعد والتجرد و«الموضوعية» الكاملة. فهما يميلان إلى إبراز ملامح الكفاءة والاحترافية والمبادئ الصحية الحديثة والثقافة الغذائية. تعرض عامر مثلاً وصفات متباينة من مجموعات عرقية ومناطق مختلفة لكنها تنبه القارئ أن تلك الوصفات فى طريقها إلى أن يحللها معهد علمى شهير للتغذية. وهى تقترح مقاربة لا تسيطر عليها اللحوم والدجاج. إذ تبذل جهداً جاداً لكسر العادات التقليدية المفضلة للحم/الدجاج والخضروات بالدمعة التى تطبخ بالبصل وصلصة الطماطم ويصاحبها الأرز. إن هذا الطبق مثال للنمط التقليدى العتيق لطهى يعكس المذاق الشعبى. وهناك أيضاً محاولة واضحة للابتعاد عن مذاق الحاجة. لقد انتقت عامر عدد الوصفات المحلية من مجموع أطباقها بغرض تحويل مذاق الطعام المصرى عن طريقة الأكل التقليدية القديمة. فهى لا تأتى على ذكر أطباق الفول أو العدس، ولا البصارة أو الفتة. وسواء كانت وصفاتها فرنسية أو إيطالية أو مكسيكية أو هندية أو تايلاندية، فمعظمها تنبع من مناطق جغرافية بعيدة جالبة معها مكونات وتوابل وأدوات جديدة تباع فى متاجر محددة. وبمقدور المرء التعرف على أطباق مغربية معينة لاستخدامها الكسكسى وأطباق سعودية وكويتية لاستخدامها أسماء معينة كالجريش. وتعتمد الوصفتان على الأرز واللحم وبهارات معينة واللبن الرائب.

تصف عامر بكلمات موجزة فى برنامجها التليفزيونى الأصل الجغرافى للوصفات المختارة بينما تعترف بأنها أضافت لمستها الخاصة وجددت الوصفة الأصلية كى تتوافق مع مقاييس الصحة العالمية. ويكمن تجديدها المعتاد فى استخدام زيت الزيتون بكل الوصفات سواء كانت صينية أو مكسيكية أو سعودية. وينبغى أن ننوه بأن هذا التجديد، سواء كان ملائماً للوصفات من عدمه، لا تقدر عليه سوى الفئات الموسرة نظراً لثمن زيت الزيتون الباهظ فى مصر.

لا يختلف السيد فى معالجاته للطهى عن عامر خلا أنه يتوجه بخطابه أكثر نحو العرب المهاجرين إلى الولايات المتحدة وكندا. فهو يختار جمهوره من المهاجرين إلى الدول الخليجية أو أولئك الذين بطريقة أو بأخرى عاشوا بالدول العربية الغنية بالبترول أو الولايات المتحدة أو أوروبا ثم رجعوا بعدها إلى بلدهم الأصلية، ولا سيما مواطنيه المصريين. وعلى عكس وصفات عامر، تتميز وصفات السيد بغناها باللحوم وتعقيدها، إذ تتألف من تشكيلة من الأطباق الصغيرة المنفصلة التى تجتمع بعدها فى طبق تقديم واحد. تحوى واحدة من وصفاته على سبيل المثال حملاً ينقع فى المرق ثم يشوى بعد أن يحشى بالتوابل ويغطى بالفريك ثم تضاف إليه كرات من اللحم المفروم غارقة فى صلصة الطماطم (داود باشا). يقدم المزيج فى طبق كبير تزينه حبات العنب والخوخ والمشمش لتضفى ألواناً زاهية وتجمل طبقاً مزيناً بالفعل. وسواء عدل السيد هذه الوصفة أو نسخها من وصفة أخرى قائمة، فهو طبق يرضى ذوقاً يقدر اللحم (ويستطيع شراءه) بأشكاله المتعددة ويستمتع بعرض كميات كبيرة فوق المائدة. إنه تباه لا تخطئه الأعين ببحبوحة ووفرة لا يقدر عليها سوى قلة من الناس.

إن تأثير مذاق يغلب عليه التعقيد كالمذكور أعلاه يسيطر على تقديم الأطباق الغنية باللحوم والتوابل والأرز

والفريك والكسكسى والسمن. إذ تخيم الوفرة والألوان المتعددة على أصناف مقدمة فى أطباق ضخمة. من الواضح أن السيد يخاطب جمهوراً مسلحاً بمعدات عصرية بالمطبخ ويمكنه توفير المنتجات المختارة و/أو معاونة من الخدم.

وعلى عكس السيد وعامر، تحاول المهداوى تعريف ما تسميه المطبخ المصرى الأصيل منذ عصر القدماء المصريين. فالطعام التقليدى والأصيل كما تراه هو الطعام الذى لا يزال المصريون يتناولونه منذ القدم كأنواع معينة من الخضروات والحبوب واللحوم. ويشمل هذا أكلات تقليدية فى مصر مثل الفول بالزيت؛ الملوخية المطبوخة مع لحم الضأن فى المرق، ويضاف إليها الثوم المقلى والكزبرة الجافة والحمص؛ ممبار؛ الفسيخ وهو سمك بورى يخلل فى الملح. وتعتبر المهداوى أن هذه مكونات صحية وطبيعية ولذيذة لأنها قديمة وعليه تكون أصيلة. ثمة نبرة يخالها حنين غامر تطغى على خطاب المهداوى ووصفها للمطبخ المصرى. إذ يتولاها اشتياق إلى العادات القديمة عندما كانت النساء يمضين الساعات الطوال لطهى وجبات طبيعية شهية. وفى اعتقاد المهداوى أن المجتمع المصرى يفقد تقاليده من جراء تحديث أسلوب المعيشة وغزو المنتجات الصناعية والطعوم والألوان الصناعية وأن إحياء هذا المطبخ يجب أن يتم من خلال استخدام كمية أقل من السمن وتحسين طريقة تقديمه على مائدة العشاء.

ومن بين الثلاثة، تنفرد المهداوى بالعمل مع وصفات تعرفها أغلبية السكان. إلا أن ميزتها ليست مستمدة من حنينها ولا من نزعتها القومية إنما من مجهودها فى جمع وصفات على حافة الانقراض من أجزاء مختلفة من مصر. هناك أيضاً محاولتها للتذكير بنشاط إنسانى طالما غفل عنه الناس ألا وهو الطهى والأكل. لا مراء أن إسهام المهداوى يشمل إعادة تكامل أطباق عديدة تمثل المذاق الشعبى، أطباق لم تعد وجيهة بما يكفى بالنسبة لقوائم الطعام «الراقية». وتتضمن تلك الأطباق الشكشوكة (تطبخ الطماطم والفلفل الأخضر فى صلصة طماطم ثم تغطى ببيض مقلى)؛ كبد إسكندرانى (يقلى الكبد مع الفلفل الأخضر والطماطم والثوم ويتبل بالبهارات الحريفة)؛ والمش (تحفظ بقايا الجبن ومنتجات الألبان فى قدر فخارى ويحكم إغلاقه لتختمر محتوياته لمدة عام ثم تقدم مع الطماطم والزيت والفلفل الأحمر). إن هذه الوصفات لا تحتل مكاناً بمائدة الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة المصرية ما لم تؤكل كوجبات عجيبة استثنائية.

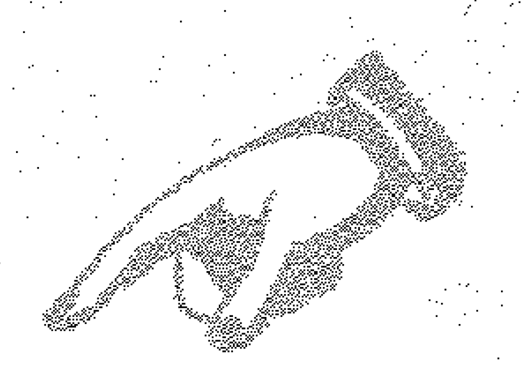
إن المؤلفين الأولين لا يقدمان وصفات تقترح بأية حال إعادة تدوير بقايا الطعام إنما توحى ضمناً بغزارة المكونات وسهولة ارتياد شتى المتاجر حيث تباع خيرة المكونات العالمية والمحلية. من الواضح أيضاً أن معظم الوصفات لا تتوجه بالحوار إلى الميزانيات الهزيلة أو الأذواق المحلية. على النقيض، تخاطب عامر جمهوراً/قارئاً على استعداد لأن يباشر رحلة إلى المذاق الطيب القادم من أجزاء مختلفة من العالم ويغامر بتجربة أساليب جديدة للأكل. على الجانب الآخر، تتحدث المهداوى إلى من نسوا «ثقافتهم المحلية» أو فقدوها ومن يساورهم الحنين إلى «المذاق المحلى». يمكن للمرء أن يخمن أن قراءها (كما ترنو هى إليهم) قد نأوا بأنفسهم عن «الثقافة الشعبية التقليدية» أو لم يكونوا جزءاً منها قط، ومن ثم يحاولون من آن لآخر تذوق الأطباق «المحلية التقليدية». أما السيد فيقدم وصفاته للبيئات الثرية بالدول العربية ولا سيما المغرب ومصر والأردن والسعودية والدول الخليجية، إذ يتيح لهم وصفات وافرة غنية عمادها اللحوم عدلها طاهيها لإنتاج مزيج معقد من الأطباق المتعددة.




تنزع الاتجاهات الجديدة فى الاستهلاك الغذائى - فى أجواء التحول الثقافى بالمجتمع المصرى - إلى تبنى معايير الفئات الغنية فى ظل نشر وسائل الإعلام والصحافة لها. هكذا تحدد الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة تدريجياً مقاييس المذاق والتمثيل الغذائى وفقاً لقواعد الحداثة والصحة.

إن هذا البحث ليس المقصود منه الدعوة إلى الرجوع إلى العلاقات الطبقية التقليدية أو النماذج التقليدية لعرض الطعام، ولا يبغى الترويج إلى فكرة البحث عن هوية قومية من خلال الثقافة الغذائية. كل ما هنالك هو أنه يقترح أن النزعات الجديدة فى الطهى تعزز التفاوت الاجتماعى عن طريق الفوارق الطبقية والانسلاخ عن المجتمع. المفارقة هنا أن هذه الاتجاهات تزعم أنها تروج مذاقاً جديداً يندرج تحت مقتضيات الحداثة والصحة والجمال وذلك عبر إدماج مساحات اجتماعية جديدة تشترك فيها فئات اجتماعية مختلفة. بيد أن هذا المفهوم قد ينشأ بمجتمعات تتقلص فيها الاختلافات الطبقية تقلصاً ملموساً. أما بالنسبة للفئات المحرومة بالبيئة القاهرية - وهى الأغلبية - تفاقم هذه الاتجاهات إحساسهم بالإحباط وفى الوقت ذاته تعمل على تقوية شعور الأقلية بالتميز وتنميته. ■

كتاب الزاوية



فى العطف على اليتيم

أريج البستان

١ ـ ألق ظلك على رأس اليتيم الذى مات أبوه، وانفض غباره وانزع شوكته.

٢ ـ لا تدرى ماذا حدث له، إنه بائس جداً، وهل تكون الشجرة بلا جذر ناضرة أبداً؟

٣ ـ لا عجب أن يكون ذابلاً وأسود البخت. لأن الشجرة لا تكون ناضرة بدون جذر.

٤ ـ حين ترى يتيماً مطرق الرأس، لا تقبل وجه ولدك.

٥ ـ اليتيم إذا بكى، من يدلله؟ وإذا غضب، من يتحمله؟

٦ ـ ألا، حذار أن يبكى! فإن العرش العظيم، يرتج حين يبكى اليتيم.

٧ ـ امسح الدمع من عينيه برحمة، وانفض التراب عن وجهه بشفقة.


٨ ـ إذا انحسر ظل «أبيه» عن رأسه، فربِّه أنت فى ظلك.

٩ ـ لقد كان رأسى متوجًا، حين كان رأسى فى حضن أبى.

١٠ ـ كانت إذا حطت على جسمى ذبابة، كان يضطرب خاطر عدة أشخاص.

١١ ـ والآن إذا أخذنى الأعداء أسيرًا، لا يكون أحد من أصدقائى نصيراً.

١٢ ـ لى خبرة ودراية بألم الأطفال، لأن أبى رحل عن رأسى فى طفولتى.



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي ا
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

تفكيك

هشام السلاموني



مثلما يصح . أولاً . أن نقول إن الإنسان حيوان ناطق، ويصح . ثانياً . أن نقول إن الإنسان حيوان له تاريخ، يصح . ثالثاً . أن نقول إن الإنسان حيوان يضحك.

كذلك فإن من الصحيح . أيضاً . أن نقول إن الإنسان . عندما يصل إلى أعلى درجات نموه العقلى (الذكاء)، وأغنى مراحل استقراره، واختباره للحياة، وفهمه للمؤثرات والضغوط، والمعاينة المدققة لسيادة ما اصطلحنا على تسميته بالصدفة أو بالقدر، حيوان ساخر.

كل ما فات ليس صحيحاً فحسب، لكنه . بنفس القدر . ضرورى لنفهم ماهية الضحك والإضحاك، ولنعرف قدر الفنون المختلفة، التى تستطيع توليدهما.

وحدنا.. نحن الضاحكون و..

والحقيقة أنه لا يوجد عضو آخر . بحسب ما وصلت البشرية إليه من علم . من إخوتنا وأبناء أفخاذ قبيلتنا الحيوانية (ونخص بالذكر ثدييياتها) مما هم غير الإنسان العاقل، من يستطيع النطق (إلى درجة التعبير الفنى)، أو من هو قادر على الاحتفاظ بخبراته التاريخية المتراكمة، والاستعانة بها على تغيير الواقع من حوله ليصبح أكثر ملاءمة لطموحاته (فليس غيره بمستطيع التشوف والتخييل وتحقيق المتخيل)، وأن عضواً آخر فى المملكة الحيوانية، يعجز عن الضحك، فما بالك بالإضحاك القصدى، والسخرية.

ذلك ببساطة لأن الضحك والإضحاك والسخرية، يتطلبون كل ما اختص به الإنسان: العقل الذكى الكشاف المتشوف، والنطق الفنى المعبر، والخبرة التاريخية . فى أمور الحياة . المتراكمة، أو التراكمية.

الحيوانات الأخرى . غير الإنسان . لا تضحك، حتى إخوتنا القردة العليا لا يفعلون، وما قد يبدو لنا من مراقبتهم على أنه ضحك، لا يعدو كونه تقلصات عضلية، ليس فيها من الضحك الذى نعرفه . ونمتاز به . غير تراقص عضلات الوجه، وتوتر عضلات الصدر، وارتجاج الجسم، وبعض الأصوات أو التصويتات التى تصاحب ضحكنا نحن، وهذه العناصر الثلاثة وحدها لا تعنى قدرتها على الضحك.

فالضحك، كما عهدناه، معروف علمياً أنه واحدة من وظائف المخ العليا، من وظائف القشرة المخية، ومراكزها الأكثر تطوراً، وتَعقُّد هذه القشرة وظيفياً خصيصة مميزة وصل إليها العقل البشرى وحده.

الضحك عملية شديدة التعقيد:

يستلزم الضحك إدراكاً شديد الحساسية والحدة للأمور التى تطرأ باستمرار فى حياة الإنسان، والإدراك المعنى وظيفة عقلية للمخ الإنسانى، تمكنه منها مراكز قشرته المخية وخلاياها العصبية ذات الارتباطات القوية المتشابكة عالية التطور، ويعمق هذا الإدراك خبرات حياتية (معيشة / مسموعة / مقروءة) يستطيع الإنسان أن يحتفظ بها فى ذاكرته، وأن يستدعيها،

ويربط بينها وبين الحادث الطارئ / الفعل / القول وأن يستخلص نتائج جدلية منها، ويستطيع الإنسان فى الإضحاك والسخرية أن يعبر تعبيراً فنياً عنها.

الضحك هو إدراك أولاً (يعمقه الاستدعاء والربط والتفسير)، وهذا الإدراك يؤدى إلى انفعال شديد التوتر، وإلى تحول طاقة الانفعال هذه لتتسرب فى انقباضات متتالية لعضلات الصدر والبطن (على الأقل)، وبذلك تؤدى إلى ارتجاج الجسم والقهقهات (وربما التصفيق والخبط وهز الرجلين مستندتين أو مرفوعتين حسب درجة الانفعال، والانقلاب على الظهر أيضاً)، وتسرب الطاقة هذا يخلف وراءه نوعا آخر من الانفعال يتراوح بين طرفين بعيدين هما الانتشاء الشديد والاكتئاب المروع).

نعم الضحك قد يؤدى إلى الاكتئاب، وهذه نقطة مهمة سوف نصل إليها.

الفلاسفة والعلماء يتدخلون.. ويفسرون:

ولأن كثيراً من أسرار المخ البشرى (والعقل وظيفة له، وليست الكلمتان - المخ والعقل - مترادفتين فى العلم) لم يفك غموضها بعد، كان الفلاسفة منذ قرون. وحتى الآن. أصحاب قصب السبق فى دراسة الظاهرة، وقد حذا حذوهم. بما لديهم من المعلومات العلمية المتاحة. بعض العلماء، مقدمين فرضيات ثلاث (إذا أتقنا التجريد) تنتظر مزيداً من الاكتشافات ليتم إثبات أى منها، وتبقى الحقيقة أن أحداً من الفلاسفة أو العلماء لم يقدم. حتى اليوم. تفسيراً شاملاً ومريحاً لأسباب الضحك، أو ماهية الشىء المضحك، ومن ثم ماهية الضحك والإضحاك، الفلاسفة والعلماء حاولوا التفسير، ويصح أن نقول إن تفسيراتهم تداخلت واشتركت فى أمور، لكن الصحيح أيضا أن نزعم أن تلك التفسيرات تناقضت، وأن الفرضيات الثلاثة لو جمعناها، وتجاهلنا التناقضات، أو وحدناها جدلياً يتبقى شىء ناقص يجعل الفهم الكامل مستعصياً.

وعموماً فإنه من الممكن تصنيف ما أورده الفلاسفة والعلماء فى فرضيات ثلاث:

أولاها: أن الضحك ممارسة للتفوق من جانب الضاحك، يرى الضاحك فيها أن المضحوك منه أقل شأناً أو (أحط درجة)، وأن ممارسة التفوق هذه (وهى ضمن الطاقة العدوانية فى النفس البشرية، وليست كلها مذمومة إلا حين تعمد إلى إيذاء مشاعر الآخرين) هى السبب وراء النشوة التى يخلفها الضحك فى نفس الضاحك، وهذه الفرضية كانت أكثر الفرضيات بقاء وصموداً وسيطرة فى كل العصور، اعتقد بها أفلاطون، وأرسطو، وشيشيرون، وكوينيكان، وصولاً إلى فرنسيس بيكون، وفولتير، وبودلير، وبيرجسون (الذى صار علماً على الفرضية)، ومارسون بانيول.

وثانيتها: ترى أن الضحك ينشأ من وجود تناقض بين الشىء. أو الأمر الحادث. وما اعتدنا أن يكون عليه، أو تراه إحباطاً لتوقع يكاد يكون مؤكداً، يتخذ. هذا التوقع. سمة التوتر الانفعالى، ويأتى الضحك حين يؤول هذا التوتر إلى الاصطدام بمفاجأة تعكس مساره، أو هى ترى أن الضحك نتاج لسوء الفهم، أو سوء التفاهم، فى الأمر الحادث المشاهد أو المروى، وهذه الفرضية اعتقد بها باسكال، وكانت، وسيدنى سميث، وهربرت سبنسر (العالم النفسى).

وثالثة الفرضيات ترى الضحك ارتخاء مفاجئاً. نتيجة حدث أو قول. لتوتر دائم فى حياة البشر، وانفكاكاً لحظياً لإحباط لا ينتهى (أو ما نسميه. نحن. انبساطاً، أو تلاهياً)، وفرويد ينسب هذا التوتر والإحباط الدائمين، إلى ما هو مكبوت منذ الطفولة فى الإنسان، بسبب الضغوط التى تمارسها عليه الأنا العليا (الضمير، والقيم الدينية والمجتمعية).



تعالوا نحاول التطبيق.. والاعتراض:

إن منظر رجل محترم، متأنق، ينزلق فجأة. فى جو مطير. على الأرض الموحلة، يثير ضحك من حوله، فإذا اعتبرنا الضحك فرحة من يرون أنفسهم متفوقين على الرجل، لأنهم لم ينزلقوا مثله (الفرضية الأولى)، فلا بد أن نعترف بأن الفرحة تبقى محدودة بعامل الشفقة أولاً. ثم التألم ثانياً، فالحزن الجارف أخيراً، والواقع أن الشفقة تتداخل مع الضحك (الفرحة العدوانية) منذ اللحظة الأولى، فإذا تغلبت. الشفقة. فى الميزان النفسى للمراقبين، انقطع الضحك، ولو حدث وأصيب الرجل إصابة تعوق نهوضه، أياً كان مداها، ستجد من يسارع بمد يد العون للرجل، سواء وهو مستمر فى الضحك، أو وقد انقطعت تماماً ضحكاته (حسب ما يراه من حال الرجل المنزلق)، أما حين التأكد من أن إصابة الرجل بليغة. أو بدون ذلك أحيانا لدى العديدين من المراقبين. سنجد أن الضحك قد تحول إلى تأمل ممض، ومن ثم إلى حزن قد يصير جارفاً. بل إن بمجرد سقوط الرجل سنجد من يصرخ فى الناس «علام تضحكون؟!» (ربما وهو يضحك مثلهم، وهو أمر لا يشكك فى جدية الصيحة، وفى تقزز الضاحك ونفوره من فعل الضحك فى مثل تلك الحال المؤلمة)، هكذا، لا يمكننا القول إن الإحساس بالتفوق لدى الضاحكين، عامل غير مقيد. بالشفقة. منذ اللحظة الأولى، بل على العكس تماما، يمكن أن نقول إن الضحك كان انفلاتاً لطاقة انفعالية تحاول التملص من قيود الشفقة، والتألم والحزن الجارف.

ثم إن ضحك المتواجدين فى الشارع على من وقع، من الممكن ألا يعدو كونه انفلاتاً وقتياً لتوتر حادث (سواء كان وقتياً بالخوف من الانزلاق على الأرض الموحلة، أو كان دائما كما شرحه فرويد)، يعود بعده التوتر سيرته الأولى، والتوتر الوقتى يكون حادثاً نتيجة الخوف على الذات، وهو تخوف يضع فى اعتباره أن الكل. والذات بينهم. معرض لنفس السقوط، بنفس الشروط، وإلى ما حدث من جرائه، وهكذا لا يكون العنف عنفاً على الآخر فقط، بل عنفاً على الذات أيضاً، ولا يكون إحساس التفوق راسخاً، بل قد يعنى القناعة ضمناً بعدم التفوق، وتكون تلك القناعة دافعاً للرغبة فى الإحساس به للحظات قصيرة.

هكذا نجد تداخلاً بين الفرضية الأولى (ممارسة التفوق على الآخر) وبين الفرضية الثالثة (انفكاك لحظى للتوتر والإحباط)، وقد نلمح الفرضية الثانية بينهما، فى رؤية الضاحكين للتناقض الحادث بين قدرة إنسان على تجنب السقوط، وبين السقوط المرئى، لكننا فى نفس الآن نجد تناقضاً بينهم وفيهم، فلا التفوق حاسم، ولا التوتر دائم، ولا الاقتناع بالقدرة راسخ.

المؤكد أن هناك شيئاً ينقص الثلاث.

ماذا حدث للسجين؟

بعض أصحاب الفرضية الثانية (التناقض بين سيرورة الحادث، وما نرى أنه يجب أن تكون عليه، أو إحباط لتوتر فى عكس مساره، أو سوء الفهم وسوء التفاهم) يروون نكتة تقول: إن حراس سجن شرسين كان ينقصهم واحد ليستطيعوا لعب الورق، فكان أن أتوا بسجين محكوم عليه فى قضية أخلاقية ليكمل عددهم، لكنهم أثناء اللعب اكتشفوا أن السجين يغش فى اللعب، وصمموا على عقابه، فقاموا بطرده إلى خارج أسوار السجن، انتهت النكتة، وهم يدللون بها على وجود أكثر من تناقض فيها كان مدعاة لضحك المتلقى، أولهم: بين كون الحراس حراساً وإطلاقهم سراح السجين!، وثانيهم بين كون المجرم مجرماً وظن الحراس أنه لن يغشهم فى اللعب!، والثالث بين رغبة الحراس فى معاقبة السجين على ما اقترفه فى حقهم ونتيجة هذا العقاب التى حررت السجين، وكأن ثمن الغش هو إطلاق السراح، ثم إنهم يرون أن مسار النكتة عكس مسار التوتر فى متابعتها، فالتوتر تصاعد لحظة اكتشاف الحراس الشرسين أن السجين يغش فى اللعب، وانبعث تصاعده من توقع عقاب صارم سينفذه حراس شرسون، فإذا بالعقاب يجئ إفراجاً عن السجين وإطلاقاً لسراحه، وبهذا ينتهى التوتر إلى عكس مساره تماما، ويقولون إن النكتة أيضاً تحتوى على سوء فهم، بالطبع من الحراس لطبيعة عملهم ولماهية العقوبة التى يوقعونها على السجين، بل لطبيعة السجين وأخلاقياته، وما يمكن أن يصدر عنه من أفعال.

لكن ألسنا نضحك أيضاً. فى نفس النكتة. لغباء الحراس، وبإحساسنا بأننا متفوقون عليهم، ولأننا فى مكانهم لا يمكن أن نفعل ما فعلوه، وفى ذلك ممارسة لطاقة العدوان ضدهم (الفرضية الأولى)، ثم أليس فى الأمر تعاطفاً خفياً من جانبنا (كمتلقين) مع السجين، الذى لم نتساءل قبل أن نضحك عن جريمته!، وأن التعاطف مع أى سجين يوضح انفلات طاقة تعبر عن فرحة لكسر الضغوط التى تمارسها علينا الأنا العليا، والقيم المجتمعية (الفرضية الثالثة).

مرة أخرى تلتقى الفرضيات الثلاث، وتتناقض.

ومرة أخرى نرى أن هناك عنصراً غائباً يجعل التفسيرات غير مرضية.

ولنسأل لسان العرب:

فى مادة «فكه» نجد (رجل فكه: يأكل الفاكهة / من ينال من أعراض الناس / طيب النفس مزاح / الذى يحدث أصحابه فيضحكهم / الأشر البطر)، و(الفاكه: عنده فاكهة / من كثرت فاكهته / المازح والمزاح (وفى حديث أنس: كان النبى «ص» من أفكه الناس إذا خلا مع أهله))، و(فكههم بملح الكلام: أطرفهم (من الطرافة)) و(الاسم: الفكيهة والفكاهة: المزاح، التفاكه: التمازح)، و(تفكهت بالشىء: تمتعت به)، و(القوم يتفكهون بفلان: يغتابونه وينالون منه)، و(فكه من كذا: تعجب)، و(التفكه: التندم).

وفى مادة «ضحك» نجد (الضحك: معروف)، و(فى الحديث: يبعث الله السحاب فيضحك أحسن الضحك: جعل انجلاءه عن البرق ضحكاً، استعارة ومجازاً، كما يفتر الضحك عن الثغر، وكقولهم ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرتها)، و(ضحكة: ما يضحك منه)، و(ضُحَكه: الرجل كثير الضحك)، و(الضحك: مدح)، و(الضحك: العجب)، و(الضحوك: الطريق الواسع، وطريق ضحاك: مستبين) و(ضحكات كل شىء: خياره)، و(رأى ضاحك: ظاهر غير ملتبس)، و(يقال القرد يضحك إذا صوت).

وفى مادة «سخر» نجد (سخر منه وبه: هزئ به).

وهكذا يضعنا لسان العرب أمام معان يجب ألا تغيب عنا:

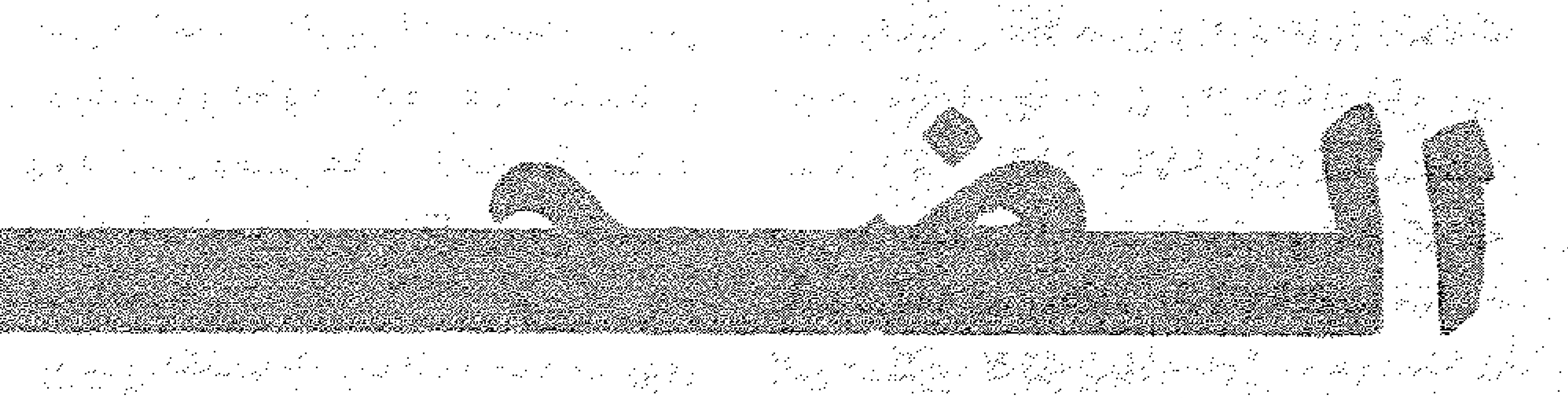
أولها: أن الضحك فاكهة الكلام وملحه، وأن من يضحك طيب النفس، وأن الضحك إخراج للطيبات.

ثانيها: أن من الضحك ما هو غيبة، وما هو نيل من الأعراض، وما هو استهزاء.

ثالثها: أن الضحك رأى غير ملتبس، وطريق مستبين.

رابعها: أن فى الضحك تعجباً وندماً.

لقد تكلمنا كثيراً عما ينقض الفرضيات الثلاث لتعطى تفسيراً مشبعاً عن الضحك



والإضحاك، الآن لنركز على « ثالثها ورابعها » فهما يتضمنان من الشيء الناقص الكثير.

ثم ليتكلم المفكرون والمبدعون:

يقول لويس ليرى: « إن تاريخ الأدب الأمريكى يبدأ بمارك توين (الكاتب الأمريكى الساخر صامويل لانجهورن كليمنس) فهروبه إلى المغارة، وإلى الماضى، وإلى الفكاهة، التى تأخذ مجراها ضمن الحقيقة وتتجاوزها .... ».

ويقول مارك توين: «إن روح الفكاهة ذاتها تجد مصدرها السرى فى الحزن لا فى الفرح، فليس هناك فكاهة فى الجنة».

ويقول نيتشه: أعرف تماماً لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يضحك، فإنه لما كان الإنسان أعمق الموجودات ألماً، فقد كان لا بد له من أن يخترع الضحك، وإذن فإن أكثر الحيوانات تعساً وشقاء، هو بطبيعة الحال، أكثرها بشاشة وانشراحاً.

يقول لورد بايرون: «ما ضحكت لمشهد بشرى زائل، إلا وكان ضحكى بديلاً استعين به على اجتناب البكاء».

ويقول د. زكريا إبراهيم: «هل كان الضحك إلا اختراعاً بشرياً، تفتق عنه ذهن ذلك الموجود المتناهى، الذى يعرف أنه لا محالة ذائق الموت، لقد أرادت الطبيعة لهذا المخلوق الناطق أن ينوء بهَم الموت، وكأنما هى أرادت أن تكون فكرة الموت هى الضريبة الفادحة، التى يدفعها الإنسان، ثمناً لنعمة العقل، التى اختصته به دون غيره من الموجودات، فكان لا بد لهذا الموجود الشقى أن يجد علاجاً لفكرة الموت، فكان الدين، وكان الضحك».

الفكاهة إذن تأخذ مجراها من الحقيقة، وتتجاوزها، وتنبع من الحزن والألم، والرغبة فى اجتناب البكاء، ومقاومة السيطرة القابضة لفكرة الموت.

أقوال أخرى مهمة:

يقول د. زكريا إبراهيم: «والحق أن الابتسام والضحك والبشاشة والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا إن هى إلا ظواهر تنفيسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس فى اللهو ترويحاً عن نفسها، وتبحث فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع، الذى كثيراً ما يثقل كاهلها».

ويقول: «وليس العنصر الوجدانى الوحيد الذى يدخل فى ظاهرة الضحك هو عنصر الارتياح والانشراح أو الغبطة والسرور، بل هنالك عنصر وجدانى آخر قد لا يقل أهمية، ألا وهو عنصر اللهو والمرح والتسلية واللاواقعية».

ويقول يونج «بعض الأقوام فى جنوب أفريقيا كثيراً ما تستخدم الضحك وسيلة للتعبير عن الدهشة أو القلق، أو التعجب، بل قد تعبر به عن شعورها بالحزن العميق، فى بعض الأحيان، وأما عندنا نحن المتحضرين، فقد عملت العوامل الحضارية عملها، فاصبح للضحك من الدلالات الاجتماعية، والمعانى العقلية ما جعله يفقد مضمونه البدائى الأصلى».

ويقول د. زكريا إبراهيم: «ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة تقوم فى حياتنا النفسية بدور أو وظيفة تشبه إلى حد ما وظيفة اللاشعور، على نحو ما يتبدى فى الأحلام. مثلاً. أو فى الأعراض العصابية، وهذا ما قرره فرويد نفسه فى دراسته للنكتة، وعلاقتها باللاشعور».

ويقول فرويد: «إن العلاقة وثيقة بين الفكاهة والحلم لأن كلاً منهما ينطوى على ضرب من الارتداد نحو الطفولة، من أجل التملص. ولو إلى حين. من تلك الحدود أو القيود، التى تفرضها علينا الحياة الجدية، ومعنى هذا أننا نجد فى الضحك نكوصاً نحو الأسلوب الطفلى فى المعيشة، بما فيه من أحلام براقة، وخيالات سعيدة، وتهاويل جميلة».

ويلاحظ روس فى دراسته لعلاقة روح الفكاهة ببعض المتغيرات فى الشخصية، أن أولئك الذين يتمتعون بحس فكاهى يجئ ترتيبهم فى العادة متأخراً نسبياً فى سلم الأشخاص المعرضين للأمراض النفسية، ومهما يكن من شيء فإن طابع اللهو واللاواقعية الذى تتميز به المواقف الفكاهية والنكتة، سواء أكان هذا الطابع طبيعياً تلقائياً، أم اصطناعياً تعويضياً هروبياً، كما نقول أحياناً، فإنه لا بد أن يكون ماثلاً فى جميع الحالات كخاصية أساسية تميز كلاً من الضحك والفكاهة.



يقول لو دافيتشى: «إن فى الضحك شيئاً من الغدر أو التشفى فى الآخرين، وإن الشعور بالتفوق الذى يقترن بالضحك كثيراً ما يكون مجرد محاولة تعويض، يراد بها تغطية خوفنا من التعرض لحالة الدونية أو النقص، كما يحدث مثلا حينما نجد أنفسنا فى موقف مهين يدعو إلى السخرية، فنضحك على سبيل الدفاع عن النفس».

و يقرر مارسيل بانويل أن فى الضحك استعلاء وقتياً.

.. الفكاهة والضحك إذن، هما إدراك لواقع محزن يحاول الإنسان جاهداً أن يفر منه. وقتياً. مثلما يفر الإنسان من واقعه فى الحلم، وفى اللاواقعية (التى هى هروب قصدى)، بل وفى الاستعلاء على المواقف، وهذا الهروب يحاول. لبعض الوقت. استعادة الطفل فينا، ذلك الكائن المختنق تحت ركام من الضغوط أهمها الحقيقة الكامنة وراء واقعنا، الحقيقة التى لا تفتأ تعيرنا بضعفنا، الذى يستأهل أن تُمارس ضده سخرية، وأن السخرية قد تبدو للعين غير المدققة أنها سخرية من الآخرين، لكنها فى الأساس سخرية من النفس.

أقـوال ثـالـثـة

يقول فرويد. فى بحث له عن الفكاهة ظهر ١٩٢٨. إن الفكاهة تقوم بدور (الفيلسوف الساخر) الذى يلقى جلائل الأمور بروح الهزل والاستخفاف أو بروح الاستهانة وعدم الاكتراث.

ويرى فرويد أن فى (إنكار الواقع) عن طريق النكتة دربا من السمو الأخلاقى الذى يرجع إلى ما يقوم به (الأنا الأعلى) من دور هام فى صميم هذا النوع من أنواع الضحك، فالأنا الأعلى فى مثل هذه الحالات، يعامل (الأنا) كما يعامل الشخص البالغ الرحيم طفلاً ألمت به بعض المصائب الصغرى، أو الكوارث البسيطة، إذ يبين له، فى ضوء خبرته الناضجة كيف يزن تلك الأحداث البسيطة، التى هى مما لا يستحق كل هذا الاهتمام، وكأن (الأنا الأعلى) يريد أن يأخذ بيد (الأنا).

ويرى ديكارت أن الضحك (القهقهة) فعل يفلت من طاقة العقل، وهو ليس انفعالاً من انفعالات النفس، وإنما هو انفعال من انفعالات البدن.

ويقول كانت: «إن الضحك هو ضرب من الإعياء المفاجئ الذى يصاب به العقل، فلا يلبث البدن أن يقوم هو بالاستجابة للمؤثرات الخارجية، على طريقته الخاصة، إن كل ما يستثير لدينا القهقهات العالية لا بد أن ينطوى على شيء من «الاستحالة»، التى لا يجد فيها العقل أية لذة خاصة، وتبعاً لذلك فإنه ليس للضحك من فائدة سيكولوجية بالنسبة للفكر، ولكن تنحصر فائدته فى الآثار الفسيولوجية التى يتركها فى الجسم».

وتؤكد نظرية جيمز لانج أننا لا نضحك لأننا مسرورون، بل نحن مسرورون لأننا نضحك.

ويصمم الوجوديون على أن الضحك ليس ثمرة تصميم إرادة، وإنما هو يقترن دائما بضرب من (الغائية)، التى تخلع عليه معناه، والتى بدونها يفقد كل صبغة إنسانية، ولهذا يعمدون إلى توضيح أن الإجابة على السؤال « لماذا نضحك؟ »، لا مندوحة أن تكون بـ «كى»، وليس بـ «لأن»، إننا نضحك لكى نعبر عن انشراحنا، وفى أحيان لكى نوجد هذا الانشراح.

ويكتب الأمريكى الشهير لامينيه «إن الضحك لينطوى فى جميع الحالات على حركة تبدأ من الذات، وتنتهى إلى الذات، يستوى فى ذلك أن نكون بإزاء ضحك السخرية القاسى المرير، أم ضحك اليأس المليء بالفزع والخوف، أم ضحك الشيطان المنهزم الذى يصر على المقاومة فيلوذ بكبريائه الغاشمة التى لا تلين، أم ضحك الأبله المعتوه».

ويتبع الكتاب العرب القدماء ما روى عن الرسول (ص) أنه قال: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت» فيرون أن الضحك استراحة واسترواح.

ومما قاله على بن أبى طالب: «من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر».

وكان من رأى الجاحظ أن الضحك ليس نقيضاً للجد، بل هو حال من حالاته،و تجل من تجلياته.

ويقول أبو العلاء المعرى: «ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة / وحق لسكان البسيطة أن يبكوا / يحطمنا ريب الزمان كأننا / زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ».

ويقول مارك توين إن صورة الإنسان عن الإنسان «ليست إلا صورة نفسه منظورة بمنظار الإخلاص الذاتى العميق فى قلبه، وهو فى هذا الصدد يرى الإنسان «متحف أمراض»، وأنه يبدأ قذارة، وينتهى رائحة نتنة، وأن ليس هناك من سبب لوجوده غير تغذية الجراثيم وإنعاشها».

ويرى فرويد أن للضحك جانباً «نزوعياً» (هو إحساسنا بالتفوق على الآخرين، أو الرغبة فى الاستمتاع بهذا الإحساس)، ويرى أن الجانب النزوعى إنما ينشأ عن الاقتصاد فى إنفاق طاقة الكف أو المنع (سيطرة الضمير والقيم المجتمعية على الأنا)، كما يرى فى الضحك جانبا «وجدانيا»، ويراه اقتصاداً فى العواطف، أما الجانب الثالث فهو الجانب «الإدراكى»، ويراه اقتصاداً فى التفكير، وفى هذا السياق يطلق أيزنك اسم «الفكاهة» على العنصر «الوجدنى»، واسم «النكته» على الجانب «النزوعى»، واسم «الكوميديا» على العنصر الإدراكى.

ويقول لوسيان فابر: «إن الضحك انطلاق من حالة شعورية إلى حالة شعورية مغايرة».

ويرى بعض العلماء «إن عمليات تفريغ الطاقة،عن طريق الفكاهة هى عمليات معقدة متباينة إلى أقصى حد، وليس تنوع تلك العمليات بمقصور على عمومية أو جزئية مصدر التوتر، أو على طبيعة مضمونه الانفعالى، وإنما يمتد هذا التنوع أيضاً إلى الآلية النفسية التى يتم عن طريقها التحرر، أو التخفف (النكتة/ الموقف الطارئ / جلسات التريقة / الكتابة الفكاهية.... .

.. الضحك إذن ينطلق من الذات، رغبة فى إنهاء شعور أو انفعال، بإطلاق طاقته فى اتجاه آخر، بغرض التحرر أو التخفف، ولأنه ينطلق من الذات فهو يأخذ موضوعه منها، وهو يأخذ هذا الموضوع عندما يعطى « إدراكياً » معنى للمؤثر الداخلى أو الخارجى الباعث للتوتر، وكونه يأخذ معناه الانفعالى من الذات، فهو إذن سلاح موجه لها وليس للآخرين (إلا فى حالات قصدية)، بل ربما كان سلاحاً للدفاع عن الذات (لا علاقة له بالآخرين) لحمايتها من هذا المعنى الباعث للتوتر، والذى كونته للمؤثر، وذلك بإفلات الطاقة الانفعالية إلى مسارب لا تؤذيها.

والآن.. ماذا يقول الفينومينولوجيون؟:

تتجه النظرية الفينومينولوجية (الاختزال الفينومينولوجى) إلى وصف بيان الشعور الخالص فى علاقته بموضوعات العالم، واستخلاص معنى الظواهر بإرجاعها إلى البنيان المقابل لها من الشعور الخالص.

ويعنى هذا الأمر لدى المقتنعين بها والمطبقين لها. ضرورة الابتعاد. مؤقتاً. عن اليقين البديهى، الذى يفترضه كل فكر وكل فعل، كيما يتسنى إبرازه وإيضاح دلالته، حتى نستطيع أن ننظر نظرة جديدة تكشف عن معنى الألم، وعن أصل الظواهر فى الشعور الخالص.

وبناء على ما فات فإن واقعة نفسية مثل الانفعال، وهو يعتبر. عادة. اضطراباً لا يحكمه قانون، هى واقعة ذات معنى خاص بها، ولا يمكن إدراكها فى ذاتها دون فهم هذا المعنى، إن معنى واقعة شعورية يكمن فى كونها تدل على الواقع الإنسانى فى جملته، من حيث أنه. الواقع الإنسانى. يكون واقعا منفعلاً أو متنبهاً أو مدركاً أو مريداً أو...

وترى النظرية الفينومينولوجية أن الانفعال يحيل إلى ما يدل عليه من معنى، وما يدل عليه إنما هو مجموع علاقات الواقع الإنسانى، ومن هنا، ولأن الانفعال تحقيق لماهية الواقع الإنسانى من حيث هو وجدان، فلا بد أن يبدأ وصفه. الانفعال. من الواقع الإنسانى نفسه.

ويقول سارتر. شارحاً الانفعال على المنهج الفينومينولوجى فى كتابه نظرية فى الانفعالات، أن الانفعال يعنى تغييراً للعالم، أى أننا به نحاول أن نحياه. العالم. كما لو لم تكن العلاقات بين الأشياء وإمكانياتها خاضعة لعمليات حتمية، ونحن. بالانفعال نستغرق فى الموقف الجديد، ونتفانى فيه بكل ما نملك من قوة، ثم أن هذه المحاولة ليست شعورية بما هى كذلك، وإلا أصبحت موضوعاً للفكر، بل هى قبل كل شىء إدراك لروابط جديدة ومطالب جديدة، ولما كان إدراك الموضوع محالاً أو مثيراً لتوتر لا يطاق، فإن الشعور يدركه. أو يعمل على إدراكه. على نحو آخر، أى أنه يغير نفسه لكى يغير الموضوع.

ويقول هوسرل (من كبار مفكرى النظرية الفينومينولوجية) إن التكشف يتم على دفعات، فالشىء المدرك ينكشف للشعور تدريجياً فى سلسلة لا نهائية من المظاهر، وهذه المظاهر هى أوجه مختلفة لنفس الشىء.

ويقول هيجل: إن الشعور هو علاقة محددة بين الأنا وموضوع ما.

أى أن الانفعال هو خبرة الفرد الشعورية بذاته والعالم (الواقع الإنسانى)، ونحن لا نستطيع تفسير الشعور، إننا فقط نستطيع أن نتفهمه.

وبعد:

كنا نحاول أن نجد الشىء المفتقد بعد أن استعرضنا فرضيات الضحك الثلاث، والآن يصح لنا (بعد أن عرضنا ثلاث مجموعات من أقوال الفلاسفة والعلماء والمبدعين، والأساس اللغوى لقاموسنا المعبر عن الظاهرة) أن نتقصى هذا الشىء المفتقد من خلال النقاط الآتية:

(أ) الضحك يأتى من انفعال.

(ب) الانفعال يتجنب الاستمرار فى مساره، فينفلت ليتسرب فى مسار أقل إيذاء.

(ج) الانفعال يأتى استجابة لإدراك.

(د) الإدراك يكون لمعنى متصل اتصالاً مباشراً بالواقع الإنسانى (العالم).

(هـ) لاشىء (حدث / قول / فعل) مضحك فى ذاته.

هكذا يصبح الشىء المضحك هو شىء. حين يتم لنا إدراك قدر من معناه. مثير للانفعال، ولا يعنى هذا أن الانفعال هو استجابة للشىء المضحك فى حد ذاته، بل هو استجابة لما أدركناه من معنى لهذا الشىء، أى أن الشىء الذى نصفه بأنه مضحك، والمعنى الذى أدركناه، هما جزءان من الاستجابة الشعورية (من الانفعال).

وأن الطاقة المنبعثة فى الاستجابة الشعورية (الانفعال)، يتم تسريبها وقتياً (لأن احتجازها شديد الضرر بنا) فى مسارب الضحك أو البكاء، وأن تسريب هذه الطاقة جزء من طبيعة الانفعال (دفاعاً عن أنفسنا ضد ضرره).

والنشوة التى تعقب الضحك، مثلها مثل الراحة التى تأتى بعد البكاء، سببها التخلص من الانفعال بعد تسريبه.

الانفعال يصبح هكذا عملية ذات معنى، ومعناه يكمن فى تفاعل الذات مع العالم أو رؤية الذات للواقع الإنسانى.

هكذا لا يكون لدينا مضحوك منه غير العالم منعكساً فى ذواتنا، وغير الواقع الإنسانى فى هذا العالم.

نحن لا نضحك من الآخرين، أو على الآخرين (وإن بدا لنا ذلك، أو وإن حاولنا أن نظهر أننا نفعل ذلك) إننا لا نضحك إلا من. وعلى. حالنا، على الواقع الإنسانى، على واقعنا مُدركاً فى الآخرين، لا نضحك إلا على أنفسنا منعكسة فى مرايا الآخر.

وبكل ما سبق نقول إن ما افتقدناه فى الفرضيات الثلاث التى حاولت أن تفسر عملية الضحك، لتصل إلى ماهيته، سواء كان قصدياً (مجموعة تتلاقى لكى تضحك)، أو كإدراك واستجابة بالانفعال لفعل أو حدث أو قول: كان. ما افتقدناه. هو المعنى المتصل اتصالاً مباشراً بالواقع الإنسانى.



إن الإنسان. مثلما هو الكائن الوحيد الناطق، صاحب التاريخ، والضاحك، هو الكائن الأوحد الذى يعى واقعه الذاتى، يعى ضعفه، الذى لم يكن تاريخه كله إلا محاولة دءوب مستمرة للتقليل من أثره المدمر للذات (لهذا كان يتجمع، ولهذا كان يحاول فرض سيطرته على الآخرين، بحثاً عن تفوق زائف، ولهذا بنى الحضارات، ولهذا فكر فى الاشتراكية والشيوعية، ورغب فى تحقيقهما، فهما منجاته من الاستناد على قوة مكذوبة. ومن ثم مؤرقة. فى السيطرة على الآخرين واستغلالهم).

والإنسان. بدرجات متفاوتة. يعانى من ضعفه، وهذا سر توتره الدائم، الذى أشار إليه فرويد (الفرضية الثالثة)، فالإنسان لا يتقبل الكف المستمر الذى يمارسه عليه الضمير والقيم المجتمعية والدينية، إلا ليخفى ما هو أبشع وأكثر إيلاما من الكف المستمر (والذى يرتاح منه قليلاً فى الحلم، وفى الضحك)، والإنسان وهو يمارس التفوق على الآخرين بالضحك (الفرضية الأولى) تتداخل مع شعوره بالتفوق شفقة أساسها أنه يدرك أن الضعف، الذى يثير الضحك، مشترك بين الضاحك والمضحوك منه، ولهذا إذا زاد الأمر عن حده انقلبت الضحكات وجوماً أو بكاءً واكتئاباً، والإنسان ينفعل للتناقض (الفرضية الثانية) لأنه يدرك هذا التناقض الحادث بين ضعفه وحلمه الذى لا ينقطع بالسمو والقوة والحق والخير والجمال.

الإنسان إذن ينفعل (بما نسميه مثير الضحك)، وحتى لا يدمره الانفعال، يتم تسريبه عبر المتشابكات فى المخ الإنسانى، إلى فعل انقباضى فى عضلات الصدر والفم وبقية العضلات (حسب قوة الانفعال) فيبتسم أو يقهقه أو يرفس الهواء برجليه أو ينقلب على ظهره، وهو ما نسميه الضحك.

لله ما أعظم المصريين. الذين سخر بعض المثقفين من كلماتهم. عندما يقولون بعد الضحك، اللهم اجعله خيراً!!.





يرى فرويد أن للضحك جانبا «نزوعيا» (هو إحساسنا بالتفوق على الآخرين، أو الرغبة فى الاستمتاع بهذا الإحساس)

المراجع:

(١) سيكولوجيا الفكاهة والضحك (فى علم النفس) أ.د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر القاهرة (مرجع أساسى).

(٢) مارك توين (أعلام الأدب الأمريكى). المكتبة الأهلية. بيروت.

(٣) الموسوعة الأمريكية الجزء ١٤ ص ٥٦٣ وما بعدها، والجزء ٤ ص ٣٣ وما بعدها، والجزء٧ ص ٢٥٤ وما بعدها، والجزء ١٠ ص ٨٢٤، والجزء ١١ ص ١١، والجزء ٢٣ ص ٥.

(٤) جحا،عباس محمود العقاد، دار المعارف، القاهرة.

(٥) لسان العرب لابن منظور (دار المعارف.القاهرة)

(٦) نظرية فى الانفعالات، جان بول سارتر. ترجمة د. سامى محمود على، ود. عبد السلام القفاش، أمهات الكتب مهرجان القراءة للجميع، القاهرة.

(٧) الفكاهة فى مصر، أ.د. شوقى ضيف. القاهرة.

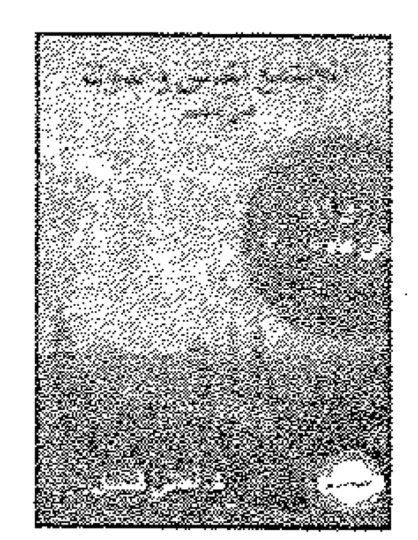
(٨) الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، يناير ٢٠٠٣، الكويت.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتَّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

المجتمع المدنى والدولة فى مصر

أمانى قنديل

القاهرة: مركز المحروسة للنشر، ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة



على الرغم من أن مصر والمجتمعات العربية والإسلامية عرفت المجتمع المدنى باكرًا ممثلاً فى أشكال بدائية من التكافل فى الأوقاف والأربطة وغيرها، فإن المجتمع المدنى فى صيغته الحديثة يستحق اهتماماً أكبر من قبل الباحثين فى العلوم الاجتماعية والسياسية، وهو ما تضطلع به الباحثة منذ سنوات، ليس فقط بوصفها باحثًا يراقب ويرصد ويحلل، وإنما بوصفها مديراً تنفيذياً للشبكة العربية للمنظمات الأهلية.

ويركز هذا الكتاب على تطور العلاقة بين المجتمع المدنى والدولة فى مصر منذ القرن التاسع عشر وحتى العام الماضى (٢٠٠٥)، والمتغيرات الداخلية والدولية التى تؤثر فى صياغة العلاقة بين الطرفين، وهذه الدراسة هى الأولى من نوعها فى المنطقة العربية التى تركز على هذه المسألة فى ضوء أمرين أساسيين، أولهما العولمة بأبعادها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية، وثانيهما أحداث ١١ سبتمبر وما أعقبها من إجراءات ألقت مزيداً من الأضواء على دور المؤسسات الأهلية فى المجتمعات العربية، وتناقش المؤلفة على مدى أربعة فصول مرجعية مؤسسات المجتمع المدنى والإطار العالمى والإقليمى الذى تعمل من خلاله، ثم تشرح خريطة المجتمع المدنى فى مصر قبل الألفية الثالثة، ثم خريطة المجتمع المدنى فى مصر بعد ٥ سنوات من الألفية الجديدة، ثم تناقش عدداً من الإشكاليات المحيطة بموضوع المجتمع المدنى من نوع الاستقواء بالخارج والتمويل وتعاملات الدولة مع مؤسسات المجتمع المدنى.

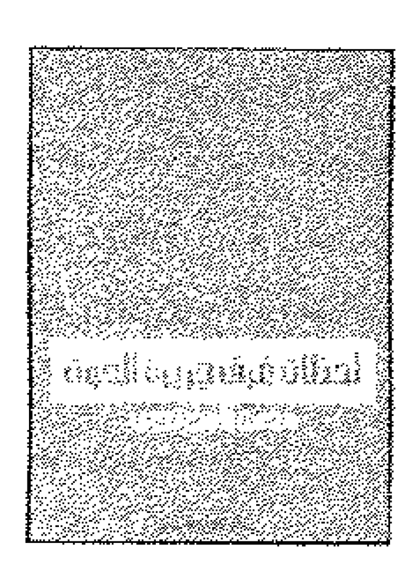
وتلاحظ المؤلفة فيما يتصل بالنقطة الأخيرة تحديداً أن الملمح الرئيسى الذى اتسمت به العلاقة بين الدولة والمجتمع المدنى عبر هذه الرحلة الطويلة هو هشاشة وضعف الثقة بين الطرفين وهو ما انعكس على التشريعات التى تنظم أوضاع المجتمع المدنى خاصة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو ما انعكس على التعامل الأمنى مع بعض هذه المنظمات، بالإضافة إلى أن المجتمع المدنى منذ ولادته فى أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، تبنى مطالب تندرج بشكل أو بآخر تحت عنوان الإصلاح، وتشير المؤلفة إلى أن المجتمع المدنى فى مصر تأثر بشكل كبير بطبيعة الدولة المصرية المركزية التى تطرح وبقوة السلطة الأبوية وتركزها فى مواقع صنع القرار السياسى، ثم فى أجهزتها البيروقراطية التى لعبت هى الأخرى دوراً فى صياغة المجتمع المدنى، كما تلاحظ الباحثة وجود دور قوى للعامل الخارجى بأشكال مختلفة، وقد ساهم هذا الدور فى تطور المجتمع المدنى على عدة مستويات، وقد شهد العقدان الأخيران درجة عالية من التفاعل بين العوامل الداخلية والخارجية فى إطار عملية التحول الديمقراطى واحترام حقوق الإنسان.

وبين الملاحظات المهمة التى ترصدها المؤلفة فى نهاية دراستها هى النزوع إلى العمل السياسى بين هذه المنظمات، وما صاحبه من توظيف الدولة لبعض مؤسسات المجتمع المدنى فى اتجاه المساندة السياسية للنظام، وتشير كذلك إلى أن تطور المجتمع المدنى فى مصر صحبه تواجد مكثف للجمعيات الدينية الإسلامية والقبطية، والتى تصل نسبتها إلى ٣٢٪ من إجمالى الجمعيات الأهلية.

لحظات غرق جزيرة الحوت

محمد المخزنجى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٣٠ صفحة



نصان يمكن اعتبارهما نوعًا من التحقيق الأدبى، وقائعهما عاشها المؤلف بنفسه. النص الأول عن «فصول تشيرنوبيل الأربعة»، وهو ولد مع الانهيار المدوى لمفاعل تشيرنوبيل الشهير فى ١٩٨٦، وثانيهما «طوابير موسكو ٩٠» وولد مع وداعه لموسكو فى نفس العام ١٩٩٠.

والنصان كما يقول المؤلف فيهما من جسد التحقيق نواة الواقعية، ومن أثير القص ذلك الشجن، فيهما أيضاً تلك الحسرة.. «والتى هى أقرب ما تكون لمشاعر من يتابع بكيانه المغدور كله جزيرة حلمه الكبير وهى تغوص سريعاً، غارقة فى أعماق سوداء لمحيط لا متناه».

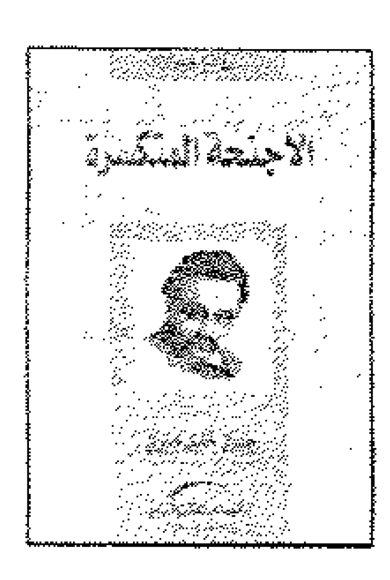
والجزيرة هى الاتحاد السوفيتى الذى آثره المؤلف على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حين جاءه العرضان فى نهاية عام ١٩٨٥، الأول لدراسة الطب بموسكو، والثانى لدراسة الأدب بأمريكا، ولم يتردد المؤلف فى حسم اختياره لصالح الاتحاد السوفيتى الذى رأى فيه دوماً المثل والنموذج الحلم بعدالة اجتماعية والتكافل العام، برغم أنه - المؤلف - لم يكن شيوعياً أبداً بالمعنى الاصطلاحى للكلمة، بل كان مثل كثيرين غيره من الثوريين الرومانسيين، ويحلم بدولة العدالة والحرية، والتى تجسدت أمام ناظريه فى روسيا، تلك التى عاش عليها ومات فيها الكتاب الذين سحروا بأعمالهم عمر الصبا: نور جنيف ودوستويفسكى وتشيكوف وتولستوى وجوركى، يقول المؤلف: وصلت، أكاد أكون محلقاً من فرط الغبطة إلى موسكو فى مطلع عام ١٩٨٦، وبعد أيام السحر الأولى، فى أول بلد كبير أراه، وأول ثلج فى الشوارع، وأول وعد من الصبايا البيض ملونات العيون، بدأت أنفجر وحدى فى نوبات بكاء ليلية مريرة.

ويقول فى موضع آخر: «كنت قد لست أطنانًا من الكذب الأممى، وعانيت أشكالاً شتى من دناءات الرشوة والفساد، واقتربت كثيراً من حدود انكسارات القلوب»، وهكذا انهار الحلم.. وهكذا غرقت جزيرة الحوت.

الأجنحة المتكسرة

جبران خليل جبران

القاهرة: دار البستانى، ٢٠٠٦



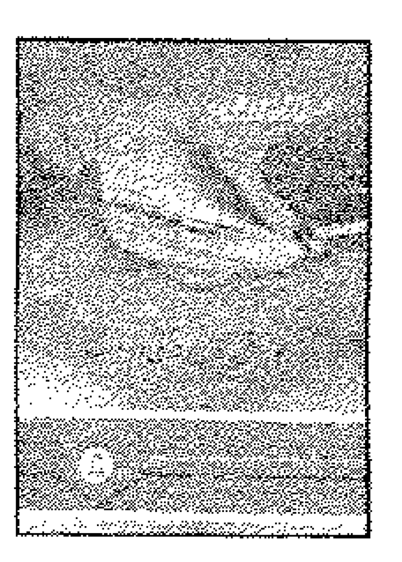
هذا الكتاب واحد من الكتب الشهيرة لمؤلفه الأشهر، وهو يروى قصة حبه الأولى مع سلمى كرامة حين كان وعيه يتفتح وعواطفه الشابة تتوثب لملاقاة مشاعر جديدة لم تألفها، والغريب أنه يهدى قصة حبه الأولى تلك إلى صديقته الأمريكية والمؤتمنة على أسراره مارى هاسكل.

وقد كانت تلك الحبيبة امرأة متزوجة، إلا أنها أحبت جبران وسعت دوماً إلى لقائه بعيداً عن أعين الناس، متجاوزة كل الأعراف والتقاليد التى تحكم حياة الناس فى الشرق وتضع ضوابط وسياجات للعلاقات من هذا النوع، والمعروف أن جبران عاش حياة حرة بلا قيود من أى نوع، بل دعا فى كتاباته إلى التحرر من كافة القيود، خصوصاً فى علاقات الحب والعلاقات الإنسانية عموماً، وفى قصته تلك يخاطب المتمسكين بالتقاليد والقيم بقوله: إن السجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانًا، وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع، هل يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجئ من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبى بين عشتروت المقدسة والجبار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاءوا، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التى تهز أرواح الذئاب، وبلغت ذلك العالم الذى لا يبلغه عوى الذئاب وفحيح الأفاعى، وليقل الناس عنى ما أرادوا، فالنفس التى شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندى الذى رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقى الدماء تجرى تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التى يرشقه بها صبيان الأزقة.

أوراق نقدية فى الأدب

عبدالرحمن أبو عوف

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ٤٣٢ صفحة



يضم الكتاب ما يقرب من ٦٠ دراسة نقدية لأعمال روائيين وكتاب قصة ومسرحيين من أجيال مختلفة، فضلاً عن قسم خاص للمعارك الفكرية الأساسية التى جرت فى الواقع الثقافى المصرى منذ المعركة بين العقاد وشوقى وحتى معارك صلاح عبدالصبور.

فى الرواية يبدأ الناقد بإشكالية أسلوب وبناء الرواية عند طه حسين، وهو يرى أن مجايلى طه حسين مثل هيكل والمازنى والحكيم وتيمور ويحيى حقى يتميزون عنه بدرجة كبيرة، أو على حد قوله: هناك فرق شائع بينهم وبينه فى التعبير البنائى والتشكيلى وآليات السرد وبناء النماذج والتعبير بالصورة والمجاز وإدراك وحدة الموضوع.. إلخ.

وحتى حين نقارن بين رواية طه حسين ورواية الجيل التالى مثل نجيب محفوظ، فإن الميزان يميل لحساب محفوظ، ويلخص المؤلف رأيه فى أن الرواية عند طه حسين تفتقد الوحدة الفنية والنسق البنائى للموضوع، ويتبدى الأسلوب الخبرى اليقينى متعارضاً مع

شاعرية السرد، فهو - أى طه حسين - يفى بالإنشاء البلاغى الجزل وينحو نحو الخطابة وعلو النبرة فى الحديث. وهو عكس ما يلاحظه فى تحليله لأعمال نجيب محفوظ مثلاً التى رأى أنها تلتحم بسياق وتحولات التاريخ المصرى المعاصر، وأنها تعبر عن وعى حقيقى بمسار وتناقضات الثورة الوطنية الديمقراطية منذ اندلاع ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وحتى تدخل العسكر وثورة يوليو ١٩٥٢، وذلك عبر قراءة عديد من أعماله منها ما فاض فى أعماق النفس الإنسانية وتابع مسيرة البشرية مثل أولاد حارتنا والحرافيش، ومنها ما تابع التطورات السياسية والاجتماعية فى حقبة الديمقراطية الليبرالية مثل بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ومنه ما تنبأ بهزيمة ١٩٦٧، وانتقد التنظيم السياسى الوحيد (الاتحاد الاشتراكى) مثل ميرامار، ومنها ما عبر عن قلق وصخب ومجد وهزيمة الثورة مثل «السمان والخريف» و«ثرثرة فوق النيل» و«الطريق» و«الشحاذ» و«حب تحت المطر»، وهكذا.

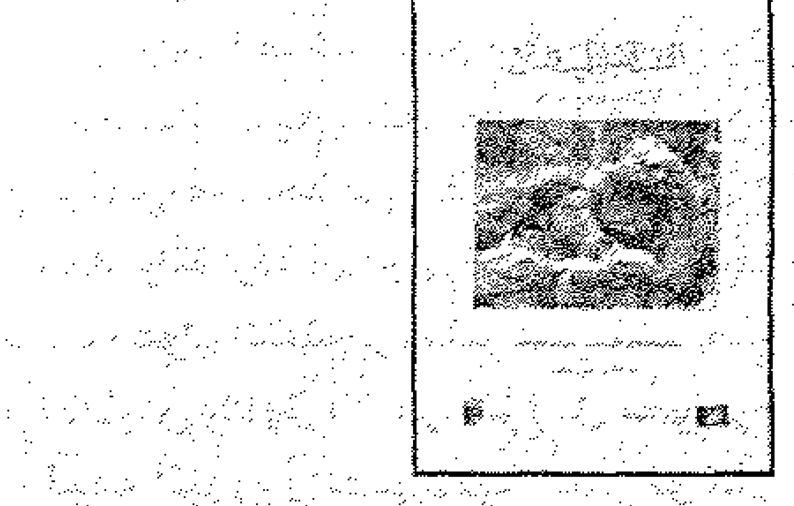
ويلاحظ المؤلف فى تحليله لأعمال يوسف إدريس أن شخصيته القلقة البركانية الحافلة بالتناقضات والشهوة والحلم والصدامية كانت سبباً وراء إبداعه القصصى والمسرحى المتنوع، وأن هذه الشخصية التى عرفها أبو عوف عن قرب، تميزت أيضاً بقدر من الشفافية والصفاء والإدراك العميق لماهية ما يجرى حوله، كما تميز إدريس بقدرة خارقة على استشعار الخطر المحدق بالبلد، وكذلك على استشعار المستقبل والتنبؤ بما سيقع من أحداث فى حياة وطنه وحياته الخاصة، ويشير بالذات إلى مجموعته بيت من لحم.

على هذا النحو يتابع المؤلف أعمال يحيى حقى وعبدالحكيم قاسم وصنع الله إبراهيم ومحمد البساطى ويوسف أبو رية والرواية النوبية، وكذلك أعمال جبرا إبراهيم جبرا، وغالب هلسا، ويحيى الطاهر عبدالله، وإحسان عبدالقدوس، ولطفى الخولى، فضلاً عن الشعراء حسن طلب، وفاروق جويدة ومحمد صالح.

الفشل الإسرائيلى فى لبنان

إعداد وتقديم: أنطوان شلحت

رام الله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦، ١٢٤ صفحة



برهنت الحرب الإسرائيلية الأخيرة فى لبنان على إمكانية هزيمة الجيش الإسرائيلى، وهذه الهزيمة لا يمكن قياسها بحسابات العدة والعتاد، وحجم القطع العسكرية التى تم تحطيمها، والقتلى من الجنود على الجانبين، فصمود مقاتلى حزب الله، وعدم قدرة الجيش الإسرائيلى على تحقيق أهدافه، وتراجع هذه الأهداف إلى الحدود الدنيا مع توالى أيام الحرب، يؤكد الفشل الإسرائيلى فى لبنان وينفى من ناحية ثانية فكرة الجيش الذى لا يقهر التى رسخها الإعلام الصهيونى على مدى عقود.

المعلقون والخبراء العسكريون الإسرائيليون أجمعوا - كما يبين الكتاب - على إخفاق الجيش الإسرائيلى فى الحرب، وكذلك على أن هذه الحرب كانت حافلة بالمفاجآت غير المتوقعة، وهى مفاجآت لم تشر فحسب إلى قوة الجانب الآخر وجاهزيته لخوض حرب من هذا النوع فى مواجهة جيش قوى حديث منظم، وإنما أيضاً أثارت شكوكاً حول قوة الجيش الإسرائيلى وأدائه، وكذلك الحال بالنسبة لاستخباراته.

يتضمن الكتاب آراء نحو تسعة عشر خبيراً إسرائيلياً من اتجاهات مختلفة، يقول أحدهم مثلاً فى مجلة «تخيلت» أن ثمة حاجة لاتخاذ خطوات وإجراءات فورية للحد من التبذير الصارخ فى المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، ويطالب وزير الدفاع بإصلاحات فى جهاز الاحتياط.. و«إحياء الروح الصهيونية التى تشكل حافزاً للدفاع عن الدولة».

ويشير موشيه يعالون رئيس الأركان السابق فى عدد آخر من المجلة إلى أن إسرائيل رغم توطيدها لمكانتها كقوة إقليمية فى المنطقة، فإن حقها فى الوجود كدولة يهودية مستقلة، مازال موضع خلاف وجدل.

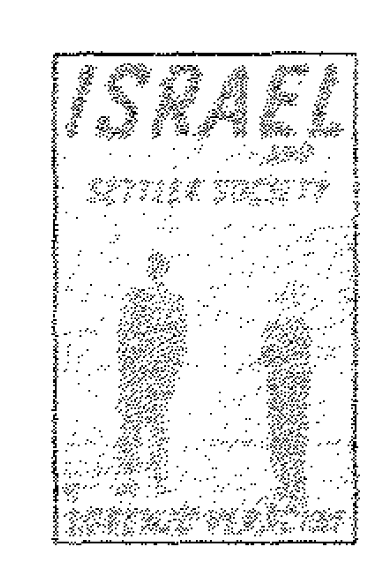
وتحت عنوان الضربة القاضية التى تلقيناها، يقول رؤوبين بدهستور وهو خبير استراتيجى جامعى إن حرب يوم الغفران (٦ أكتوبر) لا تزال محفورة فى الذاكرة الجمعية الإسرائيلية باعتبارها حدثاً انعطافياً تصدعت فى أعقابه ثقة الجمهور الإسرائيلى بالجيش، ومن السابق لأوانه القول بأن حرب لبنان ستذكر كخط انكسار يصحو الجمهور فى أعقابه من وهم القوة العسكرية الإسرائيلية غير المحدودة.

ويقول المعلق السياسى عوزى بنزيمان إن الحرب أثبتت حدود القوة العسكرية لإسرائيل وقوة الاستفزاز الكامنة فى تأييد مطالب الفلسطينيين والسوريين حيال إسرائيل.

ويؤكد «زئيف شيف» المعلق العسكرى لصحيفة «هاآرتس» أن الصواريخ كانت هى المفاجأة التى أعدها حزب الله لإسرائيل، تماماً كما كانت الصواريخ هى مفاجأة حرب يوم الغفران.

ويتساءل «يوفال شطانيتيس» عضو الكنيست من الليكود: هل الحديث هو عن فشل موضعى ناجم عن قيادة سياسية

إسرائيل والمجتمع الاستيطانى



صدر فى فبراير/شباط الماضى عن دار نشر بلوتو بريس كتاب بعنوان «إسرائيل والمجتمع الاستيطانى» للدكتور لورينزو فيراتشينى، وهو أكاديمى أسترالى، وباحث فى مرحلة ما بعد الدكتوراة بجامعة كانبرا الوطنية. ويبدو من الاطلاع على بعض أعماله أن اهتماماته لا تقتصر على الاستيطان الصهيونى، بل تتعداه لتشمل مختلف تجارب الاستيطان الأوروبى فى وطنه أستراليا، وغيرها من الأصقاع التى شهدت مشروعات استيطانية تراوحت بين الإخفاق والنجاح.

تنطلق رؤية لوريتزو فيراتشينى لطبيعة وبنية ومسار المشروع الاستيطانى الصهيونى من فكرة أساسية مؤداها أن الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين ليس فريدا أو متميزا بذاته، مهما كانت الانطباعات والتضمينات التى تجترحها وسائط الإعلام ومصادر الأخبار فى الغرب. يجادل فيراتشينى بأن أفضل طريقة لفهم هذا الصراع هى فى إطار وسياق الاستعمار (الكولونيالية).

وشأن كثير من المجتمعات الأوروبية خارج أوروبا، تظل إسرائيل مجتمعا استيطانيا بامتياز. ولدى النظر برؤية تفصيلية متفحصة إلى نشوء وتطور المنظومات والمشروعات الاستيطانية الأخرى -كنظام الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا، والاستيطان الفرنسى بالجزائر قبل الاستقلال، والاستيطان الأسترالى الراهن- يقدم فيراتشينى تفسيرا معمقا لمختلف حركيات وآليات (ديناميات) الاستيطان الاستعمارى، مما يتيح إطارا تفسيريا واضحا يمكن من خلاله فهم وتفسير أزمة الصراع فى الشرق الأوسط.

يتحدى فيراتشينى أسطورتين هامتين من الأساطير المؤسسة للكيان الصهيونى، ويرتكز عليها المشروع الاستيطانى. أولاهما: إن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى هو حالة فريدة فى العلاقات الدولية؛ تستعصى على المقاربات والمقارنات التى تفسر مختلف أشكال وحالات الصراع. ثانيتهما: أن مرتكزات الصراع الأساسية هى القومية والدين، وبالتالى فهو صراع مختلف عن صراعات وحروب (التحرر الوطنى) التقليدية الناجمة عن الاستعمار.

لكن على العكس من ذلك، يبين فيراتشينى كيف أن المجتمع الإسرائيلى قد تم تنظيمه بشكل متواز مع الخطوط العامة لنظام الفصل العنصرى.

ويعتبر فيراتشينى أن معظم الأفكار أو التصورات التى يقترحها الاستيطان الصهيونى فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين -من حكم ذاتى أو شبه دولة منزوعة السيادة ومفتقرة إلى التماسك الجغرافى والقدرة على الحياة- ترمى إلى عزل التجمعات السكانية الفلسطينية فى إطار ما كان يعرف فى جنوب أفريقيا بـ «البانتوستان»، وهى جزر منعزلة من السكان الأفارقة، تكرس فكرة الفصل العنصرى.

وفى سياق نزوع الأيديولوجية الاستيطانية نحو إنكار التاريخ الدموى الحقيقى للاستيطان وعدم الاعتراف بكوارث -تصل حد الإبادة- والتى أوقعها بالشعوب الأصلية، والإصرار على الاحتفاظ بالرواية الاستيطانية التقليدية، يقارن فيراتشينى بين إسرائيل وأستراليا. فكلتا الدولتين قد شهدت رفضا عاما ملحوظا إزاء القبول ببعض النتائج التى تقدمها دراسات المؤرخين الجدد (التصحيحيين) فى إسرائيل وأستراليا، خصوصا إذا تعلقت بتقييم العنف التأسيسى للمشروع الاستيطانى. ونادرا ما يتم استبدال أى جزء من الرواية الرسمية لتاريخ الكيان الاستيطانى بدون معركة.

ويعتبر فيراتشينى أن مستوى العنف الذى مارسه الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مؤشر على اتساع مدى خطة الاستيطان الصهيونى باتجاه طرد العرب من بلادهم، بل ويعتبر مجزرة دير ياسين -وغيرها من المجازر- دليلا على وجود مخطط كبير للمشروع الاستيطانى باتجاه اقتلاع العرب من فلسطين. ويرى المؤلف فى مصير مشروع الاستيطان الفرنسى الذى تفكك وانهار فى النهاية، واضطرار المستوطنين الفرنسيين إلى الخروج من الجزائر والعودة إلى فرنسا، يرى فيه نذيرا ومصيرا محتملا لمستقبل المشروع الاستيطانى الصهيونى.

د. مازن النجار

دار بلوتو بريس، فبراير ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة

عديمة التجربة، أم أن الأمر يكمن في عجرفة وكبرياء قيادة الجيش الإسرائيلي التي صمت الآذان عن النقد لاعتمادها المبالغ فيه على عجائب القوة الجوية.

انتقادات كثيرة عسكرية وسياسية يوجهها الخبراء لأداء الجيش الإسرائيلي في هذه الحرب، كما يشير الكتاب.

تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية

قاسم عبده قاسم

القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٦، ٣٢١ صفحة



لاتزال الحركة الصليبية تستأثر بجهود الباحثين والمؤرخين في الغرب الأوروبي وفي الشرق العربي الإسلامي على السواء، وهذا الكتاب نموذج للعمل الجماعي البحثي في هذا المجال، ففريق العمل الذي يقوده المؤرخ جوناثان رالي سميث أحد أبرز المتخصصين المعاصرين في الحركة الصليبية، يقدم خمس عشرة دراسة عن جوانب عديدة تتم دراستها لأول مرة في تاريخ الحركة الصليبية في عمل مشترك يحمل اسم أوكسفورد، حيث يتم تناول المسألة برؤية جديدة وفي جوانب مختلفة، التاريخ والفن التشكيلي والعمارة والموسيقى والآثار والشعر والرهبنة والأحوال الاجتماعية والمعارك العسكرية.

ويبرر سميث في تقديمه للكتاب هذا التنوع في دراسة الحملات الصليبية، بأنه كان من الصعب تصنيف السلوك في الحرب بالمصطلحات القديمة القاطعة عن البطولة أو الجسارة، كما أن النظريات التي تبرز مفهوم الحرب العادلة حظيت باهتمام أكبر، كذلك فإن محاكمات نورمبرج التي جرت على افتراض أن الجرائم يمكن أن ترتكب ضد الإنسانية، قد أعادت إحياء الاهتمام بالقانون الطبيعي.

وبينما يحتمل أن تكون التطورات الفكرية قد هيأت الناس للنظر إلى الحروب الصليبية بقدر أكبر من الوجدانية، فإن معظم التفسيرات لتورط مثل هذا العدد الكبير من الناس في الحركة الصليبية كانت لاتزال تدور حول أنها كانت تفتقر إلى العقلانية أو أنها كانت ترنو إلى المكسب المادي.

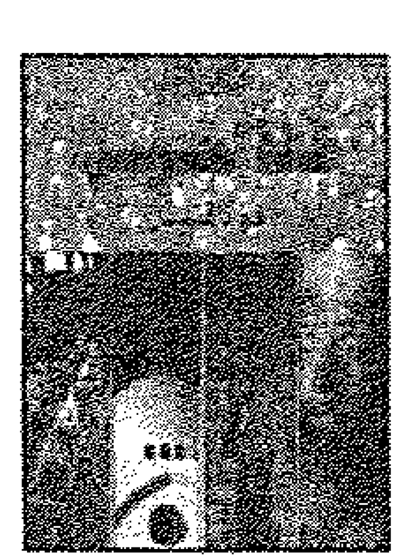
ويضيف في موضع آخر: كان المؤرخون غافلين عن الحقائق والبراهين بسبب نفورهم من العنف الأيديولوجي وعدم قدرتهم على فهم أنها كان يمكن أن تكون فعلاً دعوة مقنعة، إذ إنهم قد نسوا كيف كانت النظرية المسيحية عن العنف الإيجابي محترمة فكرياً.

ويشير المحرر إلى هذا الاهتمام بدوافع الفقراء في الحرب الصليبية، وهم الذين شكلوا عنصراً مهماً في الحملات الصليبية الباكرة، كما تجمعوا سوياً بين الحين والآخر في هبات شعبية في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، لكن هذا الاهتمام بالصليبيين الفقراء والذي كان تعبيراً عن حماسة حركات الجماهير التي كانت شائعة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، بدأ يتبخر عندما بات واضحاً أن ما يمكن معرفته عنهم قليل للغاية، وبدأت معظم الدراسات تتجه إلى كتابات المفكرين، رجال القانون الكنسي وعلماء اللاهوت، مفاهيم النبلاء والفرسان، مناقشات البابوات والمبشرين.

ثقافة المصريين

فؤاد قنديل

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٦، ١٣٦ صفحة



مم تتشكل ثقافة المصريين؟ وهل للمصريين جميعاً ثقافة واحدة أو ملامح ثقافية مشتركة تشابكت عبر القرون؟ سؤالان كبيران يجيب عنهما المؤلف عبر مقالات تراقب حركة الناس وترصد المصادر الرئيسية التي تشكل وعيهم في سعيهم اليومي بادئاً بتعريف معنى الثقافة التي يحصى لها أكثر من ثلاثمائة تعريف، مشيراً إلى تعريف تايلور الذي يجمع بين المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أو مهارات يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع معتبراً أن هذا التعريف هو الأشهر، وإن أشار إلى الإجماع على تعريف الثقافة بأنها مجموعة المعارف والقيم التي تتجلى في سلوك جماعة من الناس: أي أنه هنا يربط بين الأفكار وقدرتها على التغلغل في حياة الناس والتأثير في سلوكياتهم وتعاملاتهم، وهو ما يعرف بثقافة الجماعة دون تجاهل لخصوصيات الأفراد وتمايزاتهم عبر ما يحصلونه من ثقافة بشكل شخصي.

يتقافز المؤلف بعد ذلك راصداً سلوكيات المصريين وفهمهم لمعنى حقوق الإنسان والديمقراطية والتدين ومعنى النهضة وحقوق المرأة واحترامهم أو عدم تقديرهم لمعنى الاختلاف، ويشير كذلك إلى تأثير العشوائيات على سلوك الأفراد ومنظومة القيم لدى الشعب المصري في عمومه، ويؤكد على أن الوجه الحقيقي لثقافة الاستبداد ليس فقط في صورة الحاكم الديكتاتور وإنما يتجلى في مجالات العمل والتعامل بمختلف مناحي الحياة العربية، حيث تحتشد بذور الاستبداد وشرانقه لتتربى وتتجذر.

ويناقش في الفصل الثاني من الكتاب عدداً من المفاهيم حول منتج الثقافة ودور الأدب والفن في تشكيل الثقافة الجمعية وحدود حرية الأديب والمفكر وميثاق شرف المثقفين وغيرها من الموضوعات المهمة التي تؤكد أن النهضة لا تتحقق فحسب بتنمية الموارد وزيادة المداخيل، وإنما ببناء الإنسان وتنمية وعيه الثقافي والاهتمام بالأجهزة والمؤسسات التي تسهم في تقديم المنتج الثقافي.

ديمقراطية التعليم في الفكر التربوي النقدي

شبل بدران

القاهرة: عين للدراسات الاجتماعية والبحوث، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات



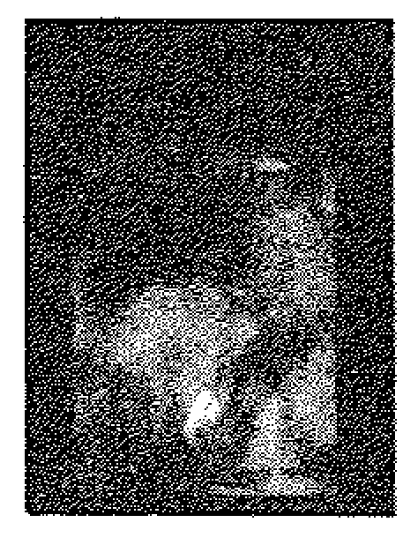
يتضمن الكتاب عدداً من الدراسات والأطروحات النظرية للاتجاه النقدي في الفكر التربوي في أوروبا وأمريكا، ويشير المؤلف وهو عميد لكلية التربية بجامعة الإسكندرية ورئيس اتحاد كتاب الإسكندرية، إلى أن هذه الحركة التجديدية في الفكر التربوي المعاصر، كانت محل انشغال العالم المتقدم بها منذ السبعينيات وحتى الآن، إلا أن حركة الفكر التربوي المصري والعربي، مازالت تدور حول مجمل أفكار جون ديوي، وما طرحه من خلال فلسفته التربوية الشائعة في واقعنا المعاصر، وظلت حركة الفكر التربوي النقدي بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين والمشتغلين بالعمل التربوي، وهو ما يسعى المؤلف إلى الاشتباك معه في هذا الكتاب وعبر دراساته كلها.

يتضمن الكتاب سبعة فصول، يتناول الأول الأبعاد الاجتماعية والتربوية للمنهج النقدي، والثاني: ديمقراطية التعليم في الفكر النقدي حيث يطرح المؤلف فيه النظريات التي عالجت مفهوم الديمقراطية التعليمية من زوايا عديدة. وفي الفصل الثالث: يدرس التعليم المدرسي في المجتمع الرأسمالي محاولاً الإجابة عن سؤال رئيسي هو: هل تستطيع المدارس أن تحقق المساواة، ويتناول الفصل الرابع: الإصلاح التعليمي والتغير الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية، ويعرض الخامس للتعليم غير العادل والتقسيم الاجتماعي للعمل، أما السادس فيدور حول اتجاهات معاصرة في الاقتصاد السياسي للتربية، ويركز السابع على ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص في المجتمع المصري بوصفه مجتمعاً رأسمالياً في التوجه والممارسة.

جرح بلا جداول

معروف الخضر

طرطوس (سوريا): دار قرطاج، ٢٠٠٦، ٨٣ صفحة



نصوص حرة كما يسميها المؤلف نفسه على غلاف الكتاب، كي يحصنها ضد التصنيفات الأدبية المتعارف عليها، فهي ليست قصائد تتعامل على هذا النحو، وإن كانت هي أكثر شعرية من كثيرين مما يكتب هذه الأيام بوصفه شعراً.

من أجواء الكتاب:

ورود ذابلة/ في أصيص من البلور/ فيما مضى/ أصحابها/ كانوا عبيراً/ وشهدهم الندى/ واليوم باتوا رحيلا/ أدخل كل يوم/ إلى بيتي/ أرى ذاك الصبوح/ واليوم/ فتحت باب بيتنا/ فلم أره/ من يومها/ صرت بلا روح.

والنصوص هي الرابعة للشاعر بعد دمع الصعاليك (٢٠٠١) ومباسم ولقاء (٢٠٠٣) وعلى ضفاف الأصيل (٢٠٠٤).

جهاز التعليم في إسرائيل

خالد أبو عصبة

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦، ٢٩٨ صفحة



جهاز التعليم في إسرائيل هو المسئول عن تفريغ هذه المقولة الكارهة لكل ما هو عربي ومسلم، هو الذي يشحن عقول التلاميذ بأسباب الغضب والعنصرية والرفض، ويشحذهم للقتل والتدمير بلا رحمة، والمفارقة أن أجهزة التعليم عندنا تحت دعوى التطوير ونشر فكر التسامح والتعايش وقبول الآخر، تنزع كل ما يشرح حقيقة اليهود والصهيونية حتى لو كان نصاً دينياً أو وقائع تاريخية.

فى ستة فصول يتحدث المؤلف عن هذا الجهاز: جهاز التعليم العبرى قبل قيام دولة إسرائيل، السياسة التربوية، مناهج التعليم ورؤية الآخرين، جهاز التعليم العربى فى إسرائيل، التعليم العالى، فجوات تعليمية فى جهاز التربية والتعليم الإسرائيلى.

ولأهمية هذا الجهاز فى إسرائيل فإنه يحظى باعتمادات مالية هائلة تتزايد بشكل سنوى، كما أن النقاشات الجادة لا تتوقف حول تطوير هذا الجهاز وتحسين أدائه، ويلاحظ المؤلف أنه إلى جانب تطوير شبكة التعليم التقليدية تطورت شبكة من المدارس البديلة التى تقدم خدمات تعليمية مناسبة للمدارس القائمة، وأن إحياء اللغة العبرية إحدى المهام الجسيمة التى تضطلع بها تلك المدارس، كما يؤكد على النمط الأيديولوجى المهنى للتعليم والذى رعته الحركة الصهيونية منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأن الدعم البريطانى للتعليم اليهودى لم يتوقف، وأن الأهداف القومية بما فيها تلقين الأيديولوجية الصهيونية ونشر اللغة العبرية بقيت تتصدر سلم الأولويات التربوية على امتداد فترة الاستيطان وصولاً إلى قيام الدولة، فقد كان الجهاز التربوى أداة تستعملها الحركة الصهيونية لإنتاج المعنويات القومية وتعميمها فى سبيل بلورة «الإنسان الجديد»، كما أطلقوا عليه فى الدولة العبرية، إلى جانب التشديد على أهمية الجماعة والارتقاء بأهدافها إلى ما فوق الأهداف والمصالح الفردية، واستعداد الأشخاص للتضحية فى سبيل هذه الأهداف، وتعميق الفكر الصهيونى وتنمية النزعة القومية اليمينية لدى الطلاب، وتوظيف الصراع العربى الإسرائيلى فى هذا المجال، وعلى العكس من ذلك، بقى جهاز التعليم العربى يعانى من الإجحاف ونقص التمويل وضعف الموارد، وإقصاء العرب تماماً عن المشاركة فى وضع سياسة هذا الجهاز.

حزب البعث العربى الاشتراكى يحكم سوريا

سمير عبده

دمشق: منشورات دار حسن ملص، ٢٠٠٦، ١٥٢ صفحة



حكم حزب البعث الاشتراكى سوريا لمدة تتجاوز ضعف عمر سوريا الحديثة منذ نالت استقلالها عن فرنسا، ويتناول هذا الكتاب أحداثاً سياسية عصفت بسوريا فى الفترة من ٨ مارس عام ١٩٦٣، وحتى ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠، وهى بدورها تنقسم إلى قسمين: المرحلة الأولى من مارس ١٩٦٣ وحتى ٢٣ فبراير ١٩٦٦ التى سميت بالمرحلة القومية أو اليمينية لحزب البعث، أما المرحلة الثانية التى تمتد من ٢٣ فبراير ١٩٦٦ وحتى ١٦ نوفمبر ١٩٧٠، فهى تعرف بالمرحلة القطرية أو اليسارية لحزب البعث.

وقد مثلت المرحلة الأولى فترة استلام حزب البعث العربى للسلطة فى سوريا، ومنها برزت التناقضات بين أعضائه إلى أن تم حسم الأمر بين اتجاه قومى وآخر يسارى، وتغلب الأخير على الأول وأطاح به ليتسلم السلطة بعد فبراير عام ١٩٦٦.

وفى المرحلة الثانية طغت الأطروحات والنظريات اليسارية من أقصاها إلى أدناها، وكانت محصلتها صراعاً بين جناحين قادهما حافظ الأسد وصلاح جديد، ولم يكن الخلاف بين الجناحين فى العمق بقدر ما كان خلافاً حول التكتيك والاستراتيجية. وحين انتهت هذه المرحلة وقامت حركة التصحيح فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ بدأت مرحلة جديدة من حياة الحزب، لم يعد فيها أجنحة متصارعة داخل الحزب الواحد، ولم يعد هناك تيار يمينى أو يسارى، وتمكن الحزب من تجاوز الكثير من أخطاء الماضى.

ويشير المؤلف فى تحليله إلى أن حزب البعث جاء إلى السلطة فى سوريا على أساس نظام علمانى قائم على عصبيات ما دون طائفية، وقد سعى إلى إعطاء مختلف الفئات التى تشكل أقليات تاريخية فى البلاد فرصاً للكسب وتبوؤ مراكز مهمة، وتشكل فى كنف هذا الحزب برجوازية طفيلية اختلط فى صفوفها البعثى بغير البعثى، والعسكرى بغير العسكرى، وتحولت هذه الطبقة إلى الحلقة الأهم فى صناعة القرار فى النظام السورى متغلغلة فى معظم الميادين والمشاريع.

أحمدى نجاد رجل فى قلب العاصفة

عادل الجوجرى

دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٦، ٣٣٥صفحة



يمثل أحمدى نجاد بمواقفه الراديكالية فى مواجهة الأمريكان والغرب حالة استثنائية، خصوصاً فى هذه الفترة التى يبحث فيها العرب والمسلمون عن صقر وسط الحمائم، وما يصدر عن الرجل من تصريحات: وما يطرحه من رؤى يضع بلاده فى مواجهة صارمة وحاسمة مع القوة الأكبر فى العالم، ولا أحد يعرف إلى أين تقوده المواجهة.

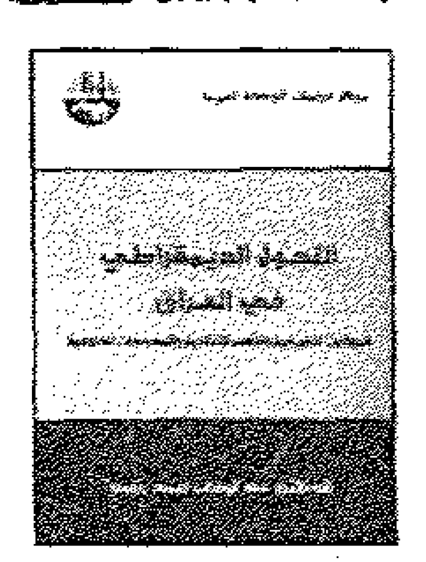
من هو الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد: كيف استطاع أن يجمع بين أسطورة المحارب فى الحرس الثورى، ودرجة الدكتوراة فى الهندسة وأستاذية الجامعة، أى ريح وضعته على أعتاب السلطة ما بين الظل والضوء حين صار محافظاً للعاصمة طهران، كيف استطاع أن يحصل على ثقة ١٧ مليون ناخب إيرانى، وأن يطيح بالكبار فى لعبة الكراسى الديمقراطية؟ لماذا صاحبته العواصف الغربية والصهيونية والأمريكية وكأنها كانت تختبئ وراء الباب فى انتظار الرجل الذى يستدعيها بتصريحات ثورية عن مستقبل إسرائيل، وبإجراءات عملية لبناء القدرة النووية الإيرانية.

هذا الكتاب يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال الوثائق والشهادات والتحليل السياسى الموضوعى والمحايد لسيرة الرجل.

التحول الديمقراطى فى العراق

عبدالوهاب حميد رشيد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٨٨ صفحة

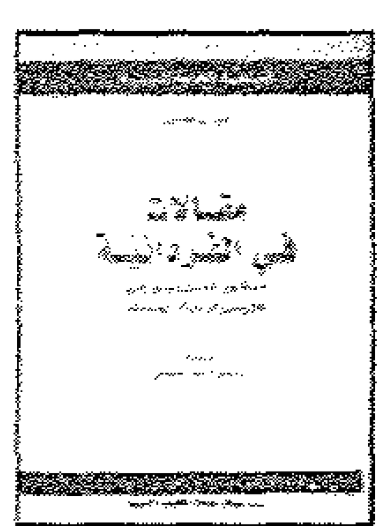


فى هذا البحث محاولة لتحليل إشكالية التحول الديمقراطى فى العراق، ولا تقتصر لفظة «إشكالية» هنا على المشكلات فحسب، بل تعنى أيضاً المتطلبات والمستلزمات والشروط اللازمة للتحول الديمقراطى. وإذا كانت هذه الإشكالية فى ظروفها الحالية تشكل خطراً وتهديداً لأية مسيرة دستورية فى البلاد، علاوة على كونها مرتبطة بحلول بعيدة الأمد تتطلب جهوداً مجتمعية واعية ومتواصلة، وتسير نمطياً مع مسيرة التحول المنشودة، فإن هذا البحث كذلك يفترض أن عملية البناء الدستورى والبدء بالتحول الديمقراطى يتطلبان بروز جبهة وطنية تاريخية فعالة تقود مهمة إنهاء الاحتلال وبناء الاستقلال وقادرة على تعبئة أكثرية الناس بمختلف أطيافهم ومجموعاتهم فى إطار قبولهم وتبنيهم برنامج حد أدنى، واقعياً يتسم بالوضوح الفكرى والمفاهيمى، مرناً وواقعياً ومتناسباً مع قدرات ومتطلبات المجتمع، وفى سياق إعادة بناء إرادة الإنسان العراقى.

مقالات فى الفردانية

ترجمة: بدر الدين عرودكى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٣٩٠ صفحة



من خصائص الأيديولوجية الحديثة أنها تخضع الكلية الاجتماعية للفرد، باعتباره كائناً «معنوياً» مستقلاً بذاته. هذه الأيديولوجية تميز بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى التى تعطى قيمة للكلية الاجتماعية وتخضع الفرد لها.

لكن كيف ولماذا اختلف الغربيون عن الآخرين؟

فى هذا الكتاب تحليل عميق لتشكل الفردانية الغربية ولصيرورتها الدينية والسياسية، منذ بدايات العصر المسيحى إلى اليوم.

وهو، مع حرصه على التوعية بما للغرب من فرادة، لا يكتفى بالتفكير فى الاختلافات الأيديولوجية، وإنما ترسم مسارات ذكية نحو كونية ملموسة هى حصيلة مقارنة مستمرة بين الأشكال المختلفة للإنسانية.

لقد اعتمد المؤلف فى تناول الفردانية مقارنة كلية تتجاوز تناول الكونى، مستقلاً عن الاختلافات والخصوصيات، كما تتجاوز التصنيفات المعهودة للمجتمعات حسب ترسيمات جامدة.

هذا التناول يزعزع كثيراً مما هو سائد من رؤى ومقاربات.

الأحزاب المصرية عبر مائة عام

يونان لبيب رزق

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ٢٦٠ صفحة



بهذا الكتاب يستكمل المؤلف جانباً من رحلة بحثه الحداثية التى بدأها عام ١٩٧٠ بصدور كتابه «الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى

١٨٨٢ - ١٩١٤»، ثم كتابه «الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢» الصادر عام ١٩٧٥، ثم «تاريخ الأحزاب المصرية» عام ١٩٩٧.

وهذا الكتاب الذى يرصد التجربة الحزبية المصرية منذ نشأتها فى ١٩٠٧ وحتى اليوم يؤكد على خصوصية التجربة المصرية من حيث النشأة، التى انعكست بدورها على المفهوم.

فقد نشأت هذه الأحزاب لمواجهة التدخل الأجنبى فى شئون البلاد، ثم الاحتلال الإنجليزى بدءاً من عام ١٨٨٢، وقد بدأت على شكل تيار يضم جماعة الوطنيين الذين عارضوا الاحتلال، فأطلقوا على أنفسهم الحزب الوطنى، وهو عكس نشأة الأحزاب فى أوروبا التى انبثقت أساساً من داخل النظام البرلمانى ممثلة للقوى الاجتماعية وتعبيراً عن مصالحها.

كما أن الأحزاب التى نشأت فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى نشأت أساساً حول الصحف الكبيرة التى كانت تصدر فى تلك الفترة وأهمها صحيفة المؤيد التى صدرت عام ١٨٨٩ وتبعتها جريدة اللواء عام ١٩٠٠، فيما كانت الصحف فى أوروبا تصدر لتكون لسان حال الحزب لا أن يخرج الحزب من عباءة الصحيفة.

والسمة الثالثة هى أن الأحزاب فى مصر نشأت بمعزل عن البرلمان فيما نشأت الأحزاب الأوروبية فى أحضانه.

والكتاب يؤكد من ناحية ثانية فكرة التواصل، وهى ظاهرة ممتدة فى أنساق الثقافة المصرية عموماً.

فالتجربة الحزبية الأولى ١٩٠٧-١٩١٤ تمتد ظلالها فى التجربة الثانية ١٩١٩ - ١٩٥٣، ثم التجربة الثالثة منذ ١٩٧٦ بإعادة التعددية وحتى اليوم.

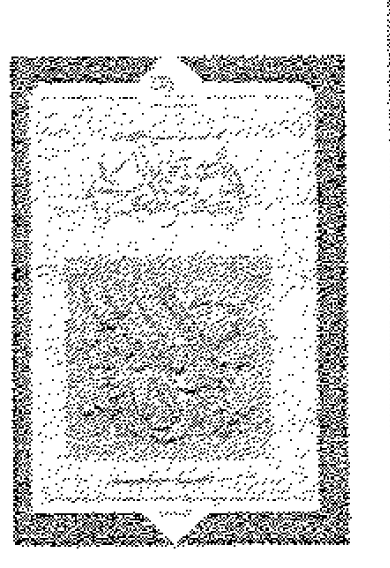
والمؤلف يعرض للتجارب الثلاث كاشفاً عن الظروف التى أحاطت بكل منها، مستنداً إلى وثائق وزارة الخارجية البريطانية وأوراق الأحزاب والمذكرات الشخصية للزعماء، وقائمة طويلة من الدوريات والرسائل الجامعية.

ويضيف المؤلف إلى ذلك دراسة تحت عنوان: «ثقوب فى التجربة الحزبية الثالثة»، يتناول فيها أصداء إعلان الرئيس مبارك فى فبراير ٢٠٠٥ عن نيته لتعديل المادة ٧٦ من الدستور، وهى المادة الخاصة بطريقة تولى رئيس الجمهورية لمنصبه ليصبح بالانتخاب بدلاً من الاستفتاء، وهى المادة التى أثارت كثيرا من الجدل منذ صدورها ويطالب كثير من القوى السياسية بتعديلها.

مدخل رياضى إلى عروض الشعر العربى

د. أحمد مستجير

دار العين للنشر، ٢٠٠٥، ١٦٥ صفحة



فى لفتة كريمة، أعادت دار العين للنشر العام الماضى إصدار كتاب مدخل رياضى إلى عروض الشعر العربى للعالم والشاعر والناقد الراحل الدكتور أحمد مستجير والذى كانت «وجهات نظر» قد نشرت مقدمته فى العدد الماضى.

ومن شأن إعادة إصدار هذا الكتاب المهم تسليط الأضواء مجدداً عليه بعد سنوات من نفاد طبعته الأولى التى أصدرها المؤلف الراحل على نفقته الخاصة فى النصف الثانى من ثمانينيات القرن الماضى.

ويقدم الكتاب رؤية مختلفة فى موسيقى الشعر العربى، من شأنها أن تلغى الكثير من المشاكل فى علم العروض؛ وأن تبسط أمره لكل من يود معرفته.

وأن تصف بعضاً جديداً من خصائص الأذن العربية، وأن تفتح طريقاً لنوع جديد من الدراسات الموسيقية فى الشعر.

وهو يبين توحد الشاعر والرياضى فى موسيقى الشعر العربى.

ويكشف ويؤكد أن ثمة نظاماً رياضياً يكمن خلف ما تحبه الأذن العربية من أوزان، نظام تخرج منه كل البحور المهملة والمصطنعة، ويتحكم رقم تفعيلة العروض فيه فى تركيب الأبحر التى تستسيغها آذاننا.

ويكشف لنا النقاب عن هذا النظام. وقد استطاع الكاتب تحويل فكرة الأدلة الرقمية لبحور الشعر - التى هى هذا الكتاب - إلى إنجاز فعلى فاستطاع أن يضع نظاماً بسيطاً للوصف الرياضى لبحور الشعر، وطور هذه الطريقة، التى نشأت عن علاقة مع الحاسب الآلى، فطوعت الشعر له، لكنها تجاوزت هذه العلاقة لتصبح ناتجاً ثانوياً بالنسبة إلى نتائجها الأخرى.

فقد أوضحت هذه الطريقة الكثير من أسرار بحور الخليل، وأصبحت تمثل صيغة «عصرية» لعلم العروض.

وقد تختلف قليلاً عما قال به الخليل، لكنها تؤكد بعد مضى أكثر من ألف عام عبقرية هذا العالم العربى.

المازنى.. صورة من قريب

من «جمع وتحرير وتقديم» الأستاذ عبدالسلام حيدر - أصدر «المجلس الأعلى للثقافة» الأعمال غير المنشورة للأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازنى تحت عنوان «التأملات والذكريات» - وذكر الجامع أنه سينشر هذه الأعمال على أساس موضوعى بحيث يقسمها إلى ثلاثة أقسام: قسم التأملات والذكريات، ويقع فى المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة، ويضم ما نشره المازنى من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها، وحول الحياة بصفة عامة. وأما المجلد الثانى فيضم ما تيسر جمعه من «المقالات والدراسات النقدية» - ويخصص المجلد الثالث لقسم «الأشكال السردية» - سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصى أم طويلة مثل الرواية - أما رحلات المازنى فسوف يخصها الجامع بمجلد خاص - بقيت المقالات الاجتماعية والسياسية، خاصة تلك التى نشرها فى أخريات حياته، ويذكر الجامع أنه لم يرتح بعد إلى طريقة مناسبة لنشرها - وإنه لما نذكره أنه ترد ضمن هذه الطائفة الأخيرة من المقالات ما عرض فيه المازنى - للمسألة الفلسطينية عرضاً موسعاً لو أتيح نشره لما ترددنا أن نقرر أنه إنما يتحدث عن الواقع الذى نعيشه هذه الأيام!!

وإذا كان الأستاذ عبدالسلام حيدر - يذكر أن ما نشره فى هذا المجلد، وما هو بصدد نشره فى المجلدات الأخرى التى قد تكون ثلاثة، وقد تكون أربعة إذا ارتاح إلى طريقة مناسبة لنشر المقالات السياسية والاجتماعية، إلا أنه لم يوضح لنا ما إذا كانت هذه المجلدات الثلاثة أو الأربعة ستضم أيضاً أعماله التى سبق نشرها فى كتب أم ستقتصر على «الأعمال غير المنشورة» وإن كنا نتمنى أن تضم - فى مجلدات أخرى - ما سبق نشره علاوة على ما لم يسبق نشره، فبذلك يصدق عليها وصف الأعمال الكاملة، وهو ما ندعو الله أن يوفقه إليه فى ظل «اعتمادات مالية» كثيراً ما يتعذر تدبيرها!

وقد قدم الجامع للمجلد الأول ببحث شيق، قدم - أو رسم - فيه «صورة من قريب» للأديب إبراهيم عبدالقادر المازنى، ووعد بتقديم كل قسم بمقدمة خاصة يشير فيها إلى بعض خصائص الأعمال المنشورة فيه.

وهى صورة للمازنى ضمت جميع الزوايا.. لم تقف عند «تاريخ حياته»، بل حرصت على أن تصور - وترصد - خطواته فى سبيل تكوين نفسه كإنسان يواجه حياة صعبة قاسية، فقد جفت الموارد، ونضب المعين، وكان عليه منذ صباه أن ينهض بأعباء جسام، فقد مات أبوه وهو صغير، ولم يترك له إلا النزر اليسير، وكان على أمه أن تمضى بهذا النزر لتصل بالقافلة إلى بر الأمان، ولذلك عاش المازنى، وهو يذكر أمه بكل خير، بل ويشيد بذكرها، وبحكمتها، وصلابتها، حتى لقد أصابته أزمة عقب وفاتها استغرقت منه جهداً ووقتاً حتى عبرها، وقد أمكن له من ذلك الدخل الضئيل أن يواصل دراسته حتى منتهاها، وحصل على شهادة المعلمين العليا متخصصاً فى اللغة الإنجليزية، وقد أكسبته دراسته وقراءاته مقدرة نادرة على الترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية حتى ليذكر عنه - كما يروى صنوه العقاد - أنه كان يجلس أمام الآلة الكاتبة، وعن يمينه الكتاب الذى يريد ترجمته، فتكفيه النظرة، لينقل المعنى فى أحسن عبارة - وأسلمها - وما إن ينتهى حتى يسلم الصفحات التى تضم ترجمة كاملة قد صيغت فى أحسن عبارة، دون أدنى مراجعة أو تصحيح، وتلك هى التى سماها العقاد «عبقرية الترجمة».

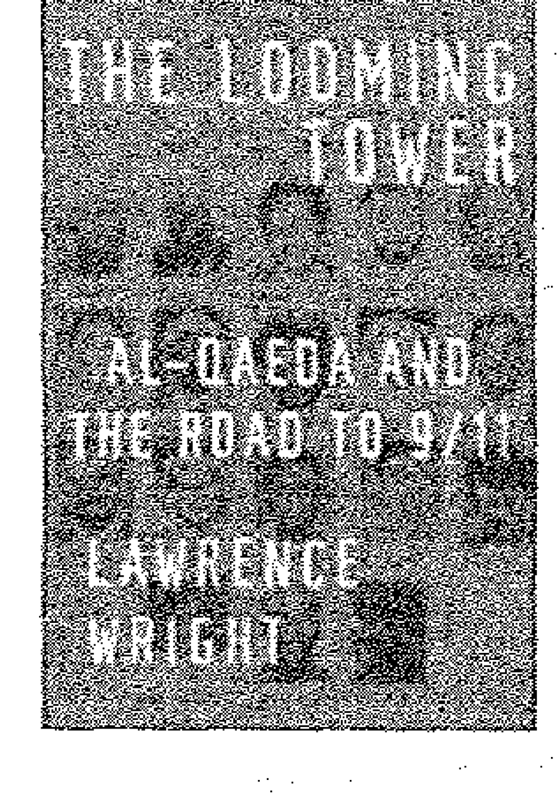
وتبلغ صفحات المجلد الأول ٧٣٦ صفحة، وقد ضمت فضلاً عن التقديم والصورة التى رسمها الجامع للمازنى - المجموعة الأولى من مقالات المازنى التى لم يسبق نشرها، والتى اختار لها الجامع عنوان: «التأملات والذكريات» وهو عنوان لا أعتقد أن المازنى كان يرتضيه لو أن له الخيار، فمن أطلق على مجموعاته «حصاد الهشيم» و«قبض الريح» و«خيوط العنكبوت» كان حرياً، كما قال فى بعض ما كتب أن يختار لهذه المجموعة عنوان: «باطل الأباطيل» - أو ما هو من قبيله -، فقد ذكر أنه هم بأن يختار هذا العنوان لبعض ما كان ينتوى جمعه.. ولا نقف عند العنوان طويلاً، فهو فى رأى «الجامع» عنوان معبر عن الموضوع الذى يجمع هذه المقالات، حيث إن الجامع حرص على «التقسيم الموضوعى» فى نشره للأعمال غير المنشورة.

والمجموعة الأولى التى بين أيدينا تضم ١٣٢ مقالاً، ليس منها مقال يمكن أن يوصف بأنه قد بعد به العهد، أو يتجافى مع روح العصر، أو يعيدنا إلى «أيام زمان».. ورغم أنها ترجع إلى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى، فإنها لا تفترق عما يمكن أن يكتب أو ينشر فى هذه الأيام، فيما لو كان من بين كتاب اليوم بعض من يضاهى المازنى: دقة تعبير، وخفة روح، وصدق نظرة، وعمق تفكير.. فضلاً عن حسن التناول. لا نقول هذا من قبيل المبالغة، أو إعلاء قدر كل ما هو قديم، وإنما نقوله تقريراً لواقع، وإحقاقاً لحقيقة واضحة ومؤكدة.

ولم تقف موضوعات المجموعة عند التأملات والذكريات، فقد اتسعت فى الواقع، وتعددت، وتنوعت بحيث شملت الكثير من جوانب الحياة والفكر، والأدب، والإبداع، وإن اتسمت جميعها بالصدق، والصراحة، والمضى قصداً إلى الهدف، حتى لو كان الهدف هو التهرب من الإجبار على قول لا يريده، أو إبداء رأى لا يوافق عليه.

أحمد السيد عوضين





The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11

(البرج المرتقب، طريق القاعدة إلى ٩/١١)

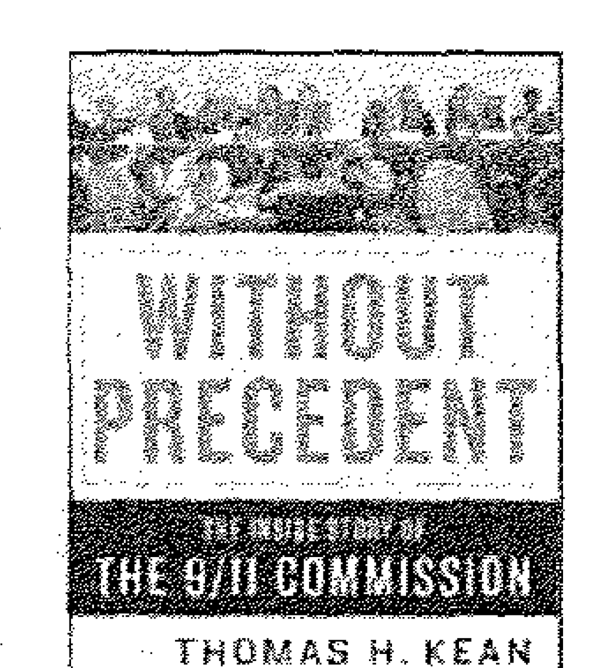
Lawrence Wright

Knopf, 2006, 480PP, 27.95$

كتاب من أكثر الكتب اهتماما بتأريخ نشاط القاعدة، بدءا من الغزو الروسي لأفغانستان عام ١٩٧٩، والمساعدات الأمريكية والإسلامية العديدة لأفغانستان لمقاومة الغزو.

شكلت القاعدة عام ١٩٨٨ بقيادة أسامه بن لادن، وكانت أولى نقاط جدول أعمالها معاداة أمريكا. بعد ذلك بعشرة أعوام، فجرت القاعدة سفارات أمريكا في أفريقيا والمدمرة كول.

الكاتب يمر بتاريخ القاعدة وعملياتها، ويتعرض إلى طريقة عمل الوكالات الأمنية الأمريكية في مكافحة الإرهاب، ويصل الكاتب إلى أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ما كانت لتحدث لو تعاونت تلك الوكالات فيما بينها.



Without Precedent: The Inside Story of the 9/11 Commission

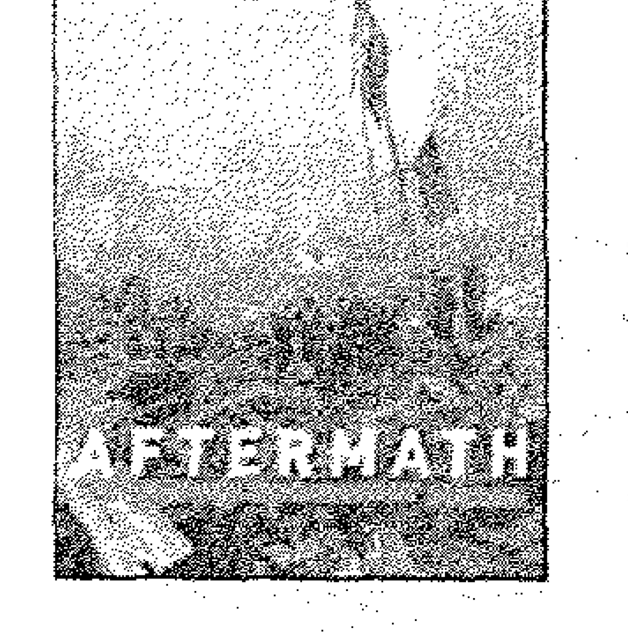
(بدون سوابق: قصة تقرير لجنة ٩/١١)

Thomas H. Kean, Lee H. Hamilton

Knopf, 2006, 384PP, 25.95$

تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر، كان مختلفا عن جميع المنشورات الحكومية الأمريكية، فقد جاء في لغة سهلة وطرح في الأسواق بصورة واسعة محققا مبيعات ضخمة.

الكتاب يتناول القصة حول تلك اللجنة، كيف تشكلت وكيف كانت تعمل، أعضاؤها وانتماءاتهم السياسية، ومدى تأثير ذلك على أرائهم داخل اللجنة، كما يتناول الكتاب معارك اللجنة مع الكونجرس ومحاولة وصولهم إلى الوثائق السرية.



Aftermath: Unseen 9/11 Photos by a New York City Cop

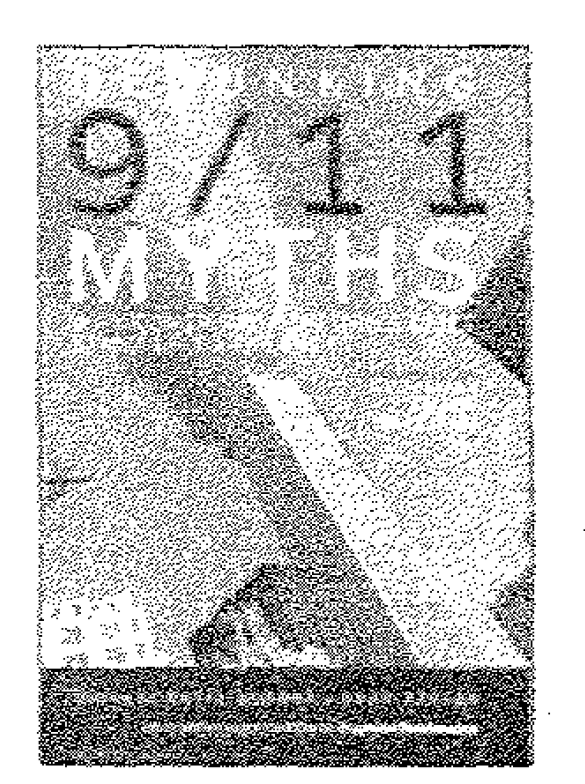
(آثار الكارثة)

John Botte

Regan Books, 2006, 224PP, 44.95$

في الذكري الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، يصدر «جون بوت» كتابه المصور عن هذا اليوم، «بوت» كان شرطيا بمدينة نيويورك، كلف بعد الحادث بتوثيقه فوتوغرافيا. يقول «بوت» عن هذا اليوم، «أمضيت مع الآلاف الآخرين ممن فقدوا أحباءهم تلك الأيام، فقدت أصدقاء هناك، وكانت هذه الحادثة سببا لتقاعدي من مهنتي التي أحبها، فقد أصبت بربو رئة مزمن».

مع مائة وثلاثين صورة بالأبيض والأسود، ملحقين بتعليق من المصور، نرى الدمار الذي خلفته الحادثة، نرى تلال الرماد، والدخان في كل مكان، والناجين والفاقدين لأسرهم وأحبائهم.



Debunking 9/11 Myths: Why Conspiracy Theories Can't Stand Up to the Facts

(فضح أساطير ٩/١١)

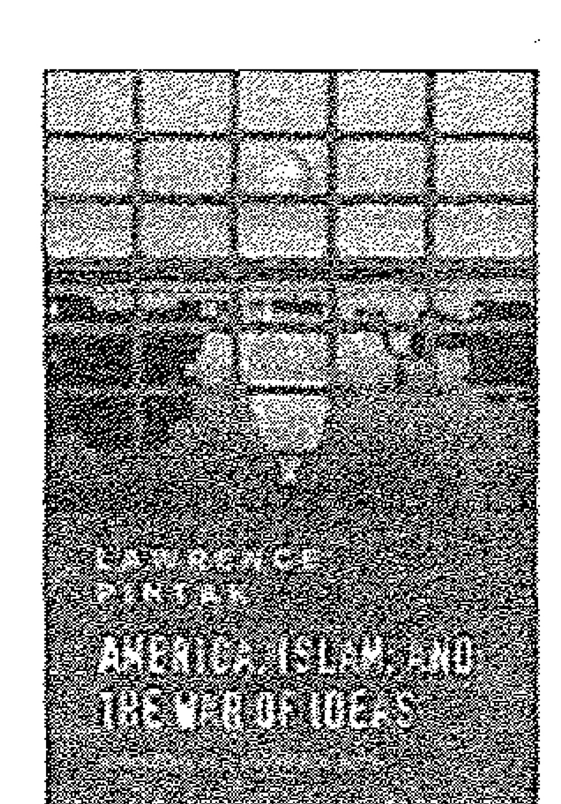
David Dunbar , Brad Reagan

Hearst, 2006, 192PP, 12.98$

العديد من نظريات المؤامرة التي ظهرت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حاولت إثبات تورط الحكومة الأمريكية في الأمر، سواء بالتواطؤ، أو حتى بتنفيذ تلك الأحداث، المؤلفون يرون أن تلك النظريات غير مستندة إلى دلائل ولا حتى أسباب منطقية.

المؤلفون يتعرضون إلى أكثر عشرين نظرية شيوعا بالنقد، مثل نظرية أن البنتاجون لم تضربه طائرة، أو أن انفجار الطائرتين في برجي التجارة لم يكونا السبب الرئيسي وراء انهياره.

يأتي النقد من خلال العديد من شهادات العلماء البارزين في الطيران والدفاع الجوي والهندسة والعسكريين.



America, Islam, and the War of Ideas Reflections in a Bloodshot Lens

(أمريكا، الإسلام وحرب الأفكار)

AWRENCE PINTAK

AUC Press, 2006, 394PP, 29.95$

الصحفي المخضرم ومراسل أخبار السي بي إس السابق «لورانس بينتاك» يتعرض في هذا الكتاب للاختلاف الأساسي في الفهم بين الأمريكان من جانب والمسلمين من جانب آخر، الذي يعتبره نتيجة طبيعية للانقسام الدائم منذ قرون والعلاقة التضادية السائدة.

يري «بينتاك» أيضا أن الإعلام المُسيطر عليه من قبل أجهزة الدولة على الجانبين، كان سببا في تفاقم المشكلة. فالقادة والزعماء على الجانبين على السواء لا يعرفون أو لا يفهمون كيف تؤثر كلماتهم على مصير العالم بشكل عام علي المدى الطويل.

الكتاب يستكشف كيف يُصوَّر الإسلام بوسائل الأعلام الأمريكية، وكيف تتعرض وسائل الإعلام العربية والإسلامية لأمريكا وسياستها، وكيف يؤدي سوء الفهم والتحريف الذي تقوم به وسائل إعلام الجانبين إلى كوارث كبرى.

Perfect Soldiers: The 9/11 Hijackers: Who They Were, Why They Did It

(جنود مثاليون)

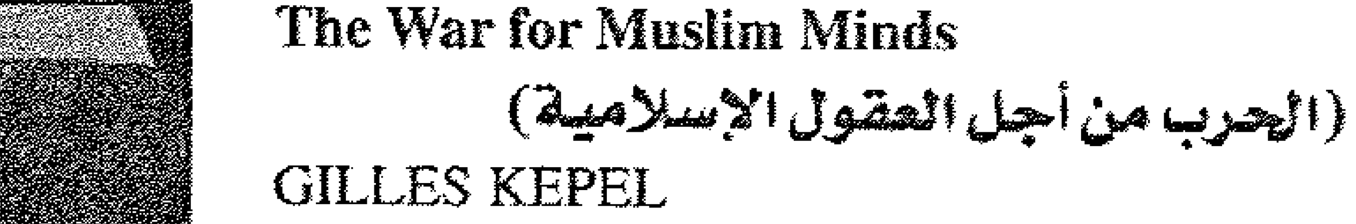
Terry McDermott

Harper Paperbacks; Reprint edition, 2006, 368PP, 14.95$

«تيري ماك ديرموت» أمضى ثلاثة أعوام في دراسة شخصية منفذي أحداث الحادي عشر من سبتمبر، قابل خلالها العديد من أصدقائهم، وجمع العديد من الوثائق التي تشير إليهم، ليقوم بإخراج هذا الكتاب.

يبدأ الكاتب بنبذة سريعة حول القاعدة وكيفية نشأتها، متعرضا لشخصية المجاهدين الإسلاميين في حرب أفغانستان، ثم مدى التأثر الحادث في الشخصية الإسلامية والعربية نتيجة غزو العراق للكويت وتدخل القوات الدولية، والحصار الأمريكي للعراق.

جنود فدائيون، لم يكونوا يوما متطرفين دينيا، ولم يكونوا يوما فقراء، وافقوا علي الموت، ورحبوا به، ودربوا من أجله، وقاموا بمهمتهم خير قيام. هذا ما يدور حوله الكتاب.



The War for Muslim Minds

(الحرب من أجل العقول الإسلامية)

GILLES KEPEL

Translated by Pascale Ghazaleh

AUC Press, 2006, 336PP, 24.95$

كان لتعطل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ دور كبير في بداية دوامة العنف والدموية التي كان احد شواهدها أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وخاصة مع بداية الثورة المحافظة في الولايات المتحدة التي أدت إلى زعزعة السياسة الأمريكية الشرق أوسطية، التي اهتمت في تلك الفترة بالأمن الإسرائيلي، ونفط الخليج فقط.

كان لهذا أثره على الراديكاليين الإسلاميين الذين رأوا أن السياسة الأمريكية وصلت إلى الحد الذي يستوجب معه نقل ميدان العمل الإرهابي من الأراضي الإسلامية إلى الغرب فأعلن «بن لادن» ورفاقه الجهاد ضد أعدائهم عالميا.

«كيبيل» يتحرى، في هذا الكتاب، تأثير الإرهاب العالمي والعمليات العسكرية التي تتبعه، ويشكك بقدرة الولايات المتحدة على مواجهة هذا التحدي على طريقة خطابات الحرب الباردة، كما يقترح مخرجا لمستنقع الشرق الأوسط يخدم مصالح أطراف النزاع، الإسلاميين والغرب والنخبة العربية والإسلامية الحاكمة، محددا شروطا لقبول إسرائيل، ولتطبيق الديمقراطية في المجتمعات العربية والإسلامية، موصيا الغرب بمحاولة الفوز بقلوب وعقول المسلمين.



Forever After: New York City Teachers on 11/9

(دوما في الأثر)

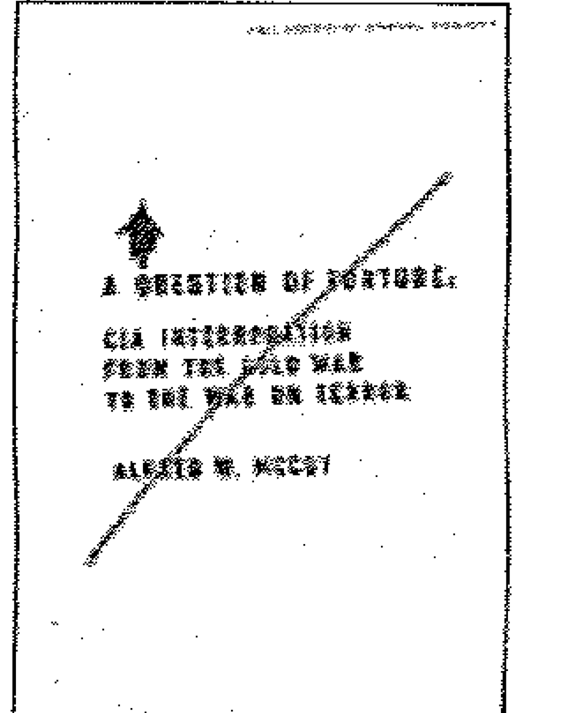
Maureen Grolnick

Teachers College Press, 2006, 253PP, 17.95$

لم يكن أكثر من ٨٥٠٠ طالب و٤٠٠ مدرس في ذلك الصباح، يعلمون أن حياتهم ستكون مهددة بعد ساعتين، وأنهم سيهرعون للنجاة بحياتهم.

«جرولنيك» يحكي قصصا لم تحك من قبل عن الوقائع التي حدثت بمدارس نيويورك بعد الحادث مباشرة. كيف شهدت بعض المدارس فوضى كبيرة، وكيف كان، على العكس، البعض الآخر منظما إلى درجة كبيرة.

من خلال سبع عشرة قصة يستعرض الكاتب ما حدث فعلا بمدارس نيويورك ذلك الصباح، ثم يعرض رأيه الشخصي حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكيف أثرت في حياة المعلمين.



Question of Torture : CIA A Interrogation, from the Cold War to the War on Terror

(سؤال عن التعذيب)

Alfred McCoy

Metropolitan Books, 2006, 304PP, 25.00$

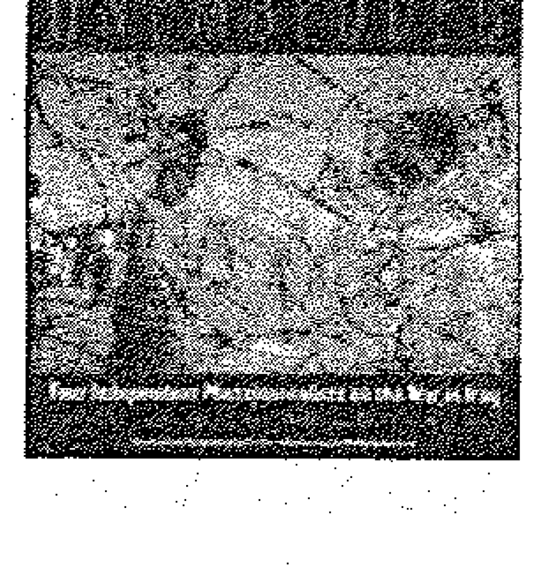
أستاذ التاريخ بجامعة (ويسكنسن ماديسن) «الفريد مكوي»، يقيم محاكمة تخيلية لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) حول قضايا التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان منذ الحرب الباردة وحتى الحرب على الإرهاب الدائرة الآن.

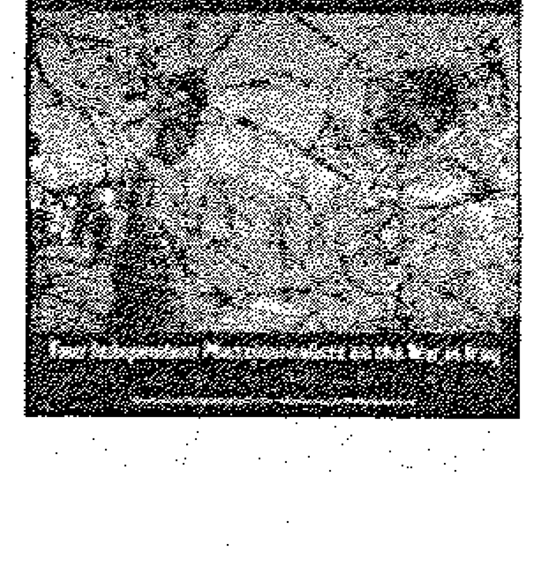
يكشف الكاتب عن تطور وسائل التعذيب النفسي والجسدي خلال الخمسين سنة الأخيرة، من الحرب الباردة إلى أبو غريب، وما بعده.

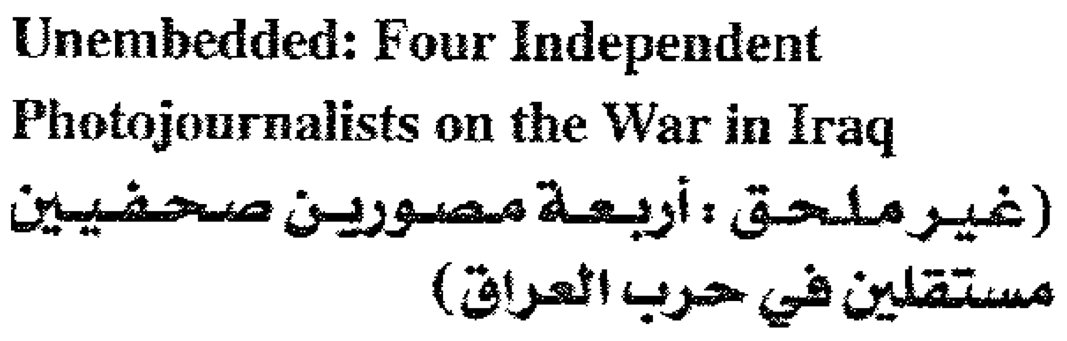
يرى الكاتب أن الفضائح الأخيرة التي شهدها سجنا أبو غريب وجوانتانامو لم تكن نتيجة لانحرافات قلة، كما ادعى البيت الأبيض، وإنما هي نتيجة طبيعية وتطور منطقي للبرنامج التي تتبعه الولايات المتحدة في الاستجواب، المبني بشكل رئيسي على الحرمان الحسي والألم الذاتي الذي يشكل هجوما شاملا على أحاسيس الضحية مدمرا قاعدة الهوية الشخصية لديه، ولعل أقدم وأبسط الطرق في التعذيب في العالم تشكل جانبا هاما من ذلك البرنامج مثل العزلة وتغطية الرأس وإجبار السجناء على الوقوف لساعات وتعريضهم لدرجات حرارة حادة الارتفاع أو الانخفاض.

«مكوي» يتعقب تطور طرق التعذيب عبر السنين منذ حرب فيتنام مرورا بإيران وأمريكا الوسطى، وصولا إلى التطور الذي حدث بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو الذي شهد استعانة الولايات المتحدة بحلفائها من الدول محترفي التعذيب لانتزاع الاعترافات من المشتبه بهم والمتهمين.

يصل الكاتب في نهاية كتابة إلى استنتاج أن وسيلة التعذيب لا تصل إلى نتائج مرضية بعكس الوسائل القانونية العادية، فالاعترافات المنتزعة تحت وطأة التعذيب عديمة الجدوى، ناهيك عن الانتهاك الشديد لحقوق الإنسان الذي، ومن الواضح، انه لم يعد أمرا يوضع في الاعتبار لدى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA).







Unembedded: Four Independent Photojournalists on the War in Iraq

(غير ملحق : أربعة مصورين صحفيين مستقلين في حرب العراق)

Thorne Anderson, Ghaith Abdul-Ahad, Kael Alford, Rita Leistner, Philip Jones Griffiths (Foreword), Phillip Robertson (Introduction)

Chelsea Green Publishing Company, 2006, 192PP, 29.95$

مجموعة من الصور التي تصف الحرب في العراق، أربعة مصورين صحفيين مستقلين يغطون الحرب، يلتقطون صورا نادرة وفريدة، لا يمكن أن تراها في وسائل الإعلام، تظهر الصور مدى بشاعة الحرب على الجانبين.

الكتاب صنف على انه ليس سياسيا، وإن كانت التعليقات على الصور تحمل الكثير من النقد للإدارة الأمريكية، والتشكيك في جدوى الحرب من الأساس.

Cobra II : The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq

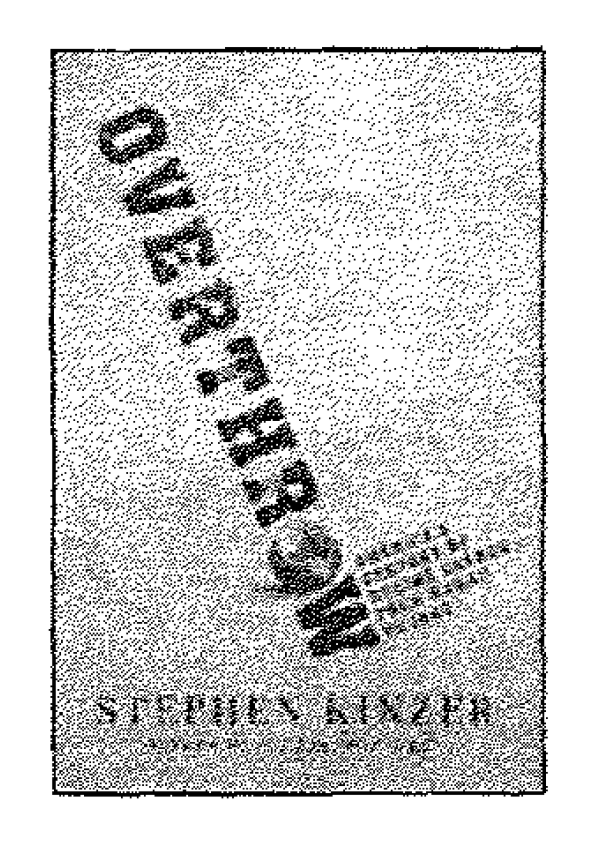
(كوبرا ٢ : القصة الخفية لغزو العراق)

Michael R. Gordon, Bernard E. Trainor

Pantheon, 2006, 640PP, 27.95$

خلال الأعوام الماضية، ظهر العديد من الكتب والتقارير التي تتعرض لحرب العراق، وانتشرت التفسيرات المختلفة للحرب، وانقسم المتعرضون للحرب ما بين - مؤيد ومعارض، ولكن، وعلى الرغم من هذا كله، لم يجزم أحد بمعرفته القصة الخفية وراء الحرب على العراق.

كوبرا ٢ يجزم بمعرفة القصة الحقيقية، استراتيجيات الحرب، المعارك الفعلية، الأدوار الرئيسية التي لُعبت، والشخصيات التي لعبتها، الدبلوماسية، والاحتلال. كتاب جديد مليء بالفضائح الجديدة.



Overthrow : America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq

(الإســـقاط)

Stephen Kinzer

Times Books, 2006, 400PP, 27.50$

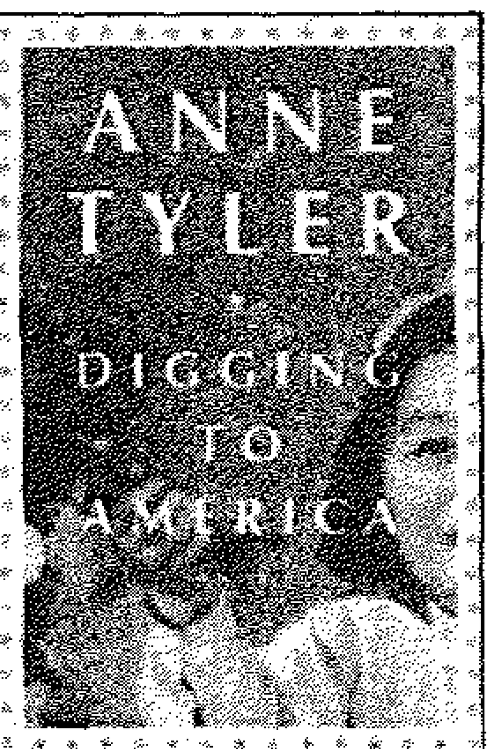
للإدارة الأمريكية سوابق كثيرة على مدار القرن الماضي في تغيير أنظمة الحكم وإسقاطها حول العالم، بدأت تلك السياسة بهاواي عام ١٨٩٣ عندما تآمر البيت الأبيض مع الأقلية البيضاء بهاواي من أجل إسقاط حكم الملكة «ليليووكالاني»، كخطوة لضم الجزر وجعلها جزء من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلا هاواي العديد من الدول الأخرى، فالولايات المتحدة أحبطت حركة الاستقلال في كوبا، بورتيريكو، الفلبين ونيكاراجوا، كما قامت بإخراج العديد من الحركات السرية والانقلابات في إيران، غواتيمالا، جنوب فيتنام، وتشيلي، كما غزت جريندادا، بنما، وبالطبع افغانستان والعراق. على مدى العقود الأحد عشر الماضية نشرت الولايات المتحدة قواتها في جميع أنحاء العالم، لتضع يدها على الموارد الطبيعية في العالم.



Digging to America

(الحفر لأمريكا)



Anne Tyler

Knopf, 2006, 288PP, 24.95$

الرواية الجديدة لأني تايلر (الحفر لأمريكا) التي تدور حول اصطدام الثقافات في المجتمع الأمريكي، مع التركيز على أثرها في الحياة اليومية للأسرة الأمريكية الحديثة.

الرواية تدور حول تبني الزوجين الأمريكيين، «بيتسي وبراد دونالدسون»، وسامي وزيبا يزدان، لفتاتين كوريتين صغيرتين.

يلتقي الزوجان في مطار بيلتيمور لأول مرة، حيث كانا بانتظار ابنتيهما بالتبني قادمتين من كوريا، ونظرا لعلاقة الابنتين القوية ببعضهما، تضطر الأسرتان إلى إنشاء علاقة تجمعهما.

القصة التي تدور أحداثها منذ وصول البنتين عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٤، تجسد الصراع الثقافي والاصطدام الحضاري في المجتمع الأمريكي، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي أثرت على علاقة الأسرتين.

Armed Madhouse

(مستشفى المجانين المسلحة)

Greg Palast

Dutton Adult, 2006, 384PP, 25.95$

الاقتصادي وصحفي التحقيقات الأمريكي «جريج بلاست» يأتي بكتابه الجديد (مستشفى المجانين المسلحة) الذي ينتقد بسخرية لاذعة فيه السياسة الأمريكية.

الكاتب يعترف بعدم احترامه لجورج بوش، وهو يرى أن بوش سقط مرتين في الانتخابات الرئاسية الأمريكية وذلك نظرا لضعف الفارق بينه وبين منافسيه.

الكتاب يكاد يغطي كل المواضيع السياسية المثيرة للجدل بدءا من الحرب على الإرهاب وصولا إلى إعصار كاترينا، في نقد لاذع مبني، وبحكم خبرة المؤلف، على الحقائق الواضحة والأرقام الدالة.

Insurgents, Terrorists, and Militias: The Warriors of Contemporary Combat

(متمردون، إرهابيون، ميليشيات: محاربو المعركة المعاصرة)

Richard H. Shultz, Andrea Dew

Columbia University Press, 2006, 328PP, 29.50$

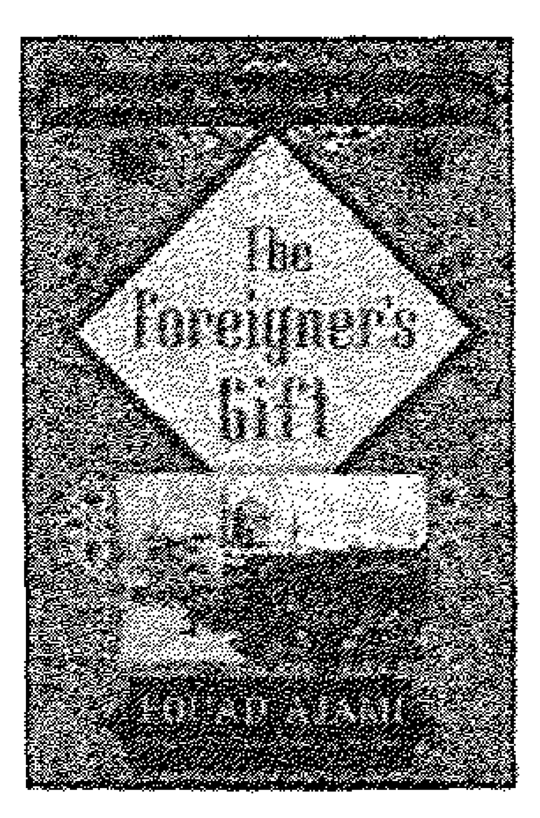
طبيعة الحروب تغيرت بصورة كبيرة عما كانت عليه في العقود الأخيرة، ولعل أهم تلك التغييرات ظهور العديد من المجموعات المقاتلة غير الحكومية، والتي تستخدم تكتيكات متقدمة وجديدة لم تعهدها الجيوش النظامية من قبل.

المدرسان بأكاديمية الأمن العالمي «ريتشارد شالتز» و«أندريا ديو» يؤكدان على أن عدم فهم هذه التغيرات في طبيعة الحروب يؤدي إلى نتائج وخيمة، ضاربين المثل بالحرب العراقية وكيف أدى عدم الفهم الأمريكي لطبيعة العراقيين وطريقتهم في المقاومة، إلى عواقب سيئة على الجيش الأمريكي.

المؤلفان يستعرضان تاريخ الحروب والصراعات المسلحة بين قوات حكومية وأخرى غير حكومية خلال العقدين الماضيين، كحروب الصومال والشيشان وأفغانستان والعراق، التي واجهت فيها القوات الحكومية المدججة بالأسلحة المختلفة والمتطورة، صعوبات شديدة في مواجهة قوات غير حكومية، لا تملك من السلاح إلا الفتات.

The Foreigner's Gift

(هدية الأجنبي)



Fouad Ajami

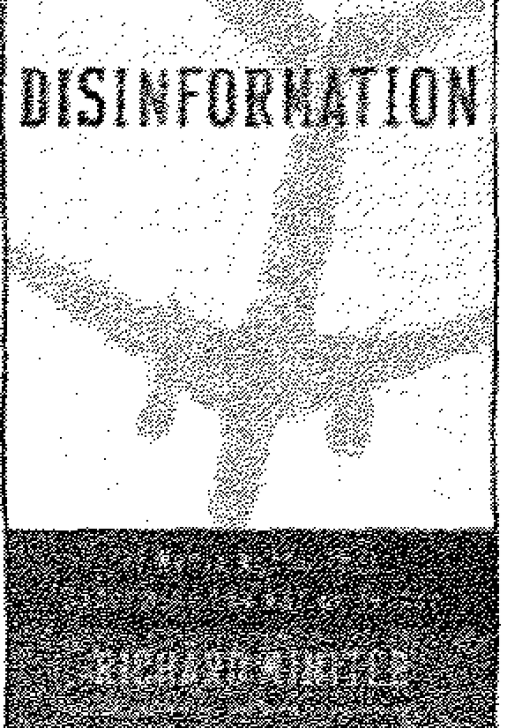
Free Press, 2006, 400PP, 26.00$

لم يكن أحد ليتوقع ما يحدث في العراق الآن، فسقوط صدام حسين إن كان أعطى لمحة للحرية التي حظي بها العراقيون، فهو أعطى أيضا حالة التشوش والفوضى التي تعاني منها العراق الآن، فالعنف والطائفية تتفجر في كل مكان في العراق.

لا يفهم أحد ماذا يحدث ولا تعرف إجابات لأسئلة كثيرة حول الوضع في العراق، «فؤاد العجمي» يبحث في العديد من تلك الأسئلة، ما مدى تأثير التاريخ العراقي على ما يحدث الآن؟، وما هي طبيعة العراق الطائفية؟ وما السيناريوهات المحتملة الحدوث في الفترة القادمة؟

الكاتب يستعرض الحروب العراقية الأخيرة، منتهيا بالحرب الأمريكية العراقية الدائرة حاليا، ويحاول تفسير ما يدور على الساحة الآن مستعينا بتاريخ العراق الممتد.

«فؤاد العجمي» قام بمقابلة العديد من الشخصيات العراقية خلال سنوات الحرب، وسجل آراءهم وأفكارهم حول الحرب ونتائجها وأسبابها، قابل العجمي رجال دين من السنة والشيعة وسياسيين أكرادا وأدباء وفنانين، وعناصر من الشرطة والجيش، والعديد ممن يعتبرون مواطنين عاديين، كما سجل أيضا العجمي آراء بعض السياسيين الأمريكيين ومواطنين عاديين أمريكيين.



Disinformation : 22 Media Myths That Undermine the War on Terror

(التشويش: ٢٢ أسطورة إعلامية قوضت الحرب ضد الإرهاب)

Richard Miniter

Regnery Publishing, 2005, 256PP, 27.95$

يواجه هذا الكتاب اثنتين وعشرين أسطورة حول الحرب على الإرهاب، تلك الأساطير روجتها وسائل الإعلام ويساعد الكثير من الناس في نشرها، المؤلف لم ينسب ترويج هذه الأساطير إلى النوايا

السيئة كلها ولكنه يرى انه يجب نسيان كل شيء عن تلك الأساطير وتنحيتها جانبا إذا ما أراد الشعب الأمريكي معرفة حقيقة ما يواجهه في تلك الحرب.

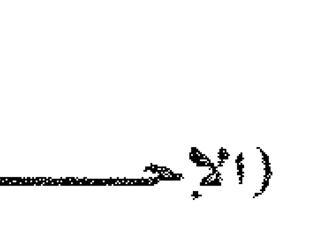
تعرض الكاتب للأساطير جاء مثيرا للجدل في بعض الأحيان، فهو يرى أن هناك صلة بين صدام والقاعدة، كما يرى أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل ويدحض قوله ببعض الأدلة التي جمعها بنفسه من مصادر مختلفة.

يبدأ الكتاب بأربع أساطير عن بن لادن موضحا أن بن لادن لم يدرب من قبل المخابرات الأمريكية ولا مول منها، كما انه لا يملك هذا الكم من الثروة التي يعتقدها البعض، بالإضافة انه كان معروفا قبل أحداث سبتمبر وتحدثت عنه وسائل الإعلام قبلها.

ينتقل الكاتب إلى ثلاث أساطير حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي تقول أن الحكومة كانت عندها تحذيرات عدة حول بن لادن ونواياه، وبأن الموساد كان على علم بما سيحدث فحذر اليهود من الذهاب إلى أعمالهم في ذلك اليوم.

يتعرض الكاتب للعديد من الأساطير الأخرى حول العراق وأسلحة الدمار الشامل قائلا أن العراق كان يحتوي على أسلحة دمار شامل، كما يتعرض لأساطير حول مخاوف بيع السلاح النووي من قبل بعض دول الاتحاد السوفيتي السابق ويتعرض كذلك إلى الإرهاب بوجه عام.

■

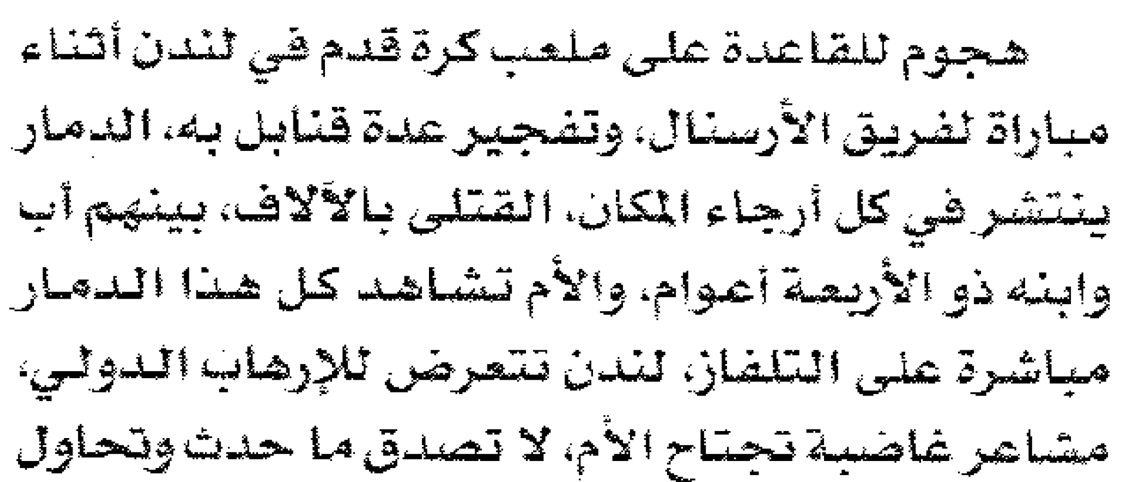


Incendiary

(الاحــــــراق)

Chris Cleave

Knopf, 2005, 256PP, 22.95$



هجوم للقاعدة على ملعب كرة قدم في لندن أثناء مباراة لفريق الأرسنال، وتفجير عدة قنابل به، الدمار ينتشر في كل أرجاء المكان، القتلى بالآلاف، بينهم أب وابنه ذو الأربعة أعوام، والأم تشاهد كل هذا الدمار مباشرة على التلفاز، لندن تتعرض للإرهاب الدولي، مشاعر غاضبة تجتاح الأم، لا تصدق ما حدث وتحاول الانتحار. الأم لا تجد شيئا لتفعله، سوى إرسال رسالة غاضبة إلى أسامة بن لادن.

الرواية تدرس تأثيرات العمليات الإرهابية على المجتمع ككل وعلى أهالي الضحايا، من وجهة نظر التعامل مع الصدمة العصبية التي تصاحب الحادث، وأيضا التعامل مع الصعاب التي تصاحبها فيما بعد.

■



(الإرهاب: التشخيص والحلول)

عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه

١٥٠ صفحة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥

الباحث «عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه» يبحث في هذا الكتاب مدلول كلمة الإرهاب، باحثا في العديد من المعاجم العربية والأجنبية، ليصل إلى تعريف شامل للإرهاب، فعلى سبيل المثال عرف معجم روبير الفرنسي الإرهاب بأنه تيار يتخذ الإجراءات الاستثنائية العنيفة بانتظام، للوصول إلى أهداف سياسية، في حين أن معجم لاروس عرفه على أنه جملة أعمال العنف التي ترتكبها منظمة من أجل خلق جو الرعب، أو من أجل قلب نظام الحكم.

المدقق في التعريفين يجد اختلافا شديدا بينهما، فلاروس ذكر أن الإرهاب يكون إما لخلق جو من الرعب، أو لقلب نظام الحكم، وهو هدف سياسي، بينما اشترط روبير وجود هدف سياسي في جميع الأحوال.

الإرهاب وتعريفه، هما محور الكتاب، ويختتم الكاتب بوضع بعض الحلول والمقترحات التي يراها تساعد على التخلص من الإرهاب تماما.

■

(العرب وعالم ما بعد ١١ سبتمبر)

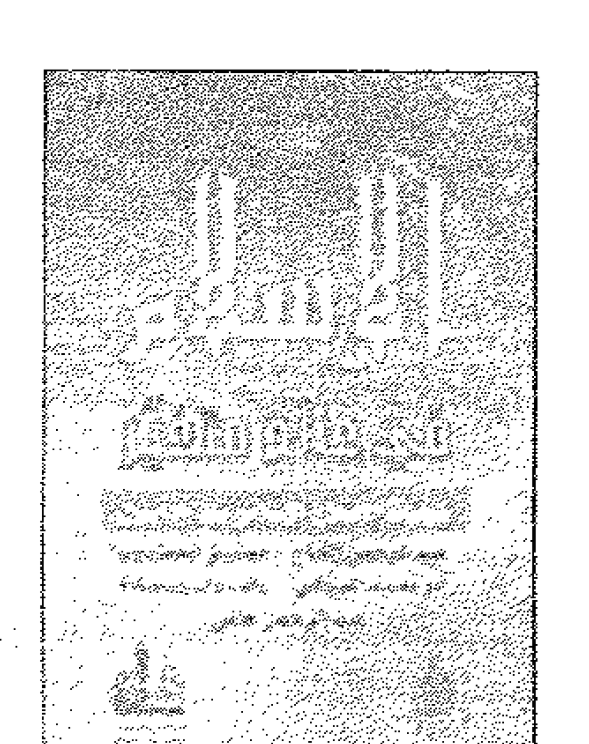
برهان غليون

١٣٣ صفحة، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥

ظن العالم أجمع انه بانتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي، أن العالم سيبتعد لفترة عن المنازعات، وسيتحول إلى عالم متعدد الأقطاب، مما يحقق فرصا أفضل للتنمية، ولكن قيام النظام العالمي الجديد المعتمد على وجود قطب أوحد، كان خيبة أمل كبيرة. فالولايات المتحدة وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اتخذت الحرب على الإرهاب ذريعة لفرض هذا النظام، فقامت باحتلال أفغانستان ثم العراق، وتمادت في تهديد كوريا الشمالية وإيران وسوريا، مثبتة سيطرتها، وفارضة سطوتها.

الكاتب يتساءل عن دور العالم العربي من هذا كله وخاصة أنه يقع في المنطقة الأكثر اشتعالا في العالم، ومهددا بأخطار عديدة نتجت عن السطوة الأمريكية، وتفردها في النظام العلمي الجديد، ترى هل يستطيع العالم العربي لعب دور فعال فيما يحدث، وهل يستطيع أن يفرض سيطرة ما في هذا العالم الجديد؟

■



(الإسلام في عالم متغير: سياسات الإصلاح السياسي بعد ١١ أيلول)

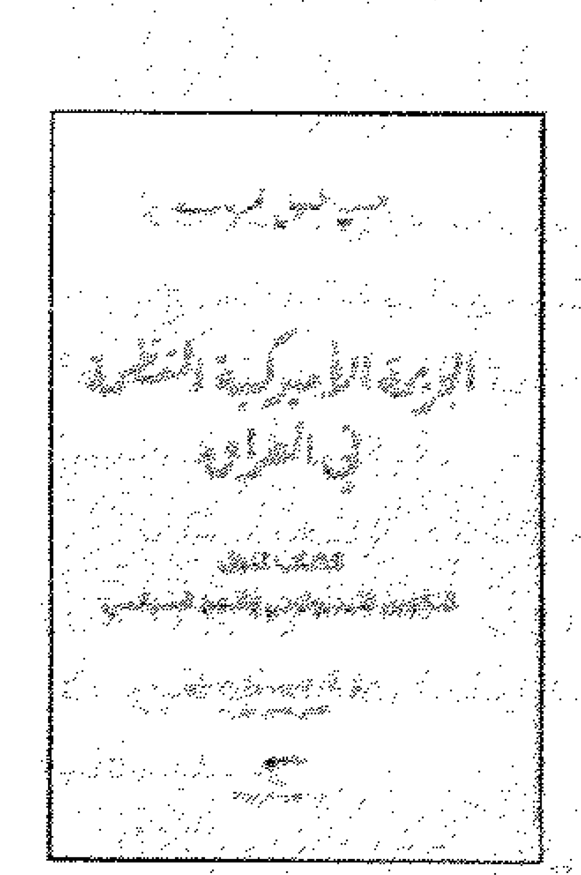
مجموعة مؤلفين

١٦٨ صفحة، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أختلف شكل العالم، واختلفت النظرة الغربية للإسلام، وأفرزت العديد من الإشكاليات والتحديات التي واجهت العالم الإسلامي، وظهر ولأول مرة انتقادات للخطاب الديني، كما اثيرت قضايا عديدة تتعلق بالإرهاب وخلفياته، وأسبابه الحقيقية، مما دفع إلى المناداة بالإصلاح السياسي، الذي يضمن نوعا من الحرية السياسية يكون من شأنها تقليل التطرف.

العالم الإسلامي والإصلاح السياسي المطلوب والمفروض، إشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان والمدنية، والتعارض بين القيم الإسلامية والغربية، مواضيع شائكة يخوض الكتاب في تحليلها ودراستها.

■



(الجريمة الأمريكية المنظمة في العراق)

حسن خليل غريب

٨٢٢ صفحة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦

في ثلاثة أجزاء يوضح لنا الكاتب «حسن خليل غريب» منهجية الجريمة الأمريكية المنظمة في العراق، الجزء الأول بعنوان (التكوين الأيديولوجي والنهج السياسي)، يستعرض فيه الكاتب التاريخ العدواني للولايات المتحدة الأمريكية، مثبتا كونها الأشد دموية وعدوانية عبر التاريخ الإنساني كله، فتاريخها لا يخلو من العدوانية والدموية، بل وإن قيام الدولة الأمريكية كان على دماء الهنود الحمر، وتاريخها الحالي مليء بدماء الأفغانيين والعراقيين.

الجزء الثاني من الكتاب جاء بعنوان (وحشية الممارسة والتطبيق) يقدم فيه الكاتب وصفا للوحشية الأمريكية في المعتقلات سواء داخل الأراضي الأمريكية أو خارجها، وخاصة بسجون العراق، ويتحدث الكاتب عن الممارسات الأمريكية بشأن العراقيين.

(أمام قوس المحكمة الجنائية الدولية) هو عنوان الجزء الثالث الذي يتحدث فيه الكاتب عن محاكمة الرئيس العراقي صدام حسين أمام محكمة عينت بواسطة الاحتلال، وهو ما يراه الكاتب كان سببا في انقسام المحامين المتطوعين إلى قسمين، قسم يرى أنه لا يجوز لهم الترافع أمام محكمة غير شرعية، لأن هذا من شأنه الاعتراف الضمني بشرعية الاحتلال، وقسم يرى أنه لابد من الترافع لفضح عدم شرعية المحاكمة.

(العالم في عصر الإرهاب)



توماس فريدمان، ترجمة، تحقيق: محمد طعم

٣٩٩ صفحة، منشورات الجمل، ٢٠٠٦

الكاتب «توماس فريدمان» محرر قسم الشئون الدولية لجريدة «نيويورك تايمز» في محاولة وصفها بالتدوينية، يحاول في هذا الكتاب فهم ما حدث بالفعل يوم الحادي عشر من سبتمبر، وفهم دوافع منفذي الحادث التسعة عشر، وفهم أسباب الفرحة ونشوة الانتصار التي جابت أنحاء العالم العربي والإسلامي، يقول «فريدمان» إنه إن لم تستطع الأمة الإجابة عن تلك الأسئلة، فهي حتما في خطر كبير.

الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات نشرت في أوقات مختلفة، جزء منها نشر قبل الحادي عشر من سبتمبر، ويهدف الكاتب من وضع تلك المقالات في الكتاب إلى المساعدة على التحليل السليم لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم يحتوي الكتاب على معظم مقالات الكاتب في الفترة من سبتمبر عام ٢٠٠١ إلى ابريل ٢٠٠٣.

الكتاب يحتوي على مذكرات الكاتب التي جمعها خلال رحلته للعالم العربي والإسلامي التي قام بها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة.

(العالم الإسلامي وتحديات ١١ سبتمبر)

د. محمد بشاري

٢٠٨ صفحة، دار الفكر، ٢٠٠٦

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ظهرت العديد من المبادرات الأمريكية والأوروبية من أجل نشر الديمقراطية وتبني حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والشفافية واقتصاد السوق وما إلى ذلك، ومن أشهر تلك المبادرات والتقارير مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومبادرة منتدى المستقبل، ومشروع الإسلام المدني الديمقراطي، والمبادرة الألمانية الدنمركية.

الكاتب يتناول تلك المبادرات والتقارير بالتحليل والنقد، مطلقا تساؤل حول مرجعيات تلك المبادرات والهدف الحقيقي من ورائها، منتقلا إلى تحديات العولمة الجديدة التي تواجه العالم الإسلامي، ومنها تحديات التنمية الاقتصادية.

في نهاية كتابه يتعرض الكاتب إلى الأقليات المسلمة في الدول الأوروبية وأمريكا والتحديات التي تواجهها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتفجيرات لندن ومدريد، متعرضا إلى مسألة الحفاظ على الهوية والاندماج في المجتمعات الجديدة.

من البيزنس إلى الإرهاب

أســـــامة

جوناثان راندل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦

كيف يتسنى لمليونير سعودى فرد فى أواسط عمره أن يهدد القوة العظمى الوحيدة فى العالم؟ هذا هو محور السؤال فى رواية جوناثان راندل الأخاذة حول دور أسامة بن لادن فى الشرق الأوسط والعالم.

ويقول المؤلف: «أمضيت أياماً، بعد الحادى عشر من أيلول ٢٠٠١، أتساءل عما إذا كان أسامة بن لادن قد جلس، كما العالم من أقصاه إلى أقصاه، يشاهد تلك الصور الحية لطائرات ملأى بالوقود خطفها طيارون انتحاريون مع أتباعهم وهى تخترق البنتاجون (مبنى وزارة الدفاع الأمريكية) وبرجى مانهاتن التوأمين حيث مركز التجارة العالمى. لأسباب لا أزال حائراً فى ادراكها يبدو لى، بالنسبة إلى «١١/ ٩» كما باتت تُعرف تلك الهجمات، أن كل شىء آخر كان خاضعاً لتلك الإمكانية. لعله فى سنوات ماضية، وفى حصنه المحفور فى أعالى جبال «هندوكوش» الأفغانية، راح يشبع رغباته كرجل ثرى يتمتع بسحر الوسائل والأدوات الحديثة ويستمد بهجته من أن يعرض أمام زواره أحدث ما عرفته أسواق الكمبيوتر والهواتف الخلوية والصحون اللاقطة وسواها من أدوات التكنولوجيا الحديثة. تراه بات يتمتع الآن بفن تقليد الحياة وباستعادة عروض الابتذال الهوليوودية لأفلام الرعب على كمال بشاعتها، من الأجسام البشرية الساقطة من الأعالى إلى ألسنة اللهب الهائج والأبنية المتفجرة من داخلها، إلى الأبطال من رجال الإطفاء يقتحمون أدراج تلك الأبنية لملاقاة حتفهم؟ هل أخذ يرتاح إلى بدعة يشاهد فيها مسافرين يواجهون، بين الأرض والسماء، قدراً محتوماً، يشرحون عبر أحدث الهواتف الخلوية رحلتهم إلى الموت فى حين يحاول مسافرون آخرون من طينة الأبطال أن يربكوا خاطفيهم ويستعجلوهم إلى ارتكاب الأخطاء مصممين على أن يحرفوا طائرتهم، التى تحولت صاروخاً مدمراً، عن أن تصيب هدفاً وترفع حصيلة التدمير؟

لم أحسب فى تلك الآونة أن لهذه التساؤلات أجوبة واضحة وحاسمة، ذلك أننى غصت فى بحر من التكهنات لكنها تكهنات مبنية على أكثر من سنتين من المحاولات اليائسة فى سبيل فهم أسامة. شعرت أنه، قياساً بماضيه، يمكن أن يوافق، بل أن يزعم أنه أوحى بعملية عنف بهذا الحجم المذهل تحفر له موقعاً فى سجل الإرهاب، لكن دون أن يعترف بأنه أمر بها أو خطط لها، والأهم من ذلك عدم اعترافه بأى دور فى إدارتها وتنفيذها. هذه الطريقة المخادعة وغير المباشرة كانت قد أصبحت سلوكاً مألوفاً لديه منذ عقد من السنين تقريباً، وقد أهله للإيحاء بأن يده تمتد إلى زوايا الأرض الأربع حتى كان أشبه بالمستحيل، فى ضوء أى مقياس منطقى، الربط بصورة حاسمة بينه وبين أعمال الإرهاب المتراكمة عند عتبة بابه. كذلك فإن هذا السلوك قد أبعده، على الأقل فى حسبانه، عن الأعمال الإرهابية التى نظمها هو بالفعل».

تمتد خبرة المؤلف الصحفية بالشرق الأوسط على مدى أربعين سنة. وقد أوضح لنا فى كتابه هذا كيف تختصر حياة أسامة بن لادن الصدام الحتمى بين إسلام القرن الحادى والعشرين والغرب، واصفاً رحلة ابتعاده عن الغرب وعن «مملكة النفط» السعودية التى تشكل عائلته جزءاً لا يتجزأ منها.

يستعرض المؤلف نشاط أسامة قبل الحادى عشر من أيلول ٢٠٠١، ويرى فى شخصيته نموذجاً جديداً غير مسبوق فى التاريخ المعاصر: رجل أعمال مستقل ذو ثروة، ينتشر أتباعه فى أرجاء العالم.

يستكشف راندل ما عرضه أسامة على السعوديين من أن تتولى قوات «القاعدة» إخراج صدام حسين من الكويت فى العام ١٩٩١. وبعد أن يقتفى مصادر أسامة المالية ومعارجها إليه، يعود ليخبرنا كيف تحولت حرب العراق إلى أداة فى أيدى أتباعه.

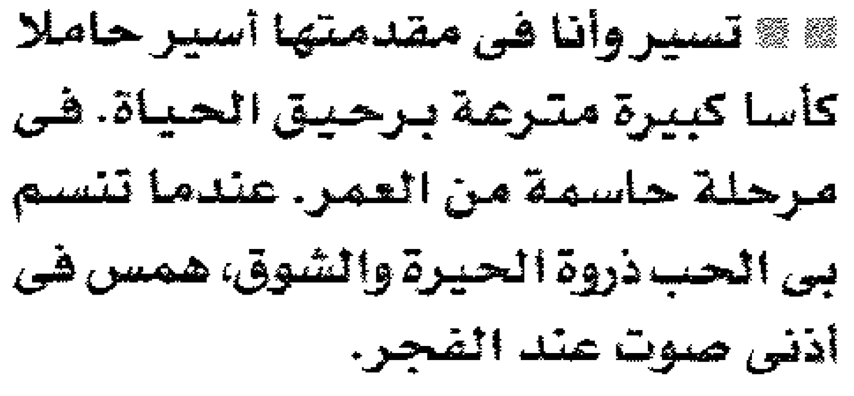
ينبثق نص راندل من مصادره الموثوق بها فى الشرق الأوسط وفهمه العميق لهذه المنطقة، وهو الأنقى والأوضح من أى نص قرأناه لكل التساؤلات المحيطة بشخص يشكل أبرز بؤرة رعب فى العالم.

وقد ولد جوناثان راندل فى العام ١٩٣٣ فى بافالو، من ولاية نيويورك، وتلقى علومه فى «إكزتر» و«هارفارد». خدم جندياً فى الجيش الأمريكى فى أوروبا، وبدأ العمل مراسلاً صحفياً فى أواسط الخمسينيات فى باريس. ومن ثم عمل مع وكالة يونايتد برس وباريس هيرالد ومجلة تايم وصحيفة نيويورك تايمز، ثم انتهى به الأمر إلى العمل على مدى ثلاثين عاماً تقريباً مراسلاً لصحيفة واشنطن بوست. غطى حرب الاستقلال الجزائرية، ومن بعدها حروباً وأزمات عديدة شملت الكونغو وفيتنام وإيران ولبنان وكردستان والبوسنة وليبيريا وغيرها من النزاعات.

يحيى الرخاوى

همسة عند الفجر
تشكيلات الموت والحياة

نجيب محفوظ



■■ تسير وأنا فى مقدمتها أسير حاملا كأسا كبيرة مترعة برحيق الحياة. فى مرحلة حاسمة من العمر. عندما تنسم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى أذنى صوت عند الفجر.

«هنيئا لك فقد حم الوداع»

وأغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى

همسة عند الفجر

نجيب محفوظ أصداء السيرة الذاتية (فقرة ٥٨)





«قالت لى الغمامة: سامحى

وقال الليل: سأغيب فى الفجر المضطرم

وقال الألم: سألوذ بصمت عميق كآثار خطاه

وأجابت حياتى: سأموت وأنا فى منتهى الكمال

وقالت الأرض: إن أنوارى تلثم أفكارك فى كل لحظة

وقال الحب: وتمضى الأيام ولكننى انتظرك

وقال الموت: سأقود زورق حياتك عبر البحر»

طاغور





الموت لا يجهز على الحياة والا أجهز على نفسه

نجيب محفوظ

من ملحمة الحرافيش:

(ص ٦٦)

لا أشك فى أن شيخنا قد اختار الموت راضيا حين شاء الله تعالى أن يختاره إلى جواره بعد أن هيأ ربنا الظروف لذلك، كما أننى لم أشك أنه اختار الحياة طول الوقت، حتى لحظة اختياره الموت، اختار الحياة ليس بمعنى الاستمرار على ظهر هذه الأرض كائنا بشريا جسديا متحركا حاضرا..فحسب، ولكنه اختارها أكثر: كيانا فاعلا مبدعا جميلا مضيفا بما تيسر مهما نضبت الموارد وضعفت الأدوات. وحين تيقن أن الله تعالى قد أراد أن يجعل الأدوات أضعف حتى العجز، والمجال أضيق حتى الاختناق، اختار شيخنا أن يقولها بملء وعيه أنْ «كفى». لم يكن اختيار الحياة بديلا عن اختيار الموت، كان اختياراً متداخلا، متكاملا مكمِّلاً. حين آن الأوان: قالها شيخنا بملء وعيه أن: «كفى»، ومضى إليه راضيا مرضيا، ومع يقينى أن هذا حقه بلا منازع، فقد رحت أعاتبه: «لم قُلْتَها شيخى: «كفى» ؟ لمَ قُلْتَها الآن ونحن فى أشد الحاجة إليك؟ لم قلتها أصلا؟ لم وافقتَ؟ لم تركتنا؟ ولم أكن أعرف أنه ترك لى الرد مسبقا واضحا جليا فى أغلب أعماله حتى آخرها، «أحلام فترة النقاهة»، ومن قبلها «أصداء السيرة الذاتية».

> لم يتمنَّ محفوظ الموت الاختفاء/العدم لحظة واحدة، لكنه رحب بالموت الرحيل الجسدى حين يحل أوانه: طول الوقت

فرانسوا ميتران:

لكن ثمة حكاية تستأهل الحكى قبل المضى فى عرض بعض ردوده تلك:

اتذكر أننى فى أوائل معرفتى الحميمة به شخصيا، كان الرئيس فرانسوا متران يقترب من الموت بعد أن أصيب بالسرطان وتأكد من قرب النهاية، سأله أحد الصحفيين بعشم (أو وقاحة) عن توقعاته بعد الموت، وعن مدى إيمانه أو رغبته فى الجنة، فأجاب دون استهانة وبكل شجاعة، أجاب بما تيسر له، ومن ذلك أنه يرى أن الخلود فى الجنة بلا نهاية هو أمر يدعو للملل، نقلت للأستاذ هذا التصريح متعجبا، وربما مُعْجبا بشجاعة متران ومساحة الحرية التى تسمح بمثل هذا التصريح، أطرق الأستاذ رأسه ليس قليلا، وقد عودنا أنه حين يفعل ذلك فهو يُعمل فكره دون التزام بالرد. صمتُ منتظرا، وطال الانتظار ثم نبهته بكل العشم أنى أحتاج إلى تعليقه، قال: «أنا لا أوافقه»، قلت له «ألم تلاحظ شجاعته حتى لو اختلفنا معه؟ السنا نفتقد إلى هذه المساحة من الحرية التى يتحركون فى إطارها بلا سقف يُقَزِّمهم؟» قال: «ليكن، لكنك تسأل عن رأيى فيما قال، لا عن ما أتاح له إبداء رأيه»، انتبهت إلى دقة انتباهه، ووافقته، ثم أردفت أننى ما زلت انتظر تعليقه على تصريح «ميتران»، قال بعد قليل: أنا لا أوافقه. اسمع يا سيدى: أنت حين تحب شخصا ألاّ تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا؟ قلت: لا، قال، فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشبع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية، أم أنك تزداد فرحة وتَجدداً طول الوقت؟


صمت شاكرا، فاهما، متعجبا، متأملا داعيا

نعاهدك ألا تموت بما تركت فينا:

كان هذا الحديث. على ما أذكر. قبيل وفاة ميتران (٨ يناير ١٩٩٦)، رحت أتأمل يقين شيخنا من حبه لله ورغبته فى البقاء إلى جواره، يدور فى فلكه إلى أبد الآبدين، لم يخالجنى أدنى شك فى موقفه هذا طوال معرفتى له بهذا القرب، وحتى قبل معرفتى الوثيقة تلك، قبل أن ألقاه، كان قد وصلنى هذا الموقف، تماما وقد سجلته منشورا[1] بمجرد أن بلغنى حادث الاغتيال كتبت آنذاك أخاطبه قائلا...تصورتُ أننى شاب من هؤلاء المخدوعين أتابع ما جرى لك , وأعايش موقفك , وافهم أقوالك , فأفاجأ بك تدعو لى أنا القاتل أو المتربص للقتل , تدعو لى بالهداية , هل أستطيع بالله عليك إلا ان أقول «آمين» , وحين أهتدى بك شيخنا سوف أعرف الله الذى أردت أن تُعَرِّفنى به طول عمرك على مسار إبداعك...، إلى أن قلت:

«يا شيخنا: مازلنا فى حاجة إلى بقائك بيننا..... ربنا يخليك لنا ولهم، وإن تَمُتَّ - بإذن ربنا , لا بمديتهم - فنعاهدك ألا تموت بما تركت فينا ولنا».

مضى على استجابة هذا الدعاء إثنى عشر عاما، ثم اختاره ربنا، وبالتالى آن الأوان أن نفى بما تعهدنا به،... «ألا يموت بما ترك فينا ولنا».



عدسة الأديب: جمال الغيطانى

علمنى الدهر

قبل ذلك بعام إلا قليلا نشر محفوظ فى الأهرام قصة قصيرة بعد أن غير الأهرام عنوانها دون استئذانه - كما أخبرنى!!- حتى أصبح عنوانا ضحلا هو «علمنى الدهر»(٢)، وصلنى منها أن شيخى يعد نفسه «بهدوء» للرحيل، وإن استغرق ذلك أكثر من اثنى عشر عاماً.

تبدأ القصة القصيرة هكذا:

«آن لنا أن نرحل»

«.... نصح الطبيب بذلك وإذا نصح الطبيب وجبت الطاعة , كانت إقامة طيبة , وشقة أنيقة».

ثم تمضى القصة فى اتجاه أن الساكن الجديد الذى سيحل محل الراحل هو أولى بالمسكن، إلى آخر ما يشير إلى أن البقاء هو للأكثر فتوة، وأوفر شبابا وأصغر سنا.

لكن يشوب بقية القصة تخوف الراحل من النسيان، وفتور العواطف، الأمر الذى أتعجب كيف خطر لشيخنا أصلا، وعلى قدر رضا هذا الساكن القديم بالرحيل، كان الساكن الجديد موهوما بالدوام حين قال لصاحبة المنزل:

-...... لتكن إقامة دائمة بإذن الله

فقالت له بثقة: ما أقام عندى ساكن وفكر فى هجر بيتى

ويعترف الراوى (الراحل) أنه فعلاً لم يفكر فى هجر البيت، إنما الذى قرر الرحيل هو الطبيب، فهو يقول:

«هذا حق»، ثم يضيف:

«ولكن ما العمل إذا نصح الطبيب!..»

«وثمة عتاب يا ست الستات: كنت عندك فرخة بكشك حتى حل بى المرض»

وحين صعد إلى القطار، أعلن رضاه بقوله (فى باطنه):

- من الإنصاف أن أذكر أنها إقامة جميلة وأنها تستحق الشكر»

انتهت القصة القصيرة.

قال محفوظ كل ذلك حتى قبل الحادث: (سنة ١٩٩٣)

الاستلهام قبل التأبين، والنقد قبل التمجيد

فهل حدث بعد ثلاث عشرة سنة شىء آخر؟ وهل ننتبه إلى احتمال تخوفه من أن ننسى ما ترك فينا بعد رحيله؟ لا أظن، فكل ما بلغنى مما يجرى حولى حالا يقول إن التكريم، والتأبين، والتمجيد، كل ذلك يجرى على قدم وساق، بكل معانى ومظاهر الوفاء الجاد، وضد كل التخوفات التى جاءت بالقصة. لكن لثقتى فى حدس شيخى كتبت للجنة المكلفة بكل هذه المهام، والتى تقوم بها خير قيام، كتبت تحفظاتى على الاكتفاء بالتخليد دون الامتداد، وبالتأبين دون الاستلهام، وبالتمجيد دون مواصلة النقد والابداع.

كيف أحب محفوظ الموت وهو يحمل كل هذا الحب للحياة؟

لم يتمن محفوظ الموت الاختفاء/ العدم لحظة واحدة، لكنه رحب بالموت الرحيل الجسدى حين يحل آوانه: طول الوقت.

من أكثر الأعمال النقدية التى لا أتردد فى الفخر بكتابتها هو ما جاء بالجزء الأول من نقدى لملحمة الحرافيش الذى صدر فى أكثر من موقع منذ سنة ١٩٩٠، وقد كان بعنوان دورات الحياة، وضلال الخلود: ملحمة الموت، والتخلق فى الحرافيش(٣)

يقول محفوظ فى الملحمة (ص ٦٤): «الموت لا يجهز على الحياة، وإلا أجهز على نفسه».

حاولت فى نقدى هذا أن أبين كيف كان الوعى بالموت: الموت الامتداد، الموت الهارمونى الأكبر، هو المحور الأساسى للملحمة، التى تجلى فيها كل من الإيقاع الحيوى، وإعادة الولادة، المرة تلو المرة، كأروع ما يكون التجلى، كما تعرى وهم الخلود على هذه الأرض، حتى ظهر أنه العدم الخامد، أى الموت الذى نخافه جميعا.

وصلنى من الملحمة - ومن غيرها - كيف أن التوليف الجدلى بين الموت والحياة هو أصعب مراحل جدل الوجود.

الطفل يعرف الموت أفضل:

منذ ذلك الحين رحت أحاول التعرف على الموت من خلال إبداعات متعددة، حتى تحددت معالمه لى أثناء نقدى بعض حكايات هانز كريستيان أندرسون الخرافية للأطفال. اكتشفت: فى قصة «بائعة أعواد الكبريت الصغيرة» كيف يرسم أندرسون موت الصغيرة على الوجه التالى:

صاحت الصغيرة: جدتى خذينى معك، أعلم بأنك ستختفين عندما ينطفئ عود الكبريت. ستختفين مثل الموقد الدافئ، مثل البطة الشهية وشجرة عيد الميلاد المباركة، ثم أسرعت بشحط عيدان الكبريت الباقية فى الحزمة تلو الآخر، كانت تود بشدة أن تبقى جدتها، أضاءت عيدان الكبريت ببريق أصفى من ضوء النهار، لم تكن جدتها فى يوم أحلى وأكبر منها الآن، حملت الجدة الفتاة الصغيرة بين ذراعيها وطارا بألق وفرح عاليا، عاليا جدا، حيث لا برد ولا جوع ولا خوف، كانا عند الله.

علمنى أندرسون من خلال هذه القصة حتى النهاية كيف يمكن أن تكون النقلة هادئة بين الحياة والموت، إلى الله سبحانه... كل ذلك ووعينا يضىء المرة تلو المرة فى نعومة حانية، وألم جميل، بما يجعلنا أقرب إلى أنفسنا، وإلى خالقنا ورحمته، وبما يجعل الموت هو القريب البعيد، هو الذى نخشاه بقدر ما ننتظره، هو الطريق إليه ونحن نعيش واقعنا نجمع بين قسوة الفقر، وقرص الحرمان، ونداء الطبيعة، وفرحة الأمل، وقوة الخيال، فى نفس الوقت.

فى قصة أخرى لأندرسون للأطفال أيضا بعنوان «قصة أم» يتجسد الموت الذى خطف الصغير من أمه الثكلى فى شكل شيخ غريب، فتهيم الأم على وجهها نائحة باحثة لتسترد ابنها المخطوف، وفى سبيل ذلك تضحى بكل شىء تعطيه لمن تقابله، وما تقابله، فى مقابل أن يدلها على أين ذهب الشيخ (الموت) بابنها: تضحى بعينيها فلا تعود تبصر، وبلسانها و..و...الخ. حتى تصل إلى «مشتل الموت» فإذا بالموت ليس عدما بل مشتلا انقلب فيه الراحلون إلى زهور واعدة بما لا نعرف، وتنتهى القصة بأن ترضى الأم أن تتنازل عن إصرارها على استرجاع ابنها حيا، وتسلم ابنها زهرة بين الزهور فى مشتل الموت، زهرة تنتظر قدرها وتقبله، إنها تتنازل عن محاولتها استرداد طفلها قائلة للموت: «....إحمله، إحمله بعيدا إلى ملكوت الله، إنس دموعى، إنس دعواتى».

يتعجب الموت (الشيخ) قائلا: «لا أفهمك، ألا تريدين طفلك، أتريدننى أن آخذه إلى هناك، حيث لا تعلمين» ؟

ترد الأم: لا تسمعنى حين أسألك بخلاف مشيئتك، التى هى المثلى، لاتسمعنى لا تسمعنى، وحنت رأسها إلى الأسفل إلى حضنها، ومشى الموت بابنها إلى البلاد المجهولة.

رثاء عاتب

لم استطع أن أقف موقف هذه الأم الجميلة من رحيل شيخنا الجميل، الأم تعرفت على مشتل الموت بهذه الشجاعة والسهولة ورفضت استرجاع ابنها بعد أن اطمأنت عليه، لكننى رحت أعاتب شيخى أنه رحل دون استئذاننا. بل إننى رحت أطالبه أن يوقف الزمن، مع أنه القائل على لسان شمس الدين الناجى فى ملحمة الحرافيش (ص ١٢٧) «إن هدم زفة مسلحة أيسر ألف مرة من صد ثانية بما لا يقاس....».

إبداع متواصل:

لم يحل أى حدث أو إعاقة أو صعوبة أو عجز دون أن يواصل شيخنا إبداعه حتى آخر لحظة، وأحسب أنه لن يطمئن إلى اننا لن ننساه إلا إذا واصلنا بدورنا مسئولية الإبداع عامة طول الوقت، طول الدهر، هذا هو ما يجنبنا تحقيق مخاوفه التى بدت متشائمة فى «علمنى الدهر».

عرفت نجيب محفوظ شخصيا قريبا حبيبا وشيخا رائدا منذ اثنى عشر عاما (بعد حادث الاعتداء عليه)، عرفته وقد نجا من موت محقق، لأن الله كتب له النجاة بشكل معجز، انتبهت من أول لحظة إلى كيف أن إرادة الحياة كانت ومازالت لديه متدفقة غامرة، حدث ذلك من أول زيارة له فى مستشفى الشرطة بعد الحادث، فهدتنى إرادته تلك إلى أن أكون عونا فى أن يستمر فى الحياة كما أرادها له ربنا، فوفقنا الله أن يخرج بانتظام إليها - الحياة - برغم كل الصعوبات، والإعاقات، والمقاومة المحبة ممن حوله خوفا عليه وحرصا على سلامته. راح شيخنا يمارس حب الحياة كما كان دائما، ولو لم يتبق له من أدواتها إلا بعض هسيس سمع، وبعض بصيص بصر، وما تيسر من «شخبطة يد»، ثم جسد كالطيف يتنقل به بكل ثقة وإصرار كل يوم، كل يوم، كل يوم، بلا استثناء أو توقف، إلا للشديد القوى!. صنع محفوظ من أصدقائه ومن ترتيب أيامه واقعا جديدا من الناس، فقد كانوا دائما



اسمع يا سيدى: أنت حين تحب شخصا ألا تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا ؟ قلت: لا. قال: فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشبع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية؟



غذاء وجوده، فراح يمارس، بتلقائية رائعة ما أسميته الإبداع الحيوى المباشر، أو «إبداع حى= حى». (قياساً على صواريخ: أرض = أرض) اكتشفت أنه بحضوره بيننا، مع تواضع وسائل تواصله، يعيد تشكيل وعينا بشكل مباشر دون حاجة إلى أن يسجله فى رمز مكتوب أو نص مقروء.

فى أصداء السيرة الذاتية يقول نجيب محفوظ:

«... تذكرت كلمات بسيطة، لا وزن لها فى ذاتها، مثل «أنت»، «فيم تفكر»، «طيب»، «يالك من ماكر»... ولكن لسحرها الغريب الغامض جن أناس، وثمل آخرون بسعادة لا توصف».

تحقق لى من خلال هذا التشكيل البشرى اليومى لوعينا من حوله: ذلك الفرض الذى طالما شغلنى، وهو: إن الحياة الحقيقية هى الإبداع الحقيقى: قبل وبدون أى ناتج إبداعى آخر خارج عن ذات صاحبه.

الإبداع بالمشاركة الحية:

رحت أتأمل اختراقه لكل ما أصابنا إذ أصابه، رحت أتابعه وهو يروض القدر بفعل هادئ طيب صبور، ساعة بعد ساعة، يوما بعد يوم، جلسة بعد صحبة، حديثا بعد نكتة، فعاينته وعايشته وهو يبنى معمارا جديدا من وعى المحيطين بحركية وعيه الناقدة لتتجدد من خلال هذه اللقاءات المنتظمة.

ما وصلنى من معايشتى تلك ما بين لقاءاتنا به فى جلسات مفتوحة، أو حرفشة خاصة، هو أن ثمة مقاييس للإبداع، مثل أن يخرج الواحد منا - من جلسته - غير ما دخل، أو أن يكتشف الواحد منا - وهو يتحدث إليه - غير ما قصد، أو أن يتذوق الواحد منا طعم الهواء الداخل إلى صدره غير ما ألف، كل ذلك من واقع هذه المعايشة البسيطة الصادقة العميقة، إذ راح شيخنا يقرؤنا ويكتبنا ثم يعيد كتابتنا دون أن يخط حرفا واحدا على الورق، وهو لا يكتفى بهذا، بل يسمح لنا أن نعيد قراءته واستقبالنا له. أى خبرة وأى تجربة!!!

حل آخر: إبداع الأحلام:

بعد أن انتصر شيخنا بالتدريب اليومى المعجزة على عجزه عن الكتابة، لم يكتف بإبداع وعينا بهذا الحضور المباشر، فراح يعايش عالم أحلامه كواقع بديل، ثم استطاع أن يرغم مفردات واقع الحلم أن تبقى معه بعد استيقاظه، لتمثل له الأبجدية التى يصوغ منها إبداعه الجديد. كنا نسأله بين الحين والحين عن احتمال عودته إلى الكتابة،

لِمَ قُلتَها شيخى: «كفى»!!

قد كنتَ فينا رائحاً أو غادياً تخطو بنا نحو الذى قد صاغنا، وجعلتَ إيقاع الحياة له صليلٌ مثل نبض الكون سعيا للجليل، حتى حسبنا أنها لا تنتهى، وظللتَ تخطرُ هامساً كاللطيف، كالروح الشفيف، كظلِّ رب الكون فيما بيننا، وجعلت تنحت جاهدا لتعيد تشكيل البشر:

حلماً فحلماً: واقعاً منّا، لنا، نسعى إلى عمق الوجود ليلتقى فينا بنا، «لتعارفوا» هذا «طريق الزعبلاوى» نحو وجه الحق، نحو النور، نحو العدل، نحو الله فينا حولنا.

ومضيتَ تقهر كلَّ عجز، كلَّ ضعف، كلَّ هم، حتى دعونا ربنا أن تقهر الساعات تسحبنا إلى المجهول إذ تخفى العدم، حتى نسينا أننا بشرٌ لنا أعمارنا.



لم قلتها شيخى: «كفى»؟

الآن؟ كيف الآن؟ شيخى!؟ ربنا!؟ بالله ليس الآن، إرجعْ عقارب ساعتك، لا، نحن لسنا قدرها، ليست «كفى»

لا، ليس هذا وقتُها، أفلستَ تعلم أننا فى «عز» حاجتنا إليك؟

أفلستَ تعرف ما جرى؟

أفلستَ تعرف كيف تنهشنا السباعُ الجائعة؟

أفلستَ تعرفُ أن ما يأتى بدونك لهُوَ أقسى ألف مرة؟

لو كنتَ أقسمتَ عليه، من أجل خاطرنا، لأبرّك الله العزيز بقدر ما وعدَ الذين همُّوا كمثلك.

لمَ قلتَها شيخى: «كفى»؟

كنا نريدك دائما تخطو جميلا بيننا، كنا نريدك خالدا فى قرة العين هنا، كنا نريدك مثل أطفال أبوا أن يُفطموا من حلو ما نهلوا عطاءك، مثلنا، كنا نريدك نحتمى فى دفء بُردِك من برودة عصرنا.

لكنْ خاتمة الكتاب تقررت، فسمعتَها، وكتمتَها حرصا علينا، وانسحبتَ برقةٍ وعذوبة، وتركتَنا.

لم هكذا؟!

علّمتنا شيخى بأنا قد خُلقنا للحلاوة والمرارة نحملُ الوعى الثقيل نكونه سعيا إليه.

فاجأتنا، ورحلت دون سؤالنا.

وبكى الخميسُ لقاءنا، وتركتَ بيتى خاويا فى كل جمعة.

ماذا جرى؟

كيف جرى؟

هل يا ترى: قد كان همسا من وراء ظهورنا يدعوك سراً:

ورجوتَ أن تلقاه شيخى بعد ما طال العناء؟

فاستأذن الجسدُ العليل بشجّة فى الرأس كانت عابرة؟

لا لم تكن أبدا مصادفة، ولم يشأ القدرُ، كانت نذيراً بالوداع، قطعتَ حبالَ وصالنا فتهتك العهد القديم وحرّر الجسدَ العنيد، والشيخ درويش «الزقاق» يقولها:

«لا شىء دون نهاية»

وهجاؤها:

«قد حان وقتٌ للرحيل».



علّمتنا شيخى الجليل:

أن الخلودَ بهذه الدنيا عدم، والموتُ لا ينهى الحياة لكلٍّ من أعطاها مثلك نفسَه، الموتُ ينقلها إلى صنّاعها من بعض فيضك، قد كنتَ رائدَ حملها.

يا للأمانة!!

يا ثقلها!!!

هل جاء من أنبائك أنّا أهلُها؟

حتى الجبال أبيْنَ أن يحملْنَها.

كيف السبيل، وكل هذا حولها؟



لكنْ ما قدّمتَ علّمنا «الطريق» إليه عبر شعابها:

لمّا عرفتَ سبيل دربك نحوه، كدحاً إليه:

ودخلتَ فى عمق العباد تعيد تشكيل الذى غمرتْه أمواج الضلال، حتى تشوه بالعمى والجوع والجشع الجبانْ.

شيخى الجليل:

ما دمتَ أنتَ فعلتَها فانعم بها واشفعْ لنا أن نَحمل العهدَ الذى أودعْتنا شيخى الجليل:

نمْ مطمئنا، وارجع إليه مُبدعاً، عبر البشر، وادخل إليها راضيا، أهلاً لها.

فيصمت، ثم إذا به ذات يوم يخبرنا بفرحة طفلية بديعة أن ثمة «نغبشة» بدأت تراود دماغه، ثم تصدر الإرهاصات الأولى، موجزة «مشخبطة»، ثم هات يا إبداع غير مسبوق لما أسماه أحلام فترة النقاهة وخذ عندك: معجزة جديدة بعد الأصداء.

تشكيلات الموت فى الأحلام

عاودت قراءة أحلام النقاهة مجتمعة بعد رحيله، ووصلنى بعض الرد على عتابى له راثيا، وأيضا على التساؤلات التى سألها الناس عن «كيف أحب محفوظ الموت» لكن فى نفس الوقت - بالمصادفة - كان قد أصدر المجلس الأعلى للثقافة كتابى فى نقد الأصداء «أصداء الأصداء»[1].

فمررت فيه فإذا بتجليات الموت تمثل محوراً أساسيا قدرت أن يكون الفصل الأول فى الجزء الثانى من الدراسة الطولية النقدية للأصداء، لكننى أكتفى هنا بمرور فى الأحلام.

هكذا أجابنى محفوظ عن كل ما تساءلت عنه بعد رحيله وكأنه كان يعلم جزعى واحتجاجى.

رفع الحواجز بين مستويات الوعى

أن تتعرف على الموت، وما بعده واقعاً ملموساً متحققاً، هو المستحيل بعينه. المبدع الحقيقى يستطيع أن يستشرف بعض ذلك، دون يقين مطلق. ومثلما أراد أفلاطون فى جمهوريته أن يعلمنا ماهية النفس الإنسانية، فكبرها بمجهر إبداعه حتى صارت جمهورية كاملة. فإن محفوظ اخترق الحواجز بين وعى الحلم ووعى اليقظة ليعرف ويتعرف، ولعله يعرفنا، ماذا هناك على الجانب الآخر (بما فى ذلك الموت)، النوم موت أصغر، والحلم حركية مرنة زاخرة تتشكل بداخل هذا الموت الأصغر، واليقظة إحياء بعد الموت (الحمد لله الذى أحيانى بعدما أماتنى وإليه النشور) - حين لجأ محفوظ إلى إبداع الأحلام (وليس تسجيلها) وجد نفسه داخل هذا الموت الأصغر، فاستطاع أن يلمح بعض معالم الموت الأكبر من النافذة التى فتحها بين مستويات الوعى هكذا:

تعالوا نبدأ بآخر حلم نشر له، ونتجول معه وهو يرفع هذه الحواجز.

«رأيتنى أعد المائدة والمدعون فى الحجرة المجاورة تأتينى أصواتهم أصوات أمى وإخواتى وأخواتى، وفى الانتظار سرقنى النوم ثم صحوت فاقدا الصبر فهرعت إلى الحجرة المجاورة لأدعوهم فوجدتها خالية تماما وغارقة فى الصمت وأصابنى الفزع دقيقة ثم استيقظت ذاكرتى فتذكرت أنهم جميعاً رحلوا إلى جوار ربهم وأننى شيعت جنازتهم واحداً بعد الآخر.

نجيب محفوظ

همسة عند الفجر

(حلم ٢٠٦)

أين الحواجز بين الحياة والموت، بين النوم والصحو، بين الذاكرة والواقع؟

كيف كان شيخى يتلقى الموت:

عاصرت شيخى مع بعض الحرافيش الأصليين، فرحنا بكل الجزع نفقد الحرفوش تلو الآخر فلا نستطيع أن ننسى الموت أو نتغافله، بل إن الموت سبق رحيل هؤلاء الحرافيش حين اختطف باكرا صديقا - ليس حرفوشا - هو مصطفى أبو النصر ثم اختطف صديقا لاحقاً فى عز وهجه هو أ.د. محمد راضى، ثم رحل من الحرافيش كل من بهجت عثمان، وأحمد مظهر ثم عادل كامل (بلغنا رحيله من أمريكا بعد أن زارنا بضعة أسابيع) كان تفاعل شيخنا لكل ذلك هادئا صادقا متألما لعله يتمثل دائما فى القول الرائع: الموت حق، ولكن الفراق صعب.

التذبذب فى قبول قرار الموت

حين يقترب الموت واقعاً، حتى بقرار طبيب، تقفز منا، فينا، مواقف متذبذبة، هى أكثر من موقف فى آن، بعضها فى بؤرة الوعى وبعضها على هامشه، تتراوح هذه المواقف ما بين الجزع والتحدى والتسليم والتمنى والمراجعة، إلى غير ذلك، وقد تبدو متداخلة أو متناقضة لكنها كلها تعلن - فى النهاية - التمسك بالحياة، بشكل أو بآخر. ثم أن الوعى بتوقيت الموت القادم قد يدفعنا - بدلا من التسليم - إلى الإقدام على ما يبدو تمسكا بالحياة، أو اللحاق بآخر مركبة فيها، أو اختيار هو أقرب إلى التوريط.

هذا بعض ما وصلنى من هذا الحلم:

لم يبق فى الحياة إلا أسابيع فهذا ما قرره الفحص الطبى، فحزنت حزناً شديداً ثم تملكتنى موجة استهتار فأقبلت أتناول الأطعمة التى حرمها على الأطباء من سنين ولازمت صديقتى «س» وعرضت عليها الزواج فدهشت وقالت لى: إنك تفقد صداقة بريئة عظيمة ولا تكسب شيئاً فألححت عليها حتى رضخت وبعد يومين جاءنى صديق طبيب يخبرنى بأن هناك أخصائيا عالميا سيزور مصر وأننا حجزنا لك مكاناً عنده فهنيئاً لك بفرحة الحياة، وغمرنى سرور من رأسى لقدمى غير أننى تذكرت الأطعمة الضارة التى التهمتها، والزواج الذى قيدت به نفسى على غير رغبة، فشاب فرحتى كدر وقلق.

(حلم ١٥٧)

الموت: تمزيق الصفحة فى انتظار الوعد. ثَم موت هو بمثابة تمزيق صفحة الزمن البليد، وذلك متى تبين صاحبها أنها خالية إلا من الاغتراب وتزجية الوقت باللاشىء، أو بتكرار مُسِل، ربما بعزف أنغام النعابة: دون إضافة أو تجديد، حياة أشبه بالتسول، قد يقفز الوعى بهذه اللاجدوى فى أزمة منتصف العمر أو بعده أو ربما بمناسبة فقد عزيز أو بتذكر رفاقٍ، رحلوا بلا معنى ولا أثر، هنا قد يقفز الحل التقليدى بالدعوة للانسحاب، أو حتى قبول الكف عن الشخبطة والثرثرة فى صفحة الزمن الخاوية إلا مما لا لزوم له، شىء أشبه باستجداء الأيام لمزيد من اللامعنى، وتظهر الوعود بالانتقال إلى المكان الجميل والرزق الوفير، وهى دعوة عيانية تصدر عادة من سُلطة وصية مفسِرة، أو حلم واعد بلا ضمان أكيد، ذلك أن تحقيق هذا الوعد يرجع إلى رأى أصحاب النفوذ القادرين الواثقين، فتبدو المسألة كأنها النقلة من خواءٍ فاتر، إلى راحة مؤمَنة، ليكن، فهى الخلاص من الضياع على أية حال، أملا فى القبول بالموعود، ولو من حيث المبدأ، لكن الأمر يحتاج «همة عالية وصبر طويل»، فلم العجلة، فليقصُر وقت الانتظار أو يطول، فالأمر محسوم يوماً عند الجامع على طلوع الفجر

عند منعطف من منعطفات الحارة، رأيت أمامى الصديقين الشقيقين اللذين طال غيابهما وأحزننى غاية الحزن، وبهتنا لحظات ثم فتحت الأذرع وكان العناق الحار، وتذاكرنا الأحزان و الأفراح والليالى الملاح، وطلبا منى زيارة سكنى فمضيت بهم إليه على بعد أمتار، وتفحصاه حجرة بعد حجرة وضحكا طويلا كعادتهما ثم أعربا عن أسفهما لبساطة المأوى، ثم سخرا منى بلسانيهما اللاذعين الجذابين. وسألانى عن عملى الذى أعيش منه، فأجبت بأننى عازف رباب وأتغنى بعذابات الحياة وغدر الدهر، وعزفت لهما وغنيت فقالا إنها حياة أشبه بالتسول، ولذلك فهما لا يدهشان لما يبدو فى وجهى من آثار الضعف والبؤس، وقالا لى إنهما بحثا عنى طويلا حتى عثرا على، وتبين لهما أن قلقهما على كان فى محله وأنهما يبشرنى بالفرج.. حمدت الله على ذلك ولكن ما الذى يبشراننى به؟ قالا ستهاجر معنا إلى المكان الجميل والرزق الوفير، فسألت كيف يتيسر لى ذلك فقالا إنهما - كما أعلم - يمتان بصلة لأصحاب النفوذ ولا خير يجىء إلا عن طريق أصحاب النفوذ.

وتأبطا ذراعى وسارا بى إلى الخارج، حتى بلغنا أحد الرجال العظام شكلا وموضوعا، واستمع للحكاية بوجه محايد، وقال لى إن الهجرة تحتاج لهمة عالية وصبر طويل، فوعدنى خيرا، وقال الصديقان، إنهما يطمئنانى.. فقال:

- انتظرونى عند الجامع على طلوع الفجر.



عاصرت شيخى مع بعض الحرافيش الأصليين، فرحنا بكل الجزع نفقد الحرفوش تلو الآخر فلا نستطيع أن ننسى الموت أو نتغافله



(حلم ٣٤)

الخوف من الموت:

مهما أعلنا حب الموت، أو زعمنا قبوله، أو سلَّمنا بانتظاره، ومهما صدقت الوعود بما بعده، حتى رأيناها رأى العين فى حلم أو بيقين راسخ، إلا أن المسألة - من عمق أعمق - ليست بهذه السهولة المعلنة. حتى بعد التأكد من اللقاء هناك بأمثالنا، وبعد الارتياح إلى صدق الوعد بما لذ وطاب، يظل الحرص على الحياة غالباً ربما من باب «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش»، الحرص على الحياة غالب إلى آخر لحظة حتى لو حُرِمنا هذا الحرص من المشاركة فى ما تُقدمه الحياة، وما بعد الحياة فالأصدقاء فى هذا الحلم هم أصدقاء العمر الراحلون، والامتناع عن مشاركتهم، وهم قد رحلوا، هو حرص على الحياة يمتد حتى بعد الاطمئنان إلى أن الذين رحلوا مازالوا يسمرون ليلاً تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة، والمفارقة الموقظة هنا هى التنبيه إلى أن الخوف من الموت يمتد حتى بعد الموت.

وجدت نفسى فى بهو جميل، وبين يدى وعاء ذهبى ملئ بما لذ وطاب.

فذكرنى هذا بسمار الليالى من أصدقاء العمر الراحلين، وإذا بى أراهم مقبلين تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة. فتبادلنا السلام وأثنوا على الوعاء وما فيه. غير أن سعادتى انطفأت فجأة وصارحتهم بأننى لن أستطيع مشاركتهم حيث منعنى الأطباء من التدخين منعا باتا، وبدت الدهشة على وجوههم ثم ركزوا أبصارهم فى وجهى وتساءلوا ساخرين:

- أمازلت تخاف من الموت؟!

حلم ٩٢

الموت لا يفرق بين الأحبة:

حضور وعى من يرحل عنا «فى» وعى من يبقى منا، هو فرض يزداد اقترابا واحتمال تحقق يوما بعد يوم، سواء من منطلق علمى بيولوجى، أو من منطلق نفسى باراسيكولوجى، أو حتى من منطلق ميتافيزيقى، وبالتالى: إنه من المحتمل أن يبقى - فينا -من نتصور أنه رحل عنا بجسده، خاصة إذا ما كان قد تم بيننا وبينه حوار حياتى جدلى عميق، يسمح بهذا التشكيل المتداخل لوعينا معاً، ليس فقط ما يسمى الحب هو الذى يسمح بمثل هذا الجدل، ولكنه يسمى عادة بهذا الأسم.

سمعت شيخى ينبهنى إلى ما يشككنى فى حبى له، من فرط افتقادى إياه وذلك حين أمعنت النظر فى رد المعلم القديم على المرحومة عين وهى تعتذر له بالموت عن الغياب.

رأيتنى فى حى العباسية أتجول فى رحاب الذكريات وذكرت بصفة خاصة المرحومة عين فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل وهناك رحبت بها بقلب مشوق واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأول وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبة.

من حلم ١٠٤

الموت العدم والجسد الهش:

حضور وعى الراحل فى تشكيل وعى من تبقى من أحياء لا يتم إلا إذا كانت العلاقة حقيقية نابضة: أحيانا نتوهم باندفاع عاطفى مغترب أننا نحب شخصاً ما حباً هائلا، ونحن لانحب إلا ماتصورناه عنه، وحين يختفى جسد هذا المحبوب بالموت، تتراجع أو لا تتراجع معه صورته التى كوناها له، لكنها - الصورة لا الوعى - يمكن أن تُستدعى فى الحلم أو فى العلم، فى ذكرى أو تخيل، لكنها مجرد صورة لا تمثل وعى الراحل، فإذا ما حدثت الصحوة المفاجئة، فقد نصدم ونحن نتبين من خلالها الحقيقة، وأن «طلعتها البهية، ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة» لم تكن إلا من صنعنا نحن، فتتعرى

عندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبة



الصورة ولا يبقى إلا كيان هش، يعلن عدماً منذ البداية..

تريضت على الشاطئ الأخضر للنيل. الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء. هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب. ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر. لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت؟ على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة. وهل الصورة التى طبعت فى خيالى هى الصورة الحقيقية للأصل؟

وإذا بصوت موسيقى يترامى إلى من ناحية الشارع المظلم. صارت أشباحا ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها فى طريقها أدهشنى أنها لم تكن غريبة على فى الموسيقى النحاسية التى كثيرا ما استمعت إليها فى صباى ورأيتها تتقدم بعض الجنازات، وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظا، إما المصادفة السعيدة غير المتوقعة فهى أن حبيبتى الراحلة تسير وراء الفرقة. هى هى بطلعتها البهية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة، أخيرا تكرمت بزيارتى وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتى لتؤكد لى أن العمر لم يضع هدرا، وقمت واقفا منبهرا وتطلعت إليها بكل قوة روحى. وقلت لنفسى إن هذه فرصة لا تتكرر - لألمس حبيبة القلب.

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعى ولكنى سمعت طقطقة شىء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل على فراغ. وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض وتدحرج إلى النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حسرة أبدية.

حلم ١٤

الموت التغيير والمراجعة

حين ينظر الميت (حيا) إلى من خلفه، فلا يجدهم غير سلبيات ما رحل عنه، يتحسر بلا جدوى. ما دام الأمر كذلك فلماذا تركها لهم آملا أن يخطوا هم الخطوة التالية، فتطرد مسيرة الحياة، هذا عن التوقف والجمود، فإذا أضيف إليهما جحود وبلادة هذا الجيل التالى للسابقين، فقد يصدق حدس محفوظ فى تخوفه من النسيان والإهمال فى قصة «علمنى الدهر».

... هذه «حجرة السكرتارية» حيث أمضيت عمرا قبل إحالتى إلى المعاش وحيث زاملت نخبة من الموظفين شاء القدر أن أشيع جنازاتهم جميعا واسترقت نظرة من داخل الحجرة لأرى من خلفونا من الشباب فكدت أن أصعق لأنى لم أر سوى زملائى القدامى، واندفعت إلى الداخل هاتفا سلام الله على الأحباب متوقعا ذهولا واضطرابا ولكن أحدا لم يرفع رأسه عن أوراقه فارتددت إلى نفسى محبطا تعسا ولما حان وقت الانصراف غادروا مكاتبهم دون أن يلتفت أحد نحوى بما فيهم المترجمة الحسناء ووجدت نفسى وحيدا فى حجرة خالية.

حلم ٩٧

يتبين إصرار محفوظ على أن الموت هو خطوة فى حركة متصلة نحو التغيير حين نتأمل ما جاء فى حلم باكر من دعوة إلى مراجعة لما يسمى مسلمات الماضى، حتى بعد رحيله، فقد أعاد محفوظ أستاذه الشيخ محرم من الآخرة بعد أن شيع جنازته قبل ستين عاما، أعاده ليخبره دون مقدمات بضرورة إعادة النظر فى المسلمات التى هو مسئول عن إبلاغها له.

رن جرس التليفون وقال المتكلم:

الشيخ محرم استاذك يتكلم

فقلت بأدب واجلال:

أهلا استاذى وسهلا...

أنى قادم لزيارتك.

على الرحب والسعة

لم تمسنى أية دهشة على الرغم من اننى شاركت فى تشيع جنازته منذ حوالى ستين عاما وتتابعت علىّ ذكريات لاتنسى عن استاذى القديم فى اللغة فى معاملة التلاميذ وجاء الشيخ بجبته وقفطانه الزاهيين وعمته المقلوظة وقال دون مقدمات: هناك عايشت العديد من الرواة والعلماء ومن حوارى معهم عرفت أن بعض الدروس التى كنت ألقيها عليكم تحتاج الى تصحيحات فدونت التصحيحات فى الورقة وجئتك بها.

قال ذلك ثم وضع لفافة من الورق على الخوان وذهب.

(حلم ٦)

وصية محفوظ ودورية النقد:

شغلتنى فكرة دورية نقد متخصصة لأعمال محفوظ منذ نال نوبل وكتبت إلى المسئولين بذلك، بدءا من خطابى إلى أ.د. عزالدين إسماعيل رئيس تحرير مجلة فصول آنذاك فى ١٩٨٨/١١/١١، ورحت أكرر طلبى لإصدارها فى كل مناسبة، كان آخرها للجنة المشكلة لتخليد ذكرى محفوظ، وهأنذا أعثر على حلم ينتهى بهذه الوصية «إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع»، وأقرأ «المقال» بمعنى النقد ونقد النقد، فهى الدورية، وأن يكون حوار لا يتوقف. فهذا وحده هو الذى يحول بين الأجيال الحديثة وأن تفقد ذاكرتها...... الخ.

قرأت فى المجلة مقال نقد قاس لشخصى وأعمالى بقلم الأستاذ ع وإذا به يمثل أمامى معتذرا ويقول إنه يقصد بالمقال أن يكون أساس حوار بينى وبينه يحدث ضجة تعيد الغائب إلى الوجود فقلت له: من يصدق هذا الحوار وأنت ميت منذ ١٥ سنة فقال إنه يعتمد على أن الأجيال الحديثة فاقدة الذاكرة

فقلت له: إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع!

(حلم ١٦٥)

الموت فى أصداء السيرة

أما تناول محفوظ للموت كما ظهر فى الأصداء، فهذا يحتاج إلى عودة مطولة مستقلة، مكتفيا بالعينة التى صدّرت بها هذه المداخلة وهى فقرة من أصداء السيرة الذاتية بعنوان «همسة عند الفجر»، تجليات الموت فى الأصداء هو الفصل الثانى فى الجزء التالى من أصداء الأصداء. ■



هوامش:

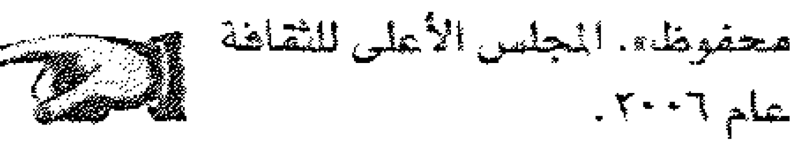
(١) الأهرام ١٨ أكتوبر ١٩٩٤

(٢) ١٠ ديسمبر ١٩٩٢

(٣) يحيى الرخاوى: مجلة فصول المجلد التاسع - العددان الأول والثانى - أكتوبر ١٩٩٠ (ص ١٥٥ - ص ١٧٥).

يحيى الرخاوى: كتاب «قراءات فى نجيب محفوظ» الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٢.

(٤) يحيى الرخاوى: أصداء الأصداء: تقاسيم على أصداء السيرة الذاتية «نجيب محفوظ». المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٦.



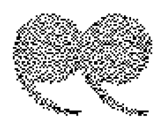
خيـــــرى منصـــــور

البانوراما المحفوظية

من النقد الاتباعى.. إلى نقد النقد

إن نجيب محفوظ هو كما هو.. مصرى وعربى يكتب بلغة ذات مرجعيات جمالية غير إنجليزية وغير فرنسية، لهذا يستحق أن يطلق اسمه على كاتب فرنسى أو بريطانى فى مثل حجمه الروائى إذا تجردت النوايا من ألغامها!

لن يتقلب محفوظ ذات يوم فى قبره إذا علم بأن بلاده ولدت الأنجب، لأنه من صلبه الروائى أولاً، ويشكل قيامته الإبداعية ثانيًا!



الكتابة عن نجيب محفوظ بعد رحيله هى أعسر من الكتابة عنه حيًا، لأن الوداع وطقوسه غالبًا ما يؤجل الاستقرار النقدى، بحيث تغلب الأيقنة كنزعة شرقية مزمنة على التعامل الجمالى، ومحفوظ الذى عاش قرابة قرن، هو كما وصفه مؤرخوه أقصر القرون وأطولها، شهد بالنفى والإثبات معًا على أهم ما عصف بالعالم ومنه نحن العرب، ونادرًا ما كان شاهد ملك، لأنه بطبيعته مفطور على المقاربات السجالية للظواهر، سواء تعلقت بالنسيج الاجتماعى أو بميتافيزيقا الكون!

وقد تكون الكتابة عن أمثاله خصوصًا عندما تكون محررة من الطقوسية وكرنفالية الوداع أشبه بالبحث عن قدم مربع من اليابسة فى محيط يخلو من الجزر، وهذا ما يقوله نقاد شكسبير وأحفادهم، وكذلك نقاد ديستويفسكى وبلزاك ودانتى وآخرين..

وثمة نمطان على الأقل من المبدعين الأكثر فاعلية فى تاريخ الأدب، الأول مقل وذو إنجاز يتيم من طراز الأخوات برونتى ولاميدوزا، والثانى غزير من طراز محفوظ وديستويفسكى وكازنتزاكى، لكن ما قاله الناقد فيتشر عن رواية لامبيدوزا، جدير بالتأمل، فقد قال إنه أعاد إلى كلمة الإنجاز بمعناه الكيفى اعتبارها المسلوب.

محفوظ مقل رغم غزارته، بمعنى آخر هو من المبدعين الذين تكون تكراراتهم إلحاحًا دراميًا على الفكرة ذاتها، هذا إذا صحت مقولة ألبير كامو الذى قال غداة فوزه بجائزة نوبل. إن لكل فنان فكرة أو نبعًا واحدًا يغذى أعماله كلها، وبالفعل استطاع ناقد أوروبى أن يتقصى أعمال كل من كامو وكنجوى من البداية إلى النهاية وهو ممسك بخيط حريرى واحد، ليس لأنهما كتبا الرواية أو القصة ذاتها عدة مرات، بل لأنهما مهجوسان بسؤال خالد تتفرع منه أسئلة الوجود والعدم والحياة والموت والحرية وما يحول دون تحقيقها!

أكاديميًا كان محفوظ محظوظًا بعدد الأطروحات المكرسة لإبداعاته، لكنه الأقل حظًا إذا احتكمنا إلى ما أضافته تلك الأطروحات، التى أكثر مؤلفوها أن يسلكوا الطرق المطروقة والمعبدة، بحيث لا يقع الحافر على الحافر فقط، بل ينطبق عليه، وبالطبع ثمة استثناءات مغامرة وكاشفة لكنها قد تكرس القاعدة، لهذا قد تكون الدراسات النقدية التى كتبت عن نجيب محفوظ بمبادرات ثقافية ومعرفية وذات نزوع موسوعى حى الأجدى، بل الأبقى وفى مقدمتها الدراسات التأويلية التى لم تحلق بجناحين مهيضين حول النص، بل سعت إلى تفكيكه، وأذكر على سبيل المثال مقالة تناولت روايته الطريق، وهى مقاربة تأويلية توصلت إلى أن جملة القرائن التى صاحبت بطل الرواية صابر الرحيمى، تلمح إلى أن المقصود هو جمال الدين الأفغانى، وهذا ليس قراءة بروكوستية تعسفية للرواية، لأن هنالك محاولات سابقة، مارسها نقاد غربيون منها ما سعى إلى تأويل الأسماء، كما هو الحال فى رواية همنجواى العجوز والبحر، وإحدى قصص كامو الطويلة، فاسم سانت باغوب العجوز والبحر اقتاد الناقد باركر إلى طبرية، وكان النبى يعقوب هو ما أحاله إلى القرائن، فلم يعد الصياد عجوزًا يشتبك مع بحر وسمكة قرش بقدر ما هو إنسان يشتبك مع قدره، وبالنسبة لألبير كامو فإن قصته قبلت مثل هذا التأويل الميتولوجى لأن اسم بطلها هو يوحنا المعمدان!

وكى لا تأخذنا هذه التداعيات والاستطرادات بعيدًا عن نجيب محفوظ رغم أنها من صلب الملكوت الروائى الذى ينتسب إليه، فإن هنالك ثلاثة محاور على الأقل تحتاج إلى مفاتيح ذهبية تدار فى أقفالها.

المحور الأول، هو التاريخ، لا بمعناه الحدثى، بل بمعناه النافذ وقد لاذ به محفوظ فى بواكيره استلهامًا، وتمهيدًا، وحتى الترجمة فى هذا السياق تخضع للهواجس ذاتها، لأن نجيب لم يحولها إلى حزمة موازية لإبداعه، ولاح لمؤرخى أدبه أنه ابتدع ما ترجمه، أى انتشى به زمنًا ليحوله فى زمن لاحق!

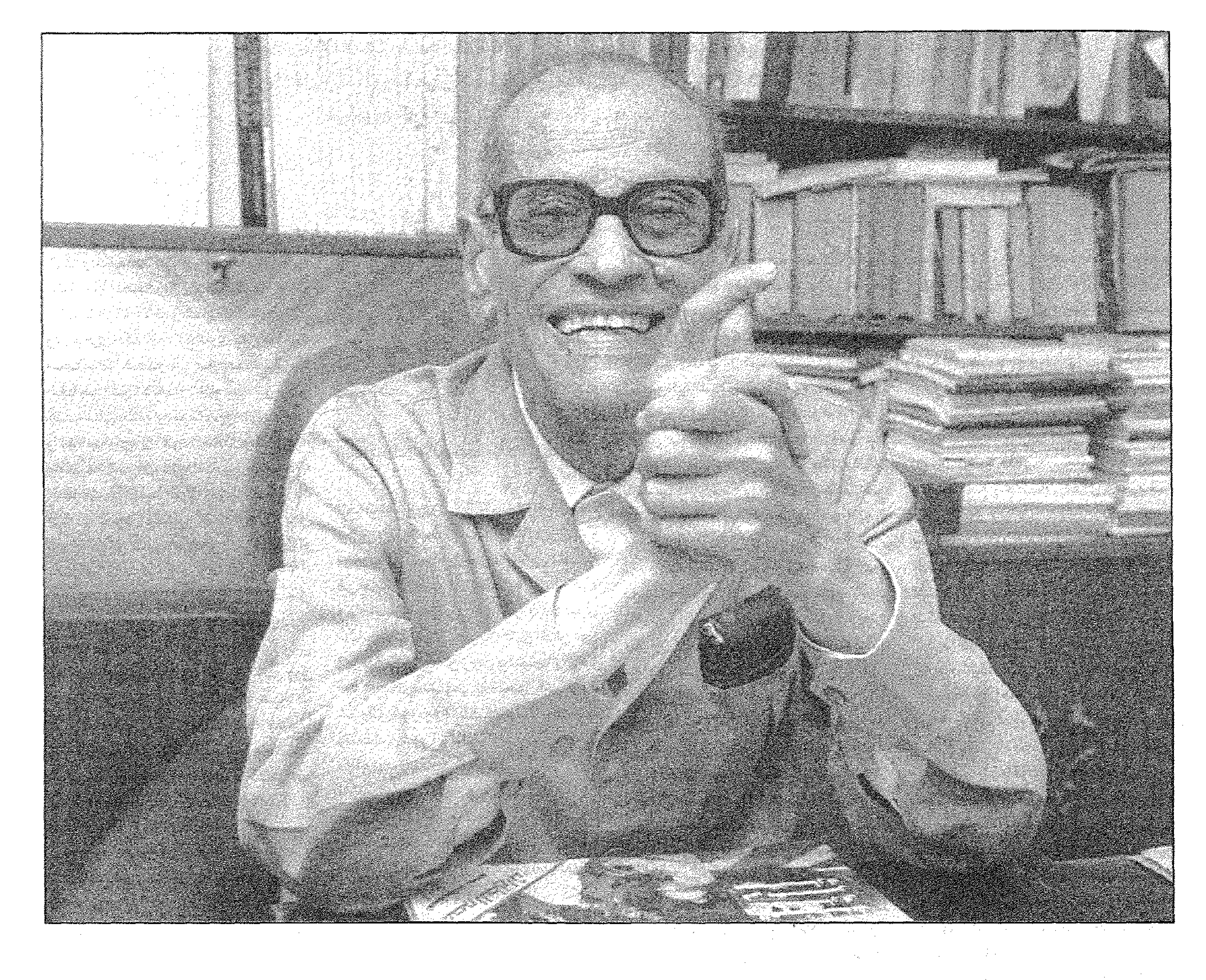
إن الثلاثية وهى النهضة الروائية الأعلى، والأكثر بانورامية فى إبداعه الروائى، لم تكن مجرد تشطير للزمن، أو تحقيب للتاريخ، فهى بإيقاعاتها الداخلية وصيرورتها، كيان روائى واحد، ربما أملت شروط النشر تجزئته فى ثلاثة كتب، وكما أن لكل رباعية جزءًا خامسًا لم يصدر فإن لكل ثلاثية رابعها المحذوف.

ولكى أوضح هذه النقطة كى لا تبدو أحجية، فإن ما كتبه سارتر عن رباعية لورنس داريل يصلح مدخلاً نموذجيًا لقراءة المحذوف أو المسكوت عنه، والجزء الخامس فى رواية «داريل» حسب سارتر هو صمت وشخير حامد الأعور، الخادم النوبى الذى لم يشهد على امتداد الرواية..

وبهذا المقياس، فأين هم شهود نجيب الصامتون؟ الذين يتشكل منهم الجزء الرابع المحذوف من ثلاثيته؟ لكل ناقد وبالتالى لكل قارئ الحق فى أن يعثر على الزوايا غير المضاءة فى المسرح الروائى، وثمة مثلاً من يرون أن الصراع العربى الإسرائيلى شبه محذوف من القلعة الروائية لمحفوظ باستثناء إشارات قد لا تجد اللبيب الذى يفهمها.

واقعية الممكن

عندما أصدر جارودى فى مرحلته الوردية كتاب «واقعية بلا ضفاف قبل السبعة عقود، صاح الواقعيون مثلما فعل أرشميدس قائلين وجدناها، فالواقعية



ليست رهينة التعريف المعجمى الهاجع فى موسوعات النقد، لهذا أصبح ثلاثى عالمى منعوت بالسوريالية واللاواقعية والفانتازيا واقعياً، لكن بلا ضفاف.. وهذا الثلاثى هو اراغون وكافكا وسان جون بيرس، وإذا أضيف إليهم بابلو بيكاسو فإن التعريف الجديد للواقعية حررها من الكولوخوز ومستوطنات الحزب التوتاليتارى وأمثولة «الأم» لجوركى بعد أن أعلن العصيان على ما طلب منه صديقه لينين بعد صدور رواية «الأم».

ونجيب محفوظ جدير بأن يكون فى طليعة الواقعيين الذين بلا ضفاف، لأن واقعيته تندرج من المعنى الدقيق والكلاسيكى للمصطلح إلى ما يمكن تسميته واقعية الممكن أو الواقعية الفائقة، فهو مثلاً فى عام ١٩٦٦ ومن خلال روايته ثرثرة فوق النيل تحدث عما سيحدث، وليس عما حدث، بحيث اكتشف عرب حزيران بعد تلك الهزيمة أنهم محكومون بالإقامة فى اليوم السابع من حرب الأيام الستة عدة عقود وفى عوامة بسعة قارة.

وهو يذكرنا بواقعية مكسيم جوركى إلى حد ما وواقعية بلزاك إلى حد أبعد، فالأول كتب عن وقائع لم تقع إلا بعد رحيله، ومنها قصة الخادمة، التى خنقت طفل مخدوميها لفرط إحساسها بالنعاس وهو الذى كان يحول دون نومها.

وهذا ما تنبه إليه بحصافة الروائى كونديرا عندما كتب عن شخوص سلفه التشيكى كافكا، فهؤلاء الشخوص من لحم ودم، ولهم ذرية فى نظم شمولية حيث الكوابيس لا تعود حكراً على الراوى!

وقد تكون رواية الشحاذ مزيجاً من واقعية قابلة للتأويل ومشحونة بالممكنات وبين الميتاواقعية التى صهرت خاتمة الرواية ومصير البطل «الحمزاوى».

والأرجح أن نجيب محفوظ بما احتازه وامتاز به من قدرة على التوازن، وتدريب على الانضباط لم يجابه الواقع وجهاً لوجه أو بمعنى أدق قلما لسوط، لهذا كان الترميز إحدى أدواته ودفاعاته أيضاً، فأسماء أبطاله لم تكن منحوتة جزافاً، بدءاً من الطريق حتى أولاد حارتنا والمرايا، وكذلك الأمكنة التى شكلت مسرحه الروائى، فهى أزمنة أكثر منها أمكنة إذا قبلنا بالتعريف القائل إن الجغرافيا هى تاريخ متخثر، فالجمالية والحسين وخان الخليلى والكرنك وقشتمر ليست مجرد أمكنة صماء أو ساحات يدار عليها وحولها السرد، المكان لدى نجيب بطل روائى بامتياز. بانسيون ميرامار، مكان بطل وكذلك العوامة فى ثرثرة فوق النيل ومقهى الكرنك وزقاق المدق، لكن نجيب محفوظ بقى مسكوناً بالمكان الأول، وهو حى الجمالية، ويعترف فى حوار أجراه معه محمد سلماوى أنه عندما انتقل من الجمالية إلى العباسية أقنع العباسيين بالعودة معه مرة فى الأسبوع على الأقل إلى الجمالية، ويقول أيضاً إنه قد يذهب إلى فندق مثل سميراميس، ويستمتع بوقته، لكنه متأكد من العودة إلى مقهى الفيشاوى.. وقد تكون هذه النوستالجيا المحفوظية قدر تعلقها بالحنين إلى مسقط الرأس والطفولة هى ما يفسر حنين أبطاله للعودة إلى حيث كانوا، لكن عبر تأويلات زمانية وليست مكانية فقط.

المحور الثانى الذى يحشد عدة مقاربات محفوظية فى قلعته الروائية المرأة، فنساؤه لسن نمطاً واحداً، رغم أن الأم تبقى ذات سمات شبه ثابتة، بسبب اعترافه فى أكثر من مناسبة بتعلقه بأمه. نساء رواياته نماذج متباينة حد التضاد باستثناء الأم، وذلك لهدف محدد هو توضيح خطوط الطول والعرض الأنثوية فى واقع ملغوم بالتناقضات وتحكمه أيديولوجية ذكورية، وثمة رأى شائع بأن بطلات محفوظ هن على الأغلب يرمزن إلى مصر.. وكنت قد سمعت هذا الرأى من الفنان الراحل محمود مرسى قبل ثلاثين عاماً، وهو يتحدث عن ريرى وعن دوره فى رواية السمان والخريف، وإذا كانت الحارة كما يقول ترمز إلى مصر، كما فى زقاق المدق، وإلى الكون كله كما فى الحرافيش، فإن امرأة واحدة مثل زهرة فى ميرامار قد ترمز إلى مصر، لكنها تتمدد لتقبل الحياة برمتها وفطرتها قبل أن تتعرض للغواية! لكنها قاومت وإن كان لعاب زبائن البانسيون قد سال مدراراً عليها باستثناء اثنين، هما الصحفى

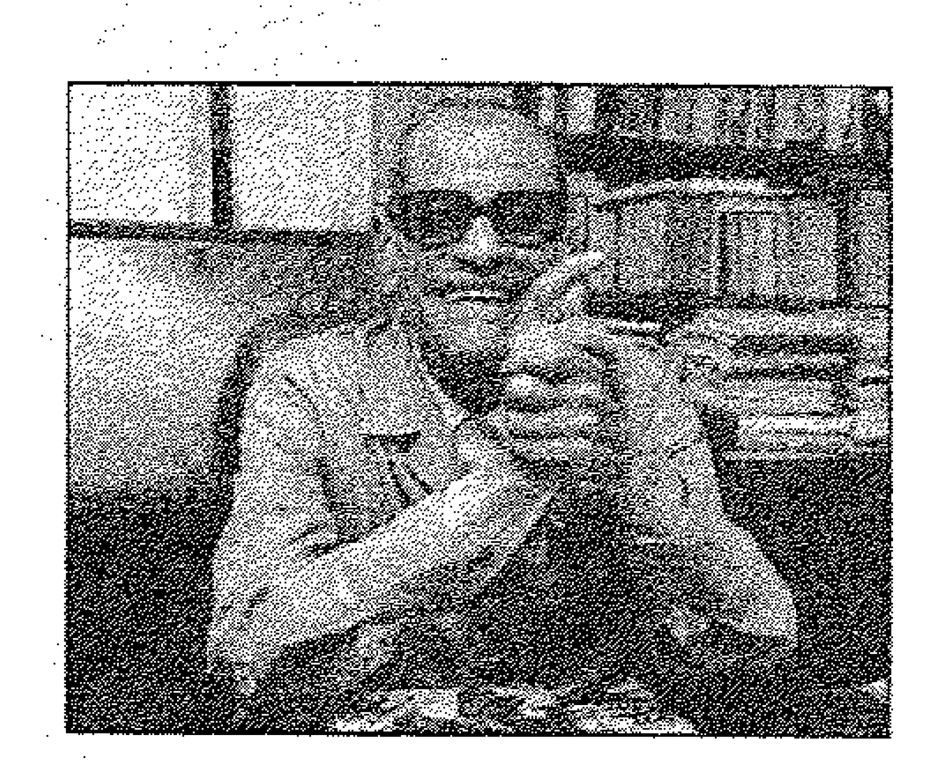
الوفدى المتقاعد عامر وجدى والشيوعى التائب أو المضطر لإعلان التوبة تحت تأثير شقيقه الأكبر ضابط البوليس، وقد يغرى التشابه الظاهرى بين بطلات محفوظ خصوصاً من اضطرتهن الحاجة إلى الاتجار بالجسد بزجهن جميعاً فى خانة واحدة، «نور» فى «اللص والكلاب» و«ريرى» فى «السمان والخريف» و«بسيمة عمران» فى «الطريق»، التشابه الظاهرى يتجسد فى كون نساء محفوظ ملاذات لرجال مكسورين، يلجأون إليهن ثم يتمردون عليهن، وأخيراً يندمون أو يعترفون بالذنب.

وهنا علينا ألا نغفل التدخل السينمائى فى مصائر الشخوص لدى محفوظ، فالروايات تخسر كثيراً، وهى تهاجر من ورق الإبداع البكر إلى ورق السيناريو المصنع، وقد يحدث اختلاف عابر فى بعض التفاصيل خللاً بنيوياً فى النسيج الروائى، لا يستشعره مشاهد الفيلم، ولا قارئ الرواية الذى لم يشاهده، بل من قرأ أو شاهد وقارن!!

البغى الفاضلة

هذه الموضوعة بحد ذاتها مطروقة فى العديد من الثقافات، وقد نجد نصوصاً موغلة فى القدم تحاول الانتصاف للبغى، باعتبارها ضحية اجتماعية، لكن القرن العشرين شهد معالجات درامية لهذه الظاهرة المسكوت عنها أخلاقياً، والمتواطأ عليها اقتصادياً واجتماعياً، والمسرحية الشهيرة «المومس الفاضلة» لجان بول سارتر تنسجم وتتناغم مع السياق الوجودى لأعمال هذا الفيلسوف الفكرية والفنية، حتى وجد من اتهمه من النقاد بأنه قدم أدباً هو المعادل التعبيرى لأفكاره المجردة فى كتابيه الوجود والعدم وفقد العقل الجدلى.. بغايا روايات محفوظ من طراز مغاير، رغم أن إفراز مثل هذه النماذج فى كل بلدان العالم يبدأ من الحاجة، وبالتالى من استغلال الميسورين لمن يعانون من العسر، سواء كانوا من أحزمة الخدمات والمهمشين أو من النساء اللواتى يتاجرن بأجسادهن، لأن الجسد هو رأس المال الوحيد الذى يملكنه.

وبالرغم من أن مهنة البغاء هى أقدم مهنة فى التاريخ، كما يقال، إلا أن لكل عصر معياره الخاص الذى يحتكم إليه فى تعامله مع هذه المهنة، وبالنسبة لمحفوظ هناك نموذجان يجسدان البغى



الفاضلة، ريرى فى «السمان والخريف» و«نور» فى «اللص والكلاب»، ريرى يغدر بها عيسى الدباغ البطل المدحور والمصاب فى عمق نرجسيته الطبقية والعاطفية والحزبية أيضاً، وهى لم تكن تريد سوى حياة عادية، لهذا لم يحل فارق السن دون قبولها بالزواج من رجل يصونها ويوفر لها حياة كريمة، وهى إذ تتحول إلى زوجة ثم إلى أم رءوم لطفلتها الوحيدة وتستقيم بعد أن انتفت حاجة الإتجار بالجسد تقدم نموذجاً لبغى ساقتها الظروف إلى هذه المهنة، لهذا فهى أكثر نبلاً من الرجل الذى استخدمها ثم طردها، وأخيراً استنكر عليها أن تكون أماً لابنته وبعودته إليها فى نهاية المطاف باعتبارها الملاذ الوحيد الباقى، تكون فضيلتها قد استكملت الدائرة بالقوس الأخير.. الذى تشكل من الاعتذار والعودة!

لهذا لا أرى ما رآه البعض وهو أن عيسى الدباغ بطل السمان والخريف كان الطائر المهاجر الذى اصطادته البغى من نقطة ضعفه وهى تعبه وانكساره وخذلانه بعد أن تزوجت خطيبته من ابن عمه، وانكسر صولجانه!

الصياد هنا ليس امرأة، إنه المجتمع، وبمعنى أدق طبقة سياسية محددة، لأن



قد تكون رواية الشحاذ مزيجاً من واقعية قابلة للتأويل ومشحونة بالممكنات التى صهرت خاتمة الرواية ومصير البطل



احتكار السلطة وفق أدبيات السياسة العربية المعاصرة يتأسس على النبذ المتبادل وفلسفة الإقصاء والإعدام الرمزى إن لم يكن الإعدام العضوى متاحاً.. وقد يكون عيسى الدباغ نموذجاً محفوظياً للبطل التراجيدى الإشكالى، فهو فاضل أيضاً لكن بمقياس آخر، يقاتل فى صفوف خصومه القدامى فى العدوان الثلاثى على مصر، ويعلن طلاقاً سياسياً بائناً بينه وبين الرفاق القدامى الذين رأوا فى العدوان خلاصاً من الثورة وفرصة للثأر ممن قاموا بها!

إن هذا التناوب على الفضيلة بين بغى تائبة وسياسى يعود إلى رشده الوطنى فى زمن الحرب، حد تعبير عن التوازن المحفوظى الذى لا يرى البشر موزعين بين ملائكة وشياطين، والنموذج الثانى، وهو نور، التى لاذ بها سعيد مهران الهارب فى اللص والكلاب، وجد فى فضيلة إيواء سعيد والإنفاق عليه وحمايته التعويض عن الرذيلة، وكما عثر عيسى الدباغ على فضيلة تحقق له التوازن غير سعيد مهران اللص والقاتل على فضيلته أيضاً، فهو لم يتخل عن البغى التى احتضنته، وربما كان إصراره على إحضار الدواء لها أحد أسباب العثور عليه، وكما أن الدباغ جلاد وضحية وملاك وشيطان فإن مهران أيضاً كذلك، إذ لولا تلك المواعظ التى كان يحقنه بها الطالب الذى أصبح صحفياً مرموقاً لما وجد التسويغ الكافى لاحتراف السرقة.

إذن هناك عدالة، ومرجعية ضميرية - كى لا نقول أخلاقية - كانت على الدوام تحقق لمحفوظ توازنه، وبالتالى خروج شخوصه عن الثنائيات الحاسمة التى تحولهم إلى بيض وسود وأخيار وأشرار.

والمحور الثالث الذى لا يمكن لقارئ محفوظ وناقده أن يتخطاه هو دور مدينة الإسكندرية فى بعض أعماله، والإسكندرية جغرافياً وثقافياً وتاريخياً مدينة متوسطية، تشتبك فيها عدة هويات حتى أشبه بما وصفه لورنس داريل وهو يتحدث عن الأساطيل الستة فى بحرها. وكان الناقد محمود أمين العالم أول من رصد التعامل المحفوظى مع الإسكندرية، خصوصاً فى السمان والخريف، فهى تبدو كما لو أنها مخلوعة من السياق الحضارى والثقافى الذى تقع مصر فى صميمه، بل فى العمق منه، فهل الإسكندرية بما تعنيه كملاذ ومنفى لمن فروا إليها من أعباء الإخفاق فى القاهرة حى مدينة كوزموبوليتية؟ أم أن هناك فى اللاوعى ما يوحى بأنها هيلينية،

فيها الكثير من أصداء غرب البحر المتوسط؟

أذكر مثلاً أن رواية داريل عن الإسكندرية تضمنت مقاطع صريحة عن التباس هوية المدينة، وحين تلتقط جوستين بطلة الجزء الأول من الرواية حبة زيتون من الإناء، تقول بأن نكهة غرب المتوسط بدءاً من اليونان قد انفجرت فى حلقها!

أما نسيم حصنانى، فكل ما يرد من قرائن حول شخصيته يجزم بأنه ثمرة خليط من الثقافات، بل هو خلاصة تلك الكيمياء التى ربطت شرق البحر المتوسط بغربه، لأنه جسد أقصى التلاقح وليس التلاقى فقط بين الحسية الوثنية والتجريد الفلسفى.

وحقيقة الأمر أن الإسكندرية فى روايات محفوظ التى اتخذت من المكان بطلاً، تلعب الدور ونقيضه فى آن، عيسى الدباغ بطل «السمان والخريف» يهرب إليها من ماضيه، وقد يكون نداء المستقبل هو ما اجتذبه إليها ليجرب حظه، لكن صابر الرحيمى بطل «الطريق» يفعل العكس، فهو هارب من حاضره الإسكندرى ليبحث عن أبيه الذى يرمز إلى ماضيه فى القاهرة، رغم أن العثور على الأب قد يعادل العثور على المستقبل المحلوم به!

ولا تتحول إسكندرية محفوظ إلى مكان عائم الهوية إلا فى ميرامار، البانسيون الذى يحتشد فيه شخوص يمثلون أهم الشرائح التى كان المجتمع المصرى ينوء بصراعاتها.. وحين يلتقى فى مكان واحد الإقطاعى المؤمم والعاطل بالوراثة والموظف فى القطاع العام والعضو فى الاتحاد الاشتراكى مع الصحفى الوفدى المتقاعد والشيوعى الحائر بين التوبة والاستمرار فإن هذا المكان سيتحول إلى مسرح يعج لا بالصراعات فحسب، بل بكل ما كان يمور به المجتمع الآخذ فى التحول، والذى يشتبك جديده مع قديمه.

ميرامار تشبه إلى حد ما رواية السفينة لجبرا إبراهيم جبرا، لأنها مكان شبه مطلق وغير محدد، فالبانسيون محطة فى الطريق إلى مكان ما.. رغم أن ما أوحت به ميرامار هو أن النزلاء مقيمون إلى الموت، لأنهم غادروا مساقط رؤوسهم ومساقط أرواحهم أيضاً، وانتهوا إلى انتظار غودو الذى يأتى فقط ليقول بأنه لن يأتى!

بالطبع لن يكون هناك تماثل بين إسكندرية كفافى وداريل وإسكندرية

أكاديمياً كان محفوظ محظوظاً بعدد الأطروحات المكرسة لإبداعاته، لكنه الأقل حظاً إذا احتكمنا إلى ما أضافته تلك الأطروحات، التى أكثر مؤلفوها أن يسلكوا الطرق المطروقة والمعبدة، بحيث لا يقع الحافر على الحافر فقط، بل ينطبق عليه



محفوظ، رغم أن التماس قائم، وثمة مراوحة على تخوم مدينة بحرية محررة من شروط اليابسة، وهنا أحب أن أشير إلى مسألة قد تبدو عابرة على صعيد الوعى، لكنها ليست كذلك على صعيد اللاوعى، وهى أن المصريين يسمون القاهرة مصر بحيث تبدو الإسكندرية بالتحديد مناخاً نفسياً واجتماعياً وثقافياً مغايراً!

وأية مقارنة بين العوامة كمكان مطلق فى «ثرثرة فوق النيل» والبانسيون كمكان مطلق أيضاً فى رواية ميرامار ترينا الفارق بين رؤيتين تعامل بهما محفوظ على المكانين.

«ثرثرة فوق النيل» يتجانس الشخوص رغم اختلاف المهن فى الهاجس العبثى، وفى الاستسلام لرؤى عدمية، وحين يتولى حشاش محترف قيادة العوامة رغم أنه وصلها بالصدفة فإن معنى ذلك ببساطة هو أن العوامة ليست رمزاً لواقع فاسد، بل هى كثافته، وقد استطاع الروائى تقطيرها فى شخوص، لهذا فإن «ميرامار» تملك من إمكانات المسرحة الروائية أكثر مما تملك «ثرثرة فوق النيل» لأن التناقضات بين الشخوص تصل إلى أقصاها، بل يكون الموت من حصة أحد النزلاء، أما فى «ثرثرة فوق النيل» فالموت يحدث خارج العوامة وبعيداً عنها، عندما تسحق السيارة التى يركبها الشخوص جميعهم فلاحة فى الطريق.. وبالعودة إلى مفهوم البغى الفاضلة فإن «ميرامار» تخلو من هذا النموذج، بل هى على العكس من ذلك تقدم زهرة الفلاحة الأمية الخادمة فى البانسيون والهاربة من زواج قسرى من رجل عجوز إلى رمز مشحون بالمناعة، وكان بمقدورها أن تقيم علاقات مع كل الزبائن بدءاً من طلبة مرزوق الإقطاعى الذى يعيش على الذكرى حتى العاطل بالوراثة.. هكذا يصبح لدى محفوظ نموذج لامرأة أفضل من البغى الفاضلة، وهى التى تقاوم شروط التحول السلبى والاستسلام بسبب الحاجة أولاً، والأمية ثانياً..

نوبل بأثر رجعى

نلاحظ أن الخطاب الاحتفائى بنجيب محفوظ منذ عام ١٩٨٨ مقترن على الدوام بفوزه بجائزة نوبل، وبإضافة صفة «العالمى» إلى اسمه، وهنا لا نستطيع الحديث عن نوبل وشجونها ونجيب محفوظ بمعزل عن ثلاث قضايا، الأولى، هى المفهوم الرائج عربياً لهذه الجائزة، والثانية تأرجح الموقف العربى منها سلباً وإيجاباً تبعاً لمن ينالونها فى كل عام! والثالثة دورها الحاسم فى سيرة محفوظ أكثر من دورها فى أدبه.

القضية الأولى: تتلخص فى الريبة التقليدية من كل ما يصدر عن الغرب بسبب العلاقة غير الصحية بينه وبين بلدان العالم التى كان ولايزال يحاول الهيمنة عليها والتهامها!

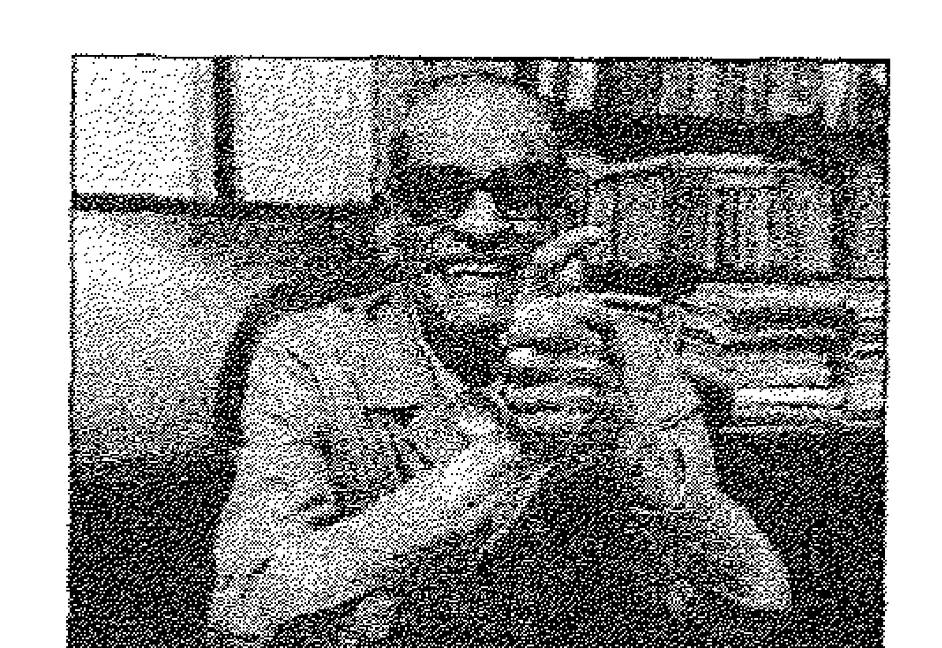
ولم يخفف إلى حد ما من هذا الإحساس قدر تعلقه بالجائزة سوى فوز أدباء آسيويين وأمريكيين لاتينيين وأفارقة بها، أى أنها لم تعد حكراً على النطاق الجغرافى للغرب.

أما تأرجح الموقف منها، فهو تبعاً لمن ينالونها، فحين نالها الصهيونى يوسف عجنون أحس المثقفون العرب أن هذا يشكل انحيازاً أيديولوجياً وقوة كولونيالية، خصوصاً حين أشارت الجائزة إلى اللغة الطقوسية وشبه الغاربة التى كتب بها عجنون وهى اليديشية.

وحين نال بعضها أنصاف أو أثلاث ساسة عرب، بعد إنجاز اتفاقيات سلام مع الدولة العبرية، تصاعدت وتيرة الارتياب وعلق البعض خصوصاً من الراديكاليين العرب قائلين إن الغرب لا يكرمنا ولا يعترف بنا إلا حين نلبى رغائبه، ويكافئنا على ما نرضيه به وليس على ما يرضينا.

لهذا كان فوز نجيب محفوظ بالجائزة بمثابة إعادة النظر عربياً بها، والأمر لا يخلو من نزعة برغماتية ليس هذا مقام السجال حولها..

وما كتبه الناقد والكاتب الكبير رجاء النقاش فى كتابه «فى حب نجيب محفوظ» حول نوبل وشجونها المحفوظية يستحق الاستذكار.. فهو يرى أن نوبل ظفرت بأدب طالما تجاهلته هو الأدب العربى، ونحن نضيف أن نجيب محفوظ إذا حذفت من سيرته جائزة نوبل لن ينتهى إلى كاتب عادى، فهو أنجز أهم أعماله قبل فوزه بالجائزة بعقدين على الأقل، وكان يستحقها قبل موعد منحها، لهذا قلت لإذاعة صوت أمريكا بعد خمس دقائق فقط من إعلان فوز محفوظ بالجائزة أن التوقيت يستحق التأمل، وهذا ليس انتقاصاً من جدارة محفوظ بالجائزة، بل إشارة إلى استحقاقه لها قبل الموعد وفى حقبة عربية لم تكن قد دجنت بعد سياسياً وثقافياً وعسكرياً واقتصادياً!



وأكثر ما يفتضح النرجسية العربية الجريحة هو النعوت التى تطلق على أمثال محفوظ تعبيراً عن الرغبة فى الاحتفاء ومنها أنه شكسبير العرب، أو بلزاكهم أو ديستويفسكى مصر.. وهذا النمط من التفكير يعود إلى تراث استشراقى تحدث عنه بقسوة وإلحاح درامى اثنان على الأقل من ضحايا الكولونيالية هما مالك بن نبى وفرانز فانون، عندما رأى كل واحد منهما بطريقته أن الغرب الاستعمارى زرع قبل رحيله صورة المستعمر (بفتح الميم) عن ذاته، فأوقعه فى وعى سالب واغترابى.. ولا أظن أن الإنجليز قالوا يوماً بأن تشوسر أو جون دن أو إليوت هو متنبى بريطانيا، أو أن الفرنسيين قالوا بأن ديكارت هو ابن رشد فرنسا أو ابن خلدونها!

وهذه مسألة تستحق التأمل لأنها ليست موسمية أو عابرة، فحين أصدر غاتيان بيكون وبواديفير معجمين عن الأدب الفرنسى، قال أحدهما بأن اللغة الفرنسية هى الإمبراطورية الفرانكفونية البديلة، لهذا أطلق على الكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكى اسم فرانسواز اللبنانية وعلى كاتب سورى اسم ألبير كامو السورى، وكأن هؤلاء العرب مجرد ظلال أو أصداء، ناسين بأن التكرار قدر تعلقه بالإبداع هو مجرد كاريكاتور، يذكرنا بما قاله ماركس عن عودة التاريخ مرة بصورة الكوميديا وأخرى بصورة التراجيديا..

إن نجيب محفوظ هو كما هو.. مصرى وعربى يكتب بلغة ذات مرجعيات جمالية غير إنجليزية وغير فرنسية، لهذا يستحق أن يطلق اسمه على كاتب فرنسى أو بريطانى فى مثل حجمه الروائى إذا تجردت النوايا من ألغامها!

وإلى أن يبلغ الوعى السالب رشده الحضارى وتشتعل الإرادة المرتهنة ونصف المشلولة، فإن المشبه به سوف يبقى هناك فى نطاق آخر، لأنه النموذج الذى يجب احتذاؤه حسب أدبيات المحاكاة وما ترسب من الثقافة الكومبرادورية بعد قرون من التبعية! والسؤال الذى تمليه علينا هذه المناسبة، هو هل بدأ الناس يقبلون على محفوظ بعد نوبل، أم أنها اجتذبتهم بسحرها لإعادة اكتشافه؟

إن الإجابة ليست متاحة لنا أو لسوانا بسبب التباعد الهائل بين قارئ وآخر، وبين ناقد اتباعى يعيش على نشارة الكتب لا الخشب وبين ناقد اجتراحى مغامر..

فما كتب عن نجيب غداة فوزه بنوبل وعشية رحيله كثيرة احتفائى يليق بالرجل، لكنه لا ينتفع به، كما لا ينتفع به روائيون قادمون من المستقبل، وما قيل عن النقد الأشبه بالنحل يصدق هذه الأيام على نقدنا، فثمة نحل يعلف بالسكر المطحون، وثمة نحل يقطع آلاف الأميال بحثاً عن الرحيق، وشتان بين شهد وشهد.. وأخيراً بين شاهد وشاهد!

نعرف أن عالمية محفوظ هى المرادف أو المعادل الموضوعى لمحليته، فهو ستنطق حتى الحجر الأصم فى معابد وبيوت وأسوار وقلاع مصر، ولم يكن يخطر بباله أن يكون عالمياً إلا عبر طريق واحد يفضى إلى العالمية، هو محليته، وتشبثه بجمرة المكان الذى سقط عليه رأسه فى حى الجمالية، الحى المهور بأزمنة لا يمكن اختزالها بكاميرا سائح أو بسحابة بخور أو بنشيد ليلى مضمخ بالنشيج المدائحى!



ميتافيزيقا محفوظ ملجومة بعض الشيء ولا تمضى حتى النهاية، بحيث يبدو نجيب أقرب إلى أسلوب الغزالى فى الشك منه إلى ابن رشد



البحث عن الخلاص

إن غودو الذى ينتظر ثلاثة على الأقل من أبطال محفوظ قدومه للخلاص، لا يأتى

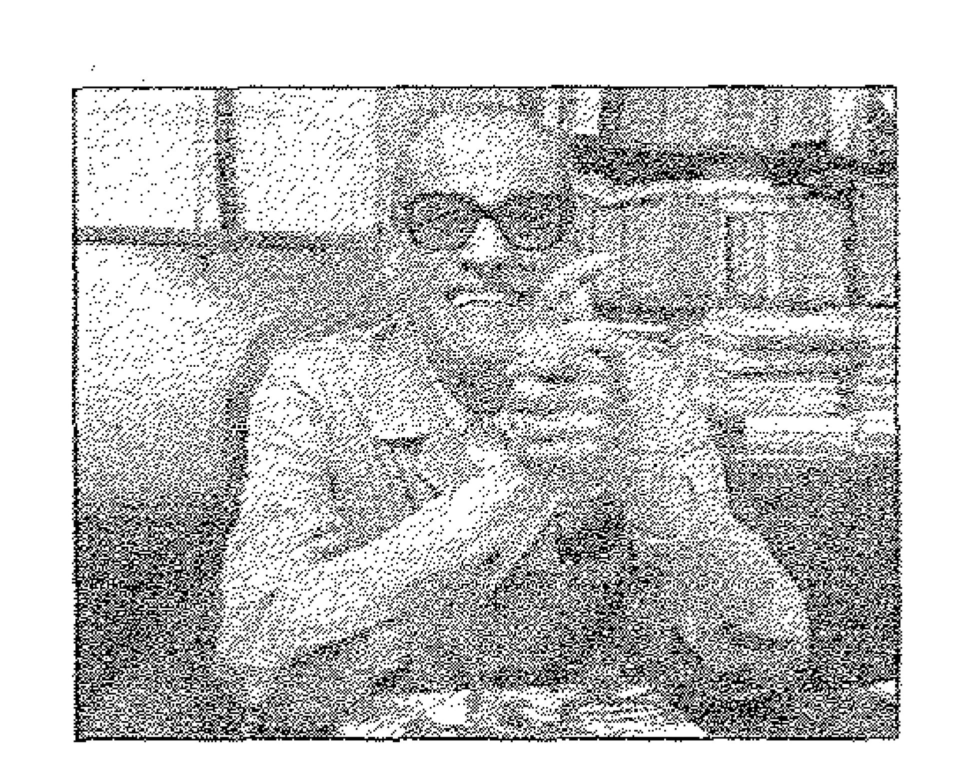
على الإطلاق رغم أنه يتجلى أحيانًا فى مظاهر سرعان ما يروغ منها، فى الطريق، يكون الخلاص الموعود عن طريق الأب سيد الرحيمى الذى زرع البذرة واختفى، لهذا يلوح الأب للابن الضال فى سيارات مسرعة وملامح بعض المارة، لكنه يبقى كينونة مشتتة لا تلتئم فى أى سياق آدمى.

وقد يكون البحث عن زعبلاوى فى دنيا الله أوضح بكثير من الطريق لأن زعبلاوى ليس مجرد أب موسر ينتقل بين العواصم والنساء، إنه بكل ما يرمز إليه ذو صلة ما بالغيب، وهناك قراءة نقدية لزعبلاوى قدمها كاتب إسرائيلى هو ساسون سوميخ، الذى ينتهى إلى القول بأن نجيب محفوظ أنجز نصًا هو بمثابة إعادة إنتاج للخبرة البشرية، لكن عبر الواقع فى بعده المحلى، وكان الناقد ماهر شفيق فريد قد أشار إلى هذه الدراسة فى مقالته عن محفوظ ضمن العدد المكرس لمناسبة بلوغ محفوظ الرابعة والتسعين فى مجلة «الهلال» عدد ديسمبر ٢٠٠٥.

لكن دراسة سوميخ هذه تبقى فى النطاق الاستشراقى لأنها تلتقط من القصة مفردات وإيحاءات ذات مدلول صوفى فى الثقافة العربية، وإذا كان أحد أساتذة علم النفس فى جامعة الأزهر قرر رواية الشحاذ نموذجًا للرواية السايكولوجية، فإن قصة زعبلاوى جديرة بذلك لأنها مشحونة بهواجس الوجود وسؤال الحياة البكر والجذرى..

والجرثومة التى أصابت البطل زعبلاوى وحولت حياته إلى بحث مستمر عن خلاص أو «سلفادور» بالمفهوم الدينى أصابت بطل الشحاذ، بحيث كانت حياته تسير على وتيرة رتيبة، ولا يشكو من شىء إلا الضجر، فجرب العبث بكل وسائله، وتنقل بين النساء ليكتشف أن المرض العضال الذى قضم عافيته الروحية لا شفاء منه، ومن خلال ثلاثة نصوص على الأقل لنجيب محفوظ حول سؤال الوجود وهدفية الحياة والضياع الآدمى فى زحام هذا الكون يتضح أن الرجل كان يكظم مكابدات حقيقية تتعلق برؤاه حول العالم والخلق وأسرار الوجود، لهذا تبقى شهوة القيامة ملازمة لأبطاله الذين يشعرون بأنهم من البشر الفانين، لكنها قيامة تأخذ أحيانًا بعدًا رمزيًا وتتخفى أحيانًا أخرى وراء التماهى مع نماذج عليا، ذات وهج عقائدى أو جاذبية تاريخية!

من هنا يمكن مقاربة نصوص



محفوظية مع نصوص روائية ومسرحية كتبت فى أوروبا فى فترة ما بين الحربين العالميتين، فما كان لأبطال مالرو وكامو وسارتر أن يكونوا على ما هم عليه من إشكالية وتمزق ومراوحة بين اليقين والشك، لولا أن أوروبا مرت خلال نصف قرن بحربين عالميتين دمرتا من المعانى والمنظومات القيمية أكثر مما دمرتا من القلاع والمبانى.

وقد يذكرنا أبطال العوامة فى «ثرثرة فوق النيل» بمسرحية جلسة سرية لسارتر التى ترجمت بعنوان الحلقة المفرغة، حيث يجد عدد من الأشخاص أنفسهم سجناء فى مكان مغلق، وعليهم أن يمارسوا حياتهم على مرأى من بعضهم، بحيث أصبح كل واحد منهم يشعر أن الجحيم هو الآخر.

أبطال العوامة لا يستيقظون من سباتهم وغيبوبة الحشيش حتى بعد ارتكاب جريمة جماعية هى سحق الفلاحة الشابة أثناء القيادة النزقة للسيارة الفارهة، وكان لابد من شاهد صامت يفتضح عريهم الأخلاقى وعدميتهم سواء كان الصحفية المغامرة أو «أنيس» زعيم مملكة الحشيش فى العوامة.

ولا أدرى لماذا ذكرنى هذا الفارق بين أبطال الحلقة المفرغة لسارتر وأبطال العوامة بمقالة بالغة الأهمية كتبها سلامة موسى ذات يوم عن بيجماليون الحكيم وبجماليون شو.. وكان قد توصل إلى سمة أساسية فى العقل الشرقى أو بمعنى أدق فى الثقافة الشرقية كى لا نسقط فى فخ المصطلح الاستشراقى العرقى من خلال المقاربة بين أسلوبى توفيق الحكيم وبرنارد شو!

إن ميتافيزيقا محفوظ ملجومة بعض الشىء ولا تمضى حتى النهاية، بحيث يبدو نجيب أقرب إلى أسلوب الغزالى فى الشك منه إلى ابن رشد، لأن جاذبية الإيمان سواء كانت للعجائز أو للفتيان لم تضعف فى مجمل أعماله، وقد يعود ذلك إلى سببين أولهما التكوين الروحى والنفسى والثقافى لنجيب الذى ولد فى حى ممهور بنداهات الصوفيين، وثانيهما الاحتراز الفطرى من محاكم تفتيش غير معلنة، لكنها قابلة للظهور إذا وجدت مناسبة، وهذا ما حدث مرارًا منذ قرون، وبالتحديد ما حدث فى النصف الأول من القرن العشرين مع عبدالرازق وطه حسين وآخرين! حيث كانت التوبة شرط البراءة والتوبة ليست بمعناها الفقهى، بل بالمعنى الذى صاغه الاتباعيون بعد أن حذفوا منه هامش التسامح!

الديوث الراذل

النقيض المحفوظى للبغى الفاضلة هو الديوث الراذل أو غير الفاضل، وقد يظهر الديوث أو بمعنى آخر أكثر تداولاً (القواد) فى بعض الأعمال وقد أقصى إلى هامش ثانوى، لكنه فى «القاهرة ٣٠» يصبح البطل، الذى أضافت له السينما قرنين تناغمًا مع المفهوم الشعبى، قد لا يراهما الآخرون، لكن محجوب عبدالدايم يراهما بوضوح، خصوصًا عندما يختفى وراء باب العمارة كى لا يراه ولى نعمته الذى يعاشر زوجته بعلم منه، بل بمباركة منه.

محجوب عبدالدايم نموذج بشرى يصلح للتحليل النفسى، لأنه حزمة من المكونات المتضاربة التى تصهرها فى النهاية كيمياء الوظيفة وقوة الحاجة، وإذا كان من السهل العثور على الضحية فى الفتاة التى تزوجها محجوب رغمًا عنه، لأنها عُرضت للبيع، فإن مساحة الضحية فى شخصية محجوب تبقى ضئيلة، بل تنحسر حتى توشك على التلاشى بعد لقائه الدراماتيكى بأبيه الذى يضبطه متلبسًا بالعار والكذب معًا!

وبشىء من التحوير والتوسع يمكن لشخصية الديوث أن تستوعب شخوصًا كانت بضاعتهم السياسة ودم الناس وليس المرأة فقط.. سرحان البحيرى فى ميرامار ديوث سياسى، خدع الدولة والمرأة سواء كانت ريفية ساذجة أو راقصة محترفة، ثم خدع نفسه أيضًا وسرق، وخدع العمال الذين كانوا يرون فيه أمثولة فى النضال والصدق من خلال انتسابه للاتحاد الاشتراكى وهو حين يقتل مرتين، مرة بالانتحار وأخرى بالركل على الرأس من الفتى الماركسى، لا يشبه «كانكان» العوام الذى مات مرتين فى إحدى روايات آمادو.. لأن الموت المزدوج بالنسبة لسرحان كان بمثابة عقاب مزدوج من الذات والآخر.. إن مجمل السياقات التى يرد فيها دور الديوث عند محفوظ تخضع لموقف أخلاقى، وبالتحديد لمثقف هو ربيب الطبقة الوسطى المصرية لا يفلت على الإطلاق من المحددات والمرجعيات والأعراف إلا ليعود بعد قليل، وهذا ما يسميه البعض الاعتدال أو الوسطية عند نجيب محفوظ، فالليبرالية كموقف عام وسياسى أحيانًا لها معادل اجتماعى وأخلاقى! وإفادة علم النفس من منجز محفوظ الروائى ليست مجالاً للسجال، فمن المعروف أن أبطال ديستويفسكى استبقوا علم النفس الإكلينيكى بأوضاعهم الإشكالية وكينوناتهم القلقة ولدى نجيب محفوظ كائنات كتبت رسائلها أيضًا من أعماق الأرض أو من العالم السفلى، لكنها لم تصل إلى المرسل إليه.. وهو حين يتعاطف على نحو مضمر وبالغ الخفاء مع النماذج الشاذة، فذلك لقناعته بأنهم أيضًا ضحايا، سعيد مهران ضحية رغم كونه مجرمًا، وكذلك نور وريرى ومحجوب



نساء رواياته نماذج متباينة حد التضاد باستثناء الأم، وذلك لهدف محدد هو توضيح خطوط الطول والعرض الأنثوية فى واقع ملغوم بالتناقضات وتحكمه أيديولوجية ذكورية



الاسكندرية فى روايات محفوظ التى اتخذت من المكان بطلاً، تلعب الدور ونقيضه فى آن، عيسى الدباغ بطل «السمان والخريف» يهرب إليها من ماضيه، وقد يكون نداء المستقبل هو ما اجتذبه إليها ليجرب حظه



عبدالدايم، لأن المجتمعات تستحق ما تفرزه من المجرمين والقضاة، كما يقول أحد الفلاسفة..

كتابة المكتوب وآفة الاختزال

إذا كان النقد موازيًا للإبداع، يسلفه بدلاً من أن يقترض منه حتى الإقفار، فهو بالفعل كما وصفه جراهام هيو الحصى القابع فى قعر النهر وليس النهر، وقد لا يكون مبدعونا الكبار محظوظين بالنقد الذى يجدر بإنجازهم، وهناك ظاهرتان يمكن رصدهما حول ما أسميه كتابة المكتوب وآفة الاختزال.. الأولى، هى النأى قدر الإمكان عن المغامرة لأنها تجازف بالتورط بطرقات غير معبدة، والثانية هى ما أشار إليه د. مصطفى حجازى فى كتابه القيم «سيكولوجيا الإنسان المقهور» ومن أهم سمات هذا الإنسان النزوع إلى الاختزال.

ويضرب مثالاً بالمرأة التى تختزل من كائن إلى جنس، وبالتالى إلى عضو ومن ثم إلى وظيفة، وهناك فيض من الكتابات عن نجيب محفوظ يتناول المرأة والعامل والسياسة والتاريخ والجريمة فى أعماله على نحو تجزيئى أى بلا سياقات رؤيوية، وهذا النمط البدائى من النقد يخلو من الاستبصار بمعنى ربط الأجزاء والتوصل إلى الفائض الناتج عن حاصل جمعها.

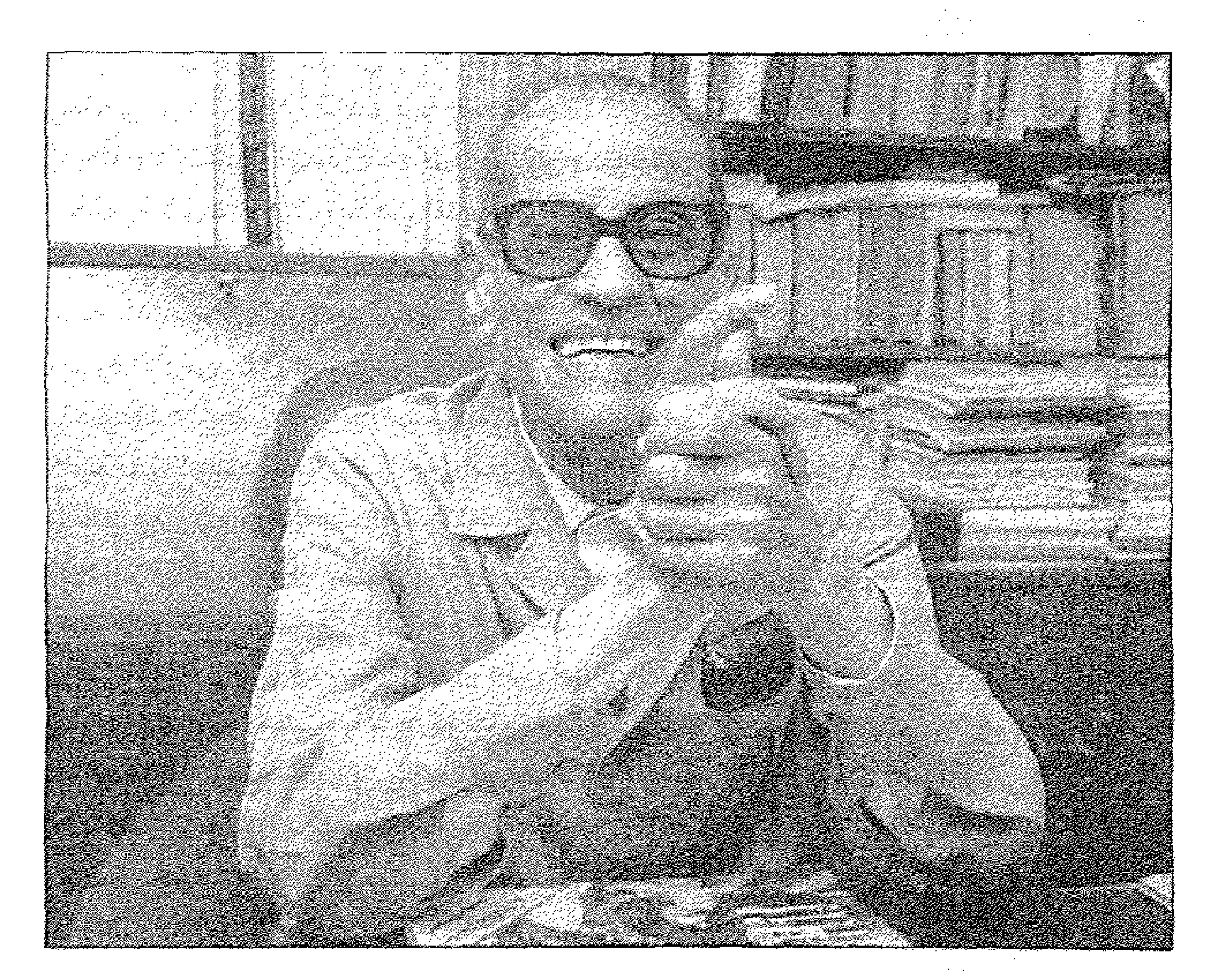
وهنا يمكننا بقدر من التعميم المبرر ولو على صعيد إجرائى أن نضع التجزئة مقابل التفكيك، أو الحفريات التى تستفيد من منجزات العلوم كلها بدءاً من الأناسة حتى علم النفس الاجتماعى.

وهناك كتابات أخرى عن محفوظ تستلهم آراءه سواء فى مقابلات أو مقولات متداولة فى المقهى. وحقيقة الأمر أن ما قاله أحد النقاد وهو: لا تثق بالقاص وثق بالقصة يصدق على نجيب محفوظ، كما يصدق على أمثاله، فأحيانًا يكون التضليل البرىء تحريضًا على المزيد من الكشف وأحيانًا تملى ظروف سياسية أو اجتماعية على كاتب يعيش تحت إضاءة ساطعة أن يصرف الانتباه عن موقف ما.. فما أراد محفوظ أن يقوله قاله سردًا روائيًا وقصصيًا، وعلى ناقده أن يبدأ من صفره الخاص، بعيدًا عن عكازات مستعارة من أحاديث ومقابلات ودردشات!

فلو أخذنا للمثال فقط رواية «حضرة المحترم» فإنها تنطوى على بعد من السيرة الذاتية لموظف محترم، وما يسمى نقد البيروقراطية المترسبة من عهود العثمنة فى هذه الرواية يغفل بعداً نفسياً بالغ الأهمية، وأزعم أن هذه الرواية خطرت ببالى على الفور بعد قراءة كتاب موريس عن القرد العارى.. لأن الموظف بمعناه التقليدى يصلح مدخلاً للعثور على ما يسمى الحلقة المفقودة فى الداروينية المؤولة سيكولوجياً. واستغرب كيف لم تجد استراتيجية التسمية، وهذا المصطلح يعود للكاتب مطاع صفدى حيث أصدر كتاباً بهذا العنوان، مجالاً رحباً فى أعمال محفوظ خصوصاً عندما ترد بعض الأسماء للتضليل وعلى نحو مضاد لمعانيها المتداولة والمعجمية.. قاسم أمينة عندما يرد فى الثلاثية يكون مطابقاً للنموذج، لكن أسماء سعيد سعيد ونور وكامل تعنى عكسها تماماً فى «اللص والكلاب» و«السراب»، حتى اسم الفندق الذى يخونه أحد العاملين فيه ويهرب زبائنه إلى بانسيون ميرامار هو «الأمين»، كى تكون المفارقة ساطعة الدلالة. وقد يبدو الإفراط فى التأويل تقويلاً قسريًا للنصوص، أو على طريقة بروكوست الإغريقى الذى كان يعذب ضحاياه، فيبتر سيقانهم إذا فاضت عن السرير ويمطها إن قصرت.. لكن العمل الإبداعى كما وصفه برادلى متعدد، وقابل للتكاثر وقد يصبح مع مرور الزمن بعدد القراء أنفسهم لأنه ليس مجرد بصلة تقشر بحثًا عن لب قد لا يكون موجودًا، ولعل أسوأ ما تورط به النقد الاتباعى فى ثقافتنا هو التأنق النظرى، الذى يعقبه تعثر عندما يترجل الناقد عن المنصة النظرية إلى النقد التطبيقى، وهذا ما شعرت به ذات يوم فى ندوة عقدت فى الرباط المغربية حول نجيب محفوظ وبعيد فوزه بنوبل، فقد لاحظت أن المشاركين يتراشقون بمصطلحات فرانكفونية وأنجلو ساكسونية تبعاً لاختلاف المرجعيات ومحفوظ خارج المدار.

النجيب والأنجب!

راجت قبل ثلاثة عقود مقولة ليست من النقد فى شىء، وقد تكون مستعارة من أدبيات السباق، هى أن قامة روائية باسقة كقامة نجيب محفوظ تحولت إلى عقبة كأداء أمام الروائيين العرب، بل حاصرتهم من الأفق، ومن المستقبل أيضاً، لأن قدرهم هو الارتطام بأفقه الروائى.. ولا أظن أن نجيب محفوظ كان سعيداً بهذه المقولة لأنه كمبدع كبير يعى بأن جزءاً أصيلاً من دوره هو أن ينتج من معطفه من سيصبحون ذات يوم أطول قامة، لكن حسب المعنى الذى قصد إليه بول فاليرى وهو يؤبن أندريه جيد، فقد قال إن من هم أطول قامة منه.. إنما يجلسون على كتفيه فهو يحملهم كما يفعل الآباء مع أبنائهم.. ولن يتقلب نجيب محفوظ ذات يوم فى قبره إذا علم بأن بلاده ولدت الأنجب، لأنه من صلبه الروائى أولاً، ويشكل قيامته الإبداعية ثانيًا!



أما أن يتكرر نجيب محفوظ على النحو الذى يحلم به أسرى إبداعاته وسيرته ورؤاه، فذلك أمر ليس مضاداً فقط للتاريخ، بل للإبداع أيضًا، وليس المطلوب فى ثقافة تودع واحداً من أعز رموزها أن ترتجى تكراره، لأنها عندئذ تعتدى عليه مرتين.. مرة لأنها تريده أن يكون شاحبًا ومضجراً أو فاقداً لمغناطيسيته، ومرة لأنها تحكم بالإعدام على القادمين، وما نقوله هنا لا ينتقص مقدار أنملة من مكانة الرائد العظيم، الذى عرب فن الرواية بامتياز، وحرره من التعريف الذى يحتكره بين قوسين.. فالرواية بعد محفوظ لم تعد ملحمة البرجوازية الأوروبية فقط، كما قال جورج لوكاتش، إنها ملحمة الطبقة الوسطى المصرية، والعربية إلى حد ما، رغم أن هذه الطبقة شهدت غسقها قبل أن يشهد شاهدها غسقه، وقد تكون سبقته فى تابوت بسعة قارة!

أخيراً، بل أولاً وهذا ترتيب يليق بالرائد الذى اجترح أفقًا عربيًا للرواية فإن من كتبوا عنه يودعونه خصوصاً من سدنة الثقافة الرسمية، جعلونا نشعر بأنهم يعتذرون عن عدم قراءته، فأهمية محفوظ يعرفها من قرأوه حياً وتابعوا إقلاعه حتى اختفى بين الغيوم.

لهذا نتمنى أن يكون هذا الرحيل العاصف درساً لكى لا ترثى «نجيب» وننكل بالنجباء الأحياء على امتداد العالم ومنه هذا القوس! الملتهب الذى يسمى الوطن العربى وهو فى حقيقته المنفى العربى، حيث يغترب الناس فى عقر دورهم، وحيث ينقسمون إلى من ينتظرون البرابرة تحت الأسوار ومن يقاتلون البرابرة حتى الموت!

إن من شاركوا فى جنازة محفوظ عن بعد يتيح لهم رؤية المشهد على نحو بانورامى لابد أنهم لمحوا أبطاله وهم يتسللون إلى الجنازة ويختطفون التابوت، كى يحولوا دون دفنه، فكرامة الروائى إذا كان من طرازه هى فى نشره وقيامته المعرفية وليست فى دفنه!!

فاروق عبد القادر

عن «الأصداء» و«الأحلام»

إن ضاق الخارج بقي الداخل رحبا ثريا





■■ عندي، فإن الأعمال الإبداعية لنجيب محفوظ يمكن أن تندرج في «منظومات» أربع كبرى: تبدأ الأولى بروايته الأولى «عبث الأقدار، ١٩٣٩»، وتنتهي إلى ثلاثية «بين القصرين» (فرغ من كتابتها في أبريل ١٩٥٢، لكنها لم تنشر كاملة إلا في ١٩٥٧)، الثانية تبدأ «بأولاد حارتنا» (نشرت مسلسلة في ١٩٥٩، وصدرت طبعتها الأولى في بيروت في ١٩٦٦)، وتنتهي إلى «ميرامار، ١٩٦٧»، الثالثة تبدأ برواية «حب تحت المطر، ١٩٧٣»، وتنتهي إلى «قشتمر، ١٩٨٩»، وأعتقد أن أعمال عقد التسعينيات وما بعده تمثل المنظومة الأخيرة ويتميز فيها عملان. هما موضوع هذا الحديث.: «أصداء السيرة الذاتية» (نشرت مسلسلة في ١٩٩٢، وصدرت كاملة في ١٩٩٦)، و«أحلام فترة النقاهة» (وهذه لها حكاية صغيرة: منذ أصبحت مجلة «نصف الدنيا» القاهرية هي المسئولة عن نشر أعماله، أصدرت ثلاث مجموعات: أسمت الأولى منها «كتاب القرن» ووصفته بأنه «يضم ٥٩ قصة، آخر ما كتب صاحب نوبل (٢١/٢/١٩٩٩)»، والثانية والثالثة تضمان «أحلام فترة النقاهة»، واحدة في نهاية ٢٠٠٠، والثانية بعدها بعام، ومازالت المجلة المذكورة توالي نشر مجموعات «الأحلام» (المجموعة الأخيرة منها صدرت في ٣/٩/٢٠٠٦)، غير أن هذه الإصدارات - على وجه العموم - تفتقد الدقة، كما أن الأخطاء الطباعية الكثيرة التي تحفل بها، تزيد من عدم اكتمالها وصعوبة اعتبارها نصوصاً «معتمدة Standerdised» لهذه الأعمال، والطبعة المعتمدة في هذه القراءة هي الصادرة عن «دار الشروق» في ٢٠٠٦، وتضم مائتي حلم، أضيفت لها ست أخرى، نشرت - للمرة الأولى - في ديسمبر ٢٠٠٥.

وعندي أيضاً، فإنني أفضل استخدام كلمة «منظومات» بدل «مراحل» التي دأب النقاد على استخدامها، فهذه الأخيرة قد توحي بوجود «انقطاع» أو «انفصال» بين المرحلة والتي تليها، كأن المؤلف قد أغلق درجاً وفتح درجاً آخر، وكل مغلق على ما فيه، ولا صلة له بالدرج الآخر، وليس هذا التصور صحيحاً، وليست هناك «انقلابات» في إبداع نجيب محفوظ. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجري متدفقاً، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها، قد تعترض هذا المجرى عقبات موضوعية، فيتوقف زمناً، أو يتخذ مسارب أخرى كي يواصل التقدم (لمزيد من التفاصيل عن هذه المنظومات وسماتها وعلاقاتها بالواقع، راجع - من فضلك - : «نفحات من عطر نجيب محفوظ» في «في الرواية العربية المعاصرة»، كتاب الهلال، سبتمبر ٢٠٠٣).

> كلمة «أصداء» تشير إلى صميمه: إنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يقدم انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه



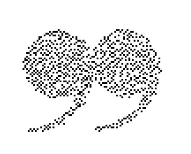
ولحسن قراءة أعماله الأخيرة، علينا أن نضع في اعتبارنا ما أصبح عليه خلال العقد الأخير من حياته، وربما أكثر قليلاً: وَهَن منه السمع والبصر وهناً شديداً، ثم جاءت تلك الحادثة الرهيبة التي تعرض لها في أكتوبر ١٩٩٤ لتزيده وهناً على وهن: فأصبحت يمناه عاجزة عن الإمساك بالقلم، إضافة إلى ما تركته طعنة الخنجر في روحه من آثار دامية (وهو ما يبدو واضحاً في أحلامه، كما سيجيء)، وفي نظام حياته الذي اعتاده لأكثر من خمسين سنة، فقد شُددت عليه الحراسة حتى أصبح عاجزاً عن الخروج في مشواره الصباحي المعتاد (حدث بعض خلصائه أنه يظل يمشي داخل شقته الصغيرة جيئة وذهاباً حتى ينال منه التعب!).

بعبارة ثانية: إنه أصبح عاجزاً عن كتابة أعماله، فهو يمليها على غيره، ثم إنه لا يراجع تجارب الطباعة كما اعتاد؛ لهذا نجد أخطاء طباعية عديدة في أعماله الأخيرة، بل إن إحدى مقطوعات «أصداء السيرة..» تتكرر بنصها دون أن يلتفت إليها أحد من مراجعيها («القبر الذهبي» ترد في صفحة ٤١، ثم تتكرر بنصها في صفحة ١٣٤). إن نجيب محفوظ أبدع أعماله هذه في ظل أقسى الشروط الإنسانية لمبدع كبير.

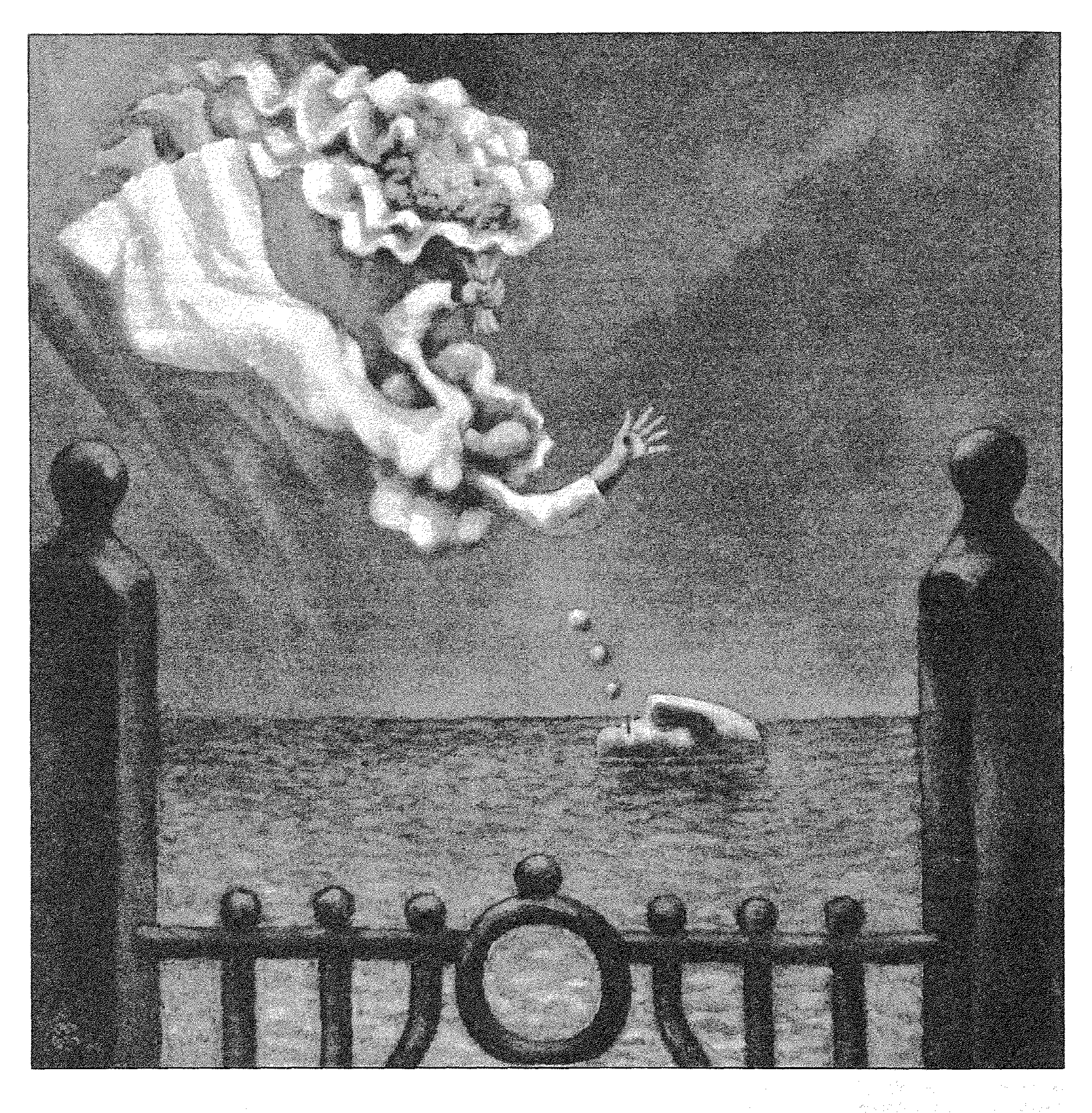
إذن: وَهَن منه السمع والبصر، وضاقت معرفته بالعالم الخارجي وبالواقع من حوله، إلا ما يترامى إليه منهما عن طريق جلسائه، وهو قليل، وغير محايد بالضرورة، فماذا بقي له؟ الجواب في عمل من أعمال نهاية الثمانينيات: في «صباح الورد، ١٩٨٨» يكتب: «إنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة، لكنها أيضاً النعمة الباقية..»، وأكاد أضيف: والوحيدة أيضاً، فمن معين تلك الذاكرة يمتح نجيب أعماله الأخيرة: إن ضاقت معرفته بالخارج، بقي له الداخل رحباً ثرياً..

من هنا تأتي «أصداء السيرة الذاتية» في مكانها تماماً. وقد كانت قضية السيرة الذاتية دائماً قضية مثارة وسؤالاً مطروحاً بين نجيب ومحاوريه، وكانت إجاباته عن السؤال تأتي حسب تقديره لصاحبه وحسب حالته المزاجية حين يُطرح السؤال. في مرة قال لي: «أنا من عائلة معمرة، ولست أحب أن أسيء لأحد..»، ولم يقنعني الجواب بطبيعة الحال، إذ لماذا يتحتم أن يسيء كاتب السيرة لذويه؟ وهل من الضروري أن يفعل الجميع ما فعل لويس عوض حين كتب «أوراق العمر»، وخُيل لكثير من قارئيه أنه لم يكتبه إلا تصفية لحسابات قديمة ظلت معلقة فوق رأسه بينه وبين بعض أفراد عائلته؟ ومرة أخرى قال لسائله: (لا تنس أنه ابن بلد قاهري، ومن سماته أن يزوغ من المأزق بالنكتة): «وماذا يجديكم لو قلت لكم إن حياتي كانت، زمناً ما، «هلساً وصرمحة»؟، ثم أطلق ضحكته الممتدة.

وأقول لك - من البداية - إنك لن تجد فيها «سيرة ذاتية» لصاحبها، فلا تتوقع أن يقول لك - كما يقول كتاب السير في العادة -: «ولدت لخمس خلون من شهر كذا عام كذا..»، فسيرة نجيب - بهذا المعنى المباشر - منتشرة - مثل أشعة الشمس -



> ليست هناك «انقلابات» في إبداع نجيب محفوظ. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجري متدفقاً، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها



تتخلل الكثير من أعماله (أشير - بوجه خاص - إلى الجزء الثانى من الثلاثية: «قصر الشوق، ١٩٥٧» و«المرايا، ١٩٧٢»، ثم هذا العمل من نهاية الثمانينيات «قشتمر، ١٩٨٩»، وفى هذا الأخير يحدثنا الروائى عن التكون الوطنى والسياسى والفكرى والعاطفى له ولجيله، فكل أبطاله مولودون فى عام واحد: ١٩١٠، وهم يحتفلون - زمن الكتابة - بانقضاء سبعين عاماً على بدء صداقتهم، أما حياته الوظيفية، أو حياته فى الوظيفة، فإنك واجدها فى عدد كبير من الأعمال كذلك، وإن كانت «حضرة المحترم، ١٩٧٥» تحظى بأهمية خاصة فى هذا السياق).

وكلمة «أصداء» فى عنوان العمل تشير إلى صميمه: إنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يقدم انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه. إنه يصفيها ويستقطر دلالاتها ويستخلص دروسها ومعانيها، ثم يصوغها تلك الصياغة الخاصة. أكثر من مائتى مقطوعة (٢٢١ على وجه التحديد، قد لا يتجاوز أطولها الصفحة الواحدة، وقد تقف عند السطر أو السطرين) يلخص فيها الكاتب ويركز ويكثف ويوجز رؤيته للحياة والناس. وفى عقد ينتظم أكثر من عشرين ومائتى حبة، أليس طبيعياً أن تجد بينها كثيراً من الجوهر الحر الكريم، وألا تخلو - كذلك - من حبات زائفة وأصداف فارغة؟

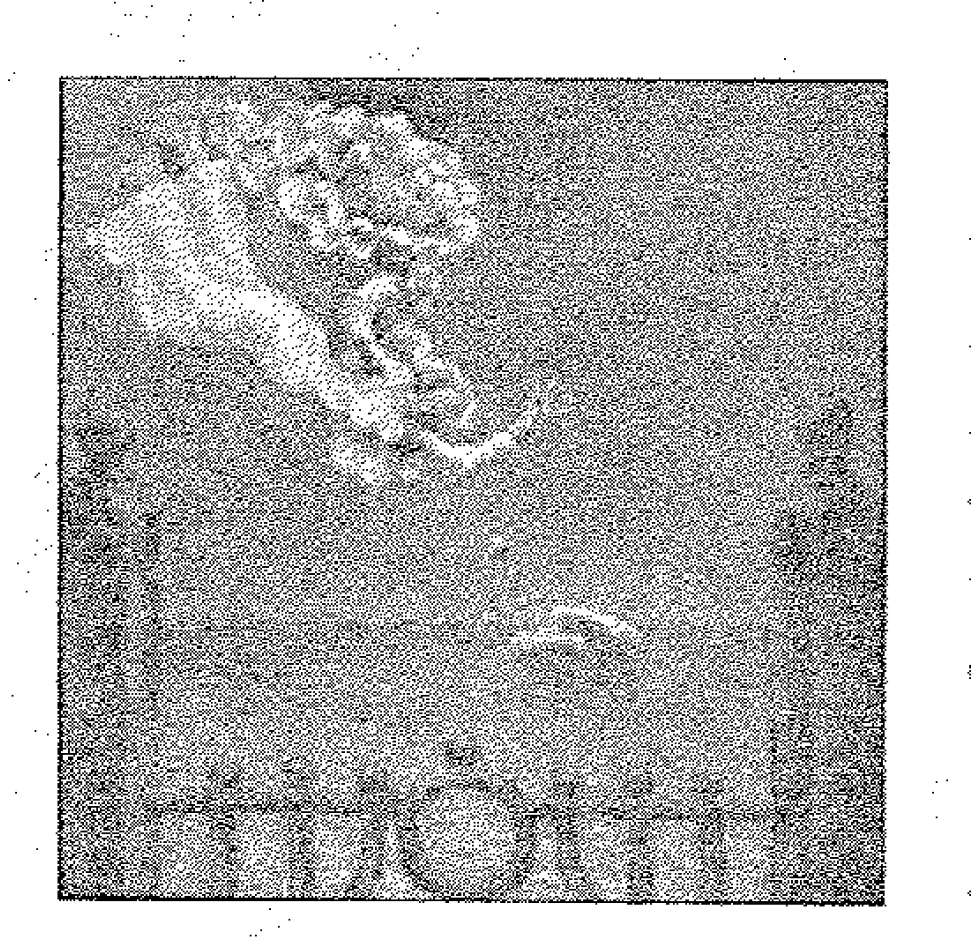
النصف الأول منها ينطلق فيه الراوى حراً يحدثنا بما رأى وسمع وعرف وتذكر وحلم وتخيل، حتى يظهر «الشيخ عبد ربه التايه» فى النصف الثانى على وجه التقريب (أول ظهوره فى المقطوعة الخامسة عشرة بعد المائة)، ويقدمه لنا الراوى: «كنا نلقاه فى المقهى أو الطريق أو الكهف، وفى كهف الصحراء يجتمع الأصحاب، حيث ترمى بهم فرحة المفاجأة فى غيبوبة النشوات، فحق عليهم أن يوصفوا بالسكارى، وأن يسمى كهفهم الخمارة، ومنذ عرفته داومت على لقائه ما وسعنى الوقت وأذن لى الفراغ. إن فى صحبته مسرة، وفى كلامه متعة، وإن استعصى على العقل أحيانًا..»، وقدم الراوى إليه صديق خطاط (اقرأ: فنان) بعد أن اخترقا صحراء المماليك إلى الكهف (يأبى نجيب الابتعاد عن أرضه الأثيرة، وإن فى خرج من قلبها فإلى أطرافها، وقد لا ننسى أن فى هذه الصحراء ذاتها دارت معظم معارك «ملحمة الحرافيش، ١٩٧٧»). من هذه المقطوعة سوف يشغل عبد ربه مكان الراوى، وتأخذ المقاطع كلها ذلك الشكل الأدبى الذى عرفه الإغريق باسم «الابيجرام Epigram»، والكلمة - فى معناها الأصلى - تعنى الكتابة بالنقش البارز، لكنها أصبحت تطلق على قول يتسم بالبلاغة والإيجاز، وعادة ما يكون ساخراً لاذع السخرية، سواء جاء شعراً أو نثراً، وأقرب وصف له ما جاء فى «ابيجرام» شهير يشبه هذا الشكل بالنحلة: ذات جسم رشيق دقيق جميل، لكن فى ذيلها

لسعة حادة، وقد مارس هذا الشكل كتاب غربيون قدامى ومحدثون كثيرون فى الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية وسواها، وكانوا - عادة - يقسمون «الابيجرام» - حسبما قال المسرحى والشاعر والناقد الألمانى ليسنج (١٧٢٩ - ١٧٨١) إلى جزءين: الأول يلفت انتباه القارئ، والثانى يفاجئه بقول غير متوقع (ساخر فى الغالب).

وفى أدبنا العربى سبق أن حاول هذا الشكل طه حسين فى كتابه «جنة الشوك، ١٩٤٥»، وكتب فى تقديمه: «الذين يقرأون ما أذعتُ فى الناس من الكتب.. يستطيعون أن يتبينوا - فى وضوح وجلاء - أننى أستجيب حين أكتب - وحين أكتب فى الأدب خاصة - لشيئين اثنين: أحدهما ما أرى أو أجد من عاطفة وشعور، والآخر امتحان قدرة اللغة العربية على أن تقبل فنونًا من الأدب لم يطرقها القدماء..»، وكان هذا الأخير دافعه لكتابة «ابيجراماته» التى كان يبدأ كلاً منها بجملته التى أصبحت شهيرة: «قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ..».

هكذا إذن: سيصبح الراوى هو التلميذ الفتى، وعبد ربه أستاذه الشيخ، فماذا فى نصفى النص: ما يرويه الراوى عن نفسه، وما يرويه عن شيخه؟ لن يجدينا، وليس بوسعنا - بطبيعة النص ذاته - أن نقف عند كل مقطع من مقاطعه، لكننا نتلمس أهم الألحان المترددة فى النص كله، أو «البنى» المتكررة فيه. ومن البداية سأله الشيخ: «ماذا يدفعك إلينا؟ فقلت بعد تردد: أكاد أضيق بالدنيا، وأرجو الهرب منها..»، فقال بوضوح: الدنيا محور طريقتنا، وعدونا الهروب..». تلك البداية سوف تتكرر فى صياغات مختلفة. ولكن: ماذا فى الدنيا جدير بأن يصبح موضوعًا للحب؟ مرة ثانية: «سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه للنساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء، فأجاب جادًا: هذا من فضل الملك الوهاب...».

وما أكثر ما قاله الراوى وشيخه فى المرأة والحب! أسوق لك أمثلة قليلة، وأحيلك إلى الباقى: «سألنى صديقى الحكيم عن حلم لا أنساه فقلت: «وجدتنى فى خمارة وسط جماعة من أهل الخير والبركة، نشرب ونغنى. وسأل سائل: ترى من يكون صاحب الحظ السعيد؟ وانزاحت الستار المسدلة على باب الخمارة، ودخلت امرأة عارية تموج برحيق الحياة وفتنتها، ووقفنا ذاهلين ننظر ونتنظر، واتجهت المرأة نحوى حتى التصقت بى وحلت عقدة شعرها المعقوص، فانصب حولنا كموجة عاتية



فغطانا، وثمل الجميع بسعادة شاملة، أنشدنا معًا: بشرى لنا، نلنا المنى..»، وأكثر من مرة يوجز الشيخ رأيه فى الحب فى كلمات قليلة، فمرة يقول: «الحب مفتاح أسرار الوجود..»، وأخرى يقول: «خفقة واحدة من قلب عاشق جديرة بطرد مائة من رواسب الأحزان..»، وثالثة: «كنا فى الكهف نتناجى حين ارتفع صوت يقول: أنا الحب، لولاى لجف الماء وفسد الهواء وتمطى الموت فى كل ركن..». (راجع كذلك: «هيهات، ص ٤٨»، «الثابت والمتغير، ص ٧١»، «شكوى القلب، ص ٨٦»، «مأوى النعمة، ص ١٠٠»، «الرقص فى الهواء، ص ١١٠»، «الواعظة، ص ١٢٠»، «لقاء فى الظلام، ص ١٣٧، وسواها).

مع الحب يأتى الفن. ومادمنا فى رحاب المتصوفة، نسهر سهراتهم وننشد أناشيدهم ونتناجى بنجواهم ونستخدم قاموسهم، فالفن يأخذ شكل السماع والطرب. انظر لهذه المقطوعة «يا له من زمن، زمن الطرب! ترسل الحناجر الذهبية أنغامها فتنتشر النشوة كالشذا الطيب النفاذ، وتتخلق فى حالة الطرب امرأة جميلة تعشقها القلوب البيضاء، لكنك لا تعثر لها على أثر فى غير دنيا الطرب، لقد اختارت قلب الطرب مكانًا لها لا تبرحه..». كذلك: «حدثنا الشيخ عبد ربه فقال: أغرتنى نشوة الطرب ذات مرة بالتمادى فى الطرب حتى طمعت أن أثب من الطرب الأصغر إلى الطرب الأكبر فسألت الله أن يكرمنى بحسن الختام، عند ذلك همس فى أذنى صوت: لا بارك الله فى الهاربين..». (راجع كذلك: «عبير من بعيد، ص ١١١»، «خطبة الفجر، ص ١٤٩»، «الطائر الأخضر، ص ١٥١»، «الغناء، ص ١٥٤»، وسواها).

ولكن.. لا تحسبن الشيخ وصاحبه يدعوان إلى التفرغ للحب والفن، أو العشق والطرب، بل إن العمل قيمة كبرى فى عالم الأصداء: «قال لصاحبه العاكف على العبادة كأنه يعتذر: «فى زحمة هموم أسرتى ومطالب الشئون العامة ضاع عمرى فلم أجد وقتًا للعبادة..»، فى تلك الليلة زاره فى المنام من أهدى إليه وردة بيضاء وهمس فى أذنه: «هدية لا يستحقها إلا العابدون الصادقون..»، والمرأة الجميلة «ست الحسن» لا ترحب بمن يجيئون إليها هاجرين عملهم فى السوق، وهذا الراوى يقول لشيخه إنه يرحب بتعب عام متصل، لكنه يضيق بعطلة شهر واحد، فيجيب شيخه: «طبعنا على حب الحياة وكره الموت..»، وفى نهاية الأصداء يهنئ الشيخ مريديه: هنيئًا لمن قام بواجبه فى السوق وتحدى الكدر. بعبارة من عندنا: من عمل على الاهتمام بشئونه الخاصة من جانب، ولم يهمل الشئون العامة، من الجانب الآخر.

ويشغل الموت: تأمله والتفكير فيه، وتذكر الراحلين، والتأهب للقائه، حيزًا كبيرًا فى الأصداء. فى المقطوعة الثانية يقول الراوى: «كانت أول زيارة للموت عندنا لدى وفاة جدتى، كان الموت مازال جديدًا، لا عهد له بى، عابرًا فى الطريق(..) انتزعنى النحيب من طمأنينتى، فأدركت أنه تسلل فى غفلة منا إلى تلك الحجرة التى حكت لى أجمل الحكايات، ورأيتنى صغيرًا كما رأيته عملاقًا..»، لكن تلك رؤية الطفولة، والمواجهة الأولى للموت، لكن رؤية الأعوام المتقدمة سوف تختلف كثيرًا: هذا هو الشيخ عبد ربه يقول: «رأيت الموت فى هيئة شيخ فانٍ وهو يقول: لو كففت عن عملى عامًا واحدًا لانتزعت منكم الإقرار بفضلى..»، ويقول أيضًا: «استلقيت فوق الأرض الخضراء تحت ضوء القمر أهيم فى الرؤية، فهمست الأرض فى أذنى شاكية: ينفسون على لقمتى اليومية، وما فعلت سوى أن استرددت ما سبق أن وهبت..». الموت حتم ومقدور، الخطوة الأخيرة التى يجب أن يخطوها من عاش وعمل واستمتع بالحياة دون خوف أو وجل، ولعل من أجمل ما يصوغه لنا الراوى هنا تلك المقطوعة بعنوان «همسة عند الفجر»: «فى مرحلة حاسمة من العمر، عندما تسنم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى أذنى صوت عند الفجر: هنيئًا لك، فقد حم الوداع، وأغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى تسير، وأنا فى مقدمها أسير حاملاً كأسًا كبيرة مترعة برحيق الحياة..» (راجع كذلك: «التلقين، ص ١٥»، و«الصور المتحركة، ص ١٧»، «النداء، ص ٤٢»، «الهجر، ص ٤٧»، «المعركة، ص ٥٥»، «المتنبى، ص ٨٥»، «شهد الضحك علينا، ص ٩٨»، «صوت القبر، ص ١٢٨»، «بلا ترحيب، ص ١٤٨»، وسواها).

ولأن الذاكرة هى المصدر الوحيد لما يرويه الراوى عن نفسه وعن شيخه فطبيعى أن تشغل قضية الذاكرة والنسيان مكانها فى الأصداء. يقول الراوى: «رأيت شخصًا هائلاً ذا بطن تسع المحيط وفم يبلغ الفيل، فسألته فى ذهول: من أنت يا سيدى؟ فأجاب باستغراب: أنا النسيان، فكيف نسيتنى؟»، ويقول له صديقه الحكيم: إن قوة الذاكرة تتجلى فى التذكر كما تتجلى فى النسيان، وما أكثر ما يتعرض الراوى لمراوغات الذاكرة ومعابثاتها، فيلتقى برجال ونساء يعرفونه ويعرفنه، ويحاول كل أن يذكّره بما كان بينهما، لكنه لا يذكر شيئًا، ليس الراوى وحده، هذا معلمه القديم، وقد أُنسى كل شىء، الحى يعرفه والناس يحبونه، ولكن نادرًا ما يحييه أحد لضعف ذاكرته وحواسه، أما هو فقد نسى الأهل والجيران والتلاميذ وقواعد النحو، وما دمنا في عالم المتصوفة نرى رؤاهم ونستخدم كلماتهم فى السكر والغناء والنشوة ومقام الحيرة ومقام التعرف ومقام الرضا.. إلخ، ألا يحق لنا أن نقول قولة واحد منهم: وما سمى الإنسان إنسانًا إلا لأنه نسَّاء؟ (راجع كذلك: «الطرب، ص ١٣»، «التسول، ص ٣٣»، «الندم، ص ٦٧»، «النهر، ص ٨٠»، «رجل الأقدام، ص ٨٨»، وسواها).

وما كان لصاحب الأصداء أن يغمض عينيه عن الواقع المعيش مهما غاص فى أعماق الذاكرة، ثمة مقطوعات عديدة تشى بأن الكاتب الكبير بقى مهمومًا بهذا الواقع الثقيل وهمومه الرازحة، خذ هذه المقطوعة وتأمل كلماتها القليلة ما شئت: «سألت الشيخ عبد ربه التايه: متى ينصلح حال البلد؟ فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة». وهذا الراوى فى قافلة تقطع الصحراء، عنَّ له أن يتساءل عن المكان الذى يحب صاحب القافلة أن يكون فيه، اختلف الرأى عند سامعيه لكنهم أجمعوا على استنكار سؤاله، ثم وجدت الرؤوس تتقارب، والأعين تسترق النظر إلىّ، والريبة تتفشى فى الجميع. رباه.. كيف أقنعهم بأننى لم أقصد سوءًا، وأننى لا أقل عن أى منهم ولاء للرجل؟، ودنا منى رجل صارم الوجه وقال لى: اترك القافلة، ودعنا فى سلام.. ولم أر بدًا من الخروج لأجد نفسى فى خلاء مطبق وكرب عظيم..» كل هذا لأنه جرؤ على التساؤل - مجرد التساؤل - عن صاحب القافلة!

ثم.. من أولئك الأشباح الذين يراهم

ربما كان أهم ما يلفت النظر فى شخصية الحالم فى هذه الأحلام كلها أنه محاصر، محاط بـه، موضوع ملاحقة وتربص، يعانى الخديعة المرة بعد المرة، وتُسلب نقـوده المرة بعد المرة أيضـا، بل يتعرض للإيذاء الجسدى أو التهديد به، ويحكم عليه بالإعدام أكثر من مرة



الـراوى: «وسَرح بـصـرى فـى مـتـاهـة الصحراء المسربلة بالظلمة الرقيقة وسرعان ما خيل إلىّ أن أشباحًا تتحرك نحو المدينة، قلت: لعلهم من رجال الأمن، ولكن مرّ من أمامى أولهم فتبينت فيه هيكلاً عظميًا يتطاير شرر من محجريه، واجتاحنى الرعب فوق الصخرة، وتسللت الأشباح واحدًا فى إثر الآخر، وتساءلت وأنا أرتجف عما يخبئه النهار لمدينتى النائمة..»، ومَن يعرف الواقع المصرى حق المعرفة لن يصعب عليه أن يعرف مَن كان يعنى بتلك الأشباح التى تنفث الشرر، ألم تمتد يد أحدهم بالخنجر إلى رقبته؟

ولا يتخلى الكاتب العظيم أبدًا عن الأمل. وهذه رؤية شيخه للمستقبل: «سيجئ الطوفان غدًا أو بعد غد، سيكتسح الفساد والفاسدين والعاجزين، ولن تبقى إلا قلة من الأكفاء، وتنشأ مدينة جديدة تنبعث من أحضانها حياة جديدة، ليت العمر يمتد بك يا عبد ربه لتعيش ولو يومًا واحدًا فى المدينة الآتية..». (راجع كذلك: «التحدى، ص ٣١»، «المخبر، ص ٧٥»، «الرحلة، ص ٧٠»، وسواها).

تـلـك أهـم الألـحـان المـتـرددة فـى الأصداء: الحب والفن والعمل والموت والنسيان وهموم الواقع المعيش، اختار الكاتب أن يصوغها فى شكل الحكايات الصغيرة الدالة، وأن يستخدم أدوات تعبيرية مختلفة: الرؤى والرموز والأحلام، وأن يستعين بلغة المتصوفة، حيث لا تعنى الكلمة دلالتها الشائعة، بل تحيل إلى عالم آخر تتماسك مفرداته ويفضى بعضها إلى بعض، ولا تقف بعض الحكايات عند حدود هذا العالم، بل تتجاوزها إلى ما وراءه.

حقًا: كلما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة!

وتضم «الأصداء» عددًا من الأحلام، يحلمها الراوى، التلميذ الفتى، أو أستاذ الشيخ (راجع المقطوعات: «٦١»، «٦٢»، «٦٨»، «٧٩»، «١٢٠»، «١٧٠»، والأخيرة حلم الشيخ عبد ربه نفسه)، وهى تشغل مكانها الملائم فى نسيج «الأصداء» من حيث دلالتها فى الكشف عن جوانب معينة من شخصية صاحبها، أما «أحلام فترة النقاهة» فتتجاوز المائتين، فكيف يمكن أن «نقرأ» هذه الأحلام أو «نفسرها»؟

وإن قلنا «تفسير الأحلام» تداعى - على الفور - سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) وكتابه الشهير بهذا العنوان (صدرت طبعته الأولى - بالألمانية - فى ١٩٠٠، ومنها ترجم إلى لغات العالم، وله ترجمة عربية ممتازة، قام بها الأستاذ الدكتور مصطفى صفوان، راجعها وقدم لها الأستاذ الراحل مصطفى زيور، وصدرت فى ١٩٥٨)، ولا شك عندى فى أن فرويد هو صاحب أوفى نظرية متكاملة فى تفسير الأحلام، ولا شك عندى أيضًا فى أن هذا الكتاب أحد أهم الكتب المؤسسة فى الثقافة الغربية والإنسانية المعاصرة، ولعل شأنه فى هذا لا يقل عن شأن «أصل الأنواع» أو «رأس المال»، أو كما يقول زيور فى تقديم الطبعة العربية: «كان «تفسير الأحلام» يضم ، فى الحقيقة، أخطر الاكتشافات فى تاريخ معرفة الإنسان بنفسه، وكان صدوره فتحا لا يدانيه فتح فى العلوم الإنسانية، ونقطة تحول بالغة الأثر فى تطور علم النفس والطب النفسى جميعًا، حتى شبهه البعض بكتاب كوبر نيكوس الذى طلع بثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث..»، وشأن الأعمال الكبرى التى أشرنا لبعضها، ذاب «تفسير الأحلام» ومنجزاته فى نسيج الثقافة الإنسانية المعاصرة.



فإلى أى مدى يمكن أن يفيدنا فى قراءة أحلام نجيب محفوظ؟

هنا نلاحظ، أولاً، أن جوهر النظرية التى جاء بها هو أن «الحلم لغة»، لها قواعدها ونحوها وصرفها ودوال المعنى الخاصة بها، وطرائقها فى التعبير والصياغة، وأن «ميكانيزمات» الحلم فى التحول من «المحتوى الكامن» إلى «الصورة الظاهرة» إنما هى ذوات الميكانيزمات التى يستخدمها الإبداع الفنى بوجه عام، والأدبى بوجه خاص، أعنى ميكانيزمات مثل: التكثيف والنقل والابدال والرمز والصياغة الثانوية، وليس هذا هو الرابط الوحيد بين تلك النظرية والإبداع، وأقصر الحديث هنا على الإبداع الأدبى، فثمة تراث هائل من الدراسات التطبيقية لفرويد وتابعيه عن أدباء أو أعمال أدبية، وفى ثقافتنا العربية تراكم قدر كبير من هذه الدراسات، سواء ما التزم منها بالمنهج الفرويدى أو أضاف إليه سواه من المناهج، منذ أنجز الدكتور مصطفى سويف دراسته الرائدة عن «الأسس النفسية للإبداع الفنى - فى الشعر خاصة» فى ١٩٥١، تتابعت بعده دراسات الدكاترة: عز الدين إسماعيل وروز غريب وعبدالحليم محمود ومصرى حنورة وعلى زيعور وسواهم، ورغم أن المجال لا يتسع للإفاضة فى الحديث عن هذه الدراسات، إلا أننا لا نستطيع إغفال الإشارة إلى أشملها فيما يتعلق بالرواية العربية، وهى التى قدمها الأستاذ جورج طرابيشى فى كتبه: «عقدة أوديب فى الرواية العربية»، «الرجولة وأيديولوجيا الرجولة فى الرواية العربية»، «شرق وغرب، رجولة وأنوثة»، «الله فى رحلة نجيب محفوظ الرمزية»، «أنثى ضد الأنوثة»، حتى آخرها - فيما أعرف: «الروائى وبطله، ١٩٩٥».

ثانى ما نلاحظه أن الإفادة من منهج التحليل النفسى لفهم الإبداع لا تقتضى - بالضرورة - الالتزام بحرفية النظرية الفرويدية بكل ما فيها وحولها من نقاط الجدل والاختلاف، بعبارة أخرى: إن الدارس لهذا الإبداع قد لا يلتزم بما جاء فيها خاصا بغلبة الدافع الجنسى أو سيادة «المركب الأوديبى» أو سواهما من قضاياها الخلافية، وإذا كان فرويد نفسه قد تحدث - فى مقال شهير عنوانه «الشعر وأحلام اليقظة» - بأن الشاعر يعمد إلى حلم يقظته بهدف جذب قرائه وإغرائهم على مشاركته فيه، مستخدما أدواته الشعرية، فإن هذا الفهم يسرى على كافة المبدعين، لا الشعراء وحدهم بطبيعة الحال، فى مثل هذه الدراسات لا يجب أن يغفل الدارس لحظة واحدة عن أنه يتعامل مع إبداع فنى له شروطه وجمالياته الخاصة - ما بالك إذا كان مبدعًا فى قامة نجيب محفوظ؟

ولتوضيح ما أعنى، لندخل عالم الأحلام ونضرب الأمثلة: حدثنا فرويد عن «الأحلام النمطية» أو «النموذجية» أى تلك التى يراها الناس جميعًا، ومن أكثرها شيوعًا أحلام الارتباك من جراء العرى، يكتب: «والمألوف أن يكون نوع العرى ومداه بعيدين عن الوضوح..(..) والنقص فى الثياب لا يكون فى العادة خطيرًا إلى المدى الذى يبدو معه مبررًا لما يصحبه من الخجل.. (..) أما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائمًا غرباء، ولا يحدث أبدًا فى الحلم النمطى أن تلقى طريقة الارتداء التى توقع صاحبها فى كل هذا الارتباك اعتراضًا، ولا هى تعير التفاتًا، بل تحمل الناس، على العكس، وجوهًا لا تبالى..».

فى الحلم (٤) من أحلام نجيب يرى الحالم نفسه مع رفيقين له يقفون فى ركن من بهو مترامى الأركان.. «صاحباى يرفلان فى كامل حلتيهما حتى رباط العنق على حين اكتفيت أنا بالجلباب..» (هو بديل العرى)، ثم جاء رجل بملابس رسمية فهجس الحالم بأن حفلة ستقام، ثم جاء رجلان مماثلان له انضما إليه فزال كل شك، حاول الحالم الهرب فوجد وراء كل باب جدارًا موصدًا (أى أنه محاصر بلا فرصة فى الإفلات).. «رجعت إلى صاحبىّ فاندسست بينهما كأننى أتستر بهما.. طمأننى بعض الشىء أن الرجال الثلاثة لم يعيرونا أى التفات (يقصد أنهم لم يعيروه، هو، أى التفات)، ثم تتابع مجىء الناس ودخل رجل كأنه زعيم، هتفوا له ثم اختفى..».

كذلك يمكننا أن ننظر فى الحلم (٢) باعتباره حلمًا نموذجيًا للتوهان: يدخل الحالم ومعه الفتاة إلى الشقة، وخلفهما البواب يحمل الحقيبة كأنهما زوجان (رغم قوله إن الصلة بينهما غير محددة)، وللشقة شرفة تطل على البحر، وينزل الحالم إلى السوق كى يبتاع بعض الأشياء، وحين رجع وجد باب الشقة مفتوحًا ولم يجد الفتاة، وقال له البواب: «حضرتك أخطأت الطريق، وهذه ليست شقتك..(..) وملت إلى الاعتقاد بالخطأ متذكرًا أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة فى صف واحد..»، وحين هبط إلى الطريق رأى الفتاة تسير فى طرفه المفضى إلى الميدان.. «فجريت نحوها حتى أدركها قبل أن تذوب فى الزحام..».

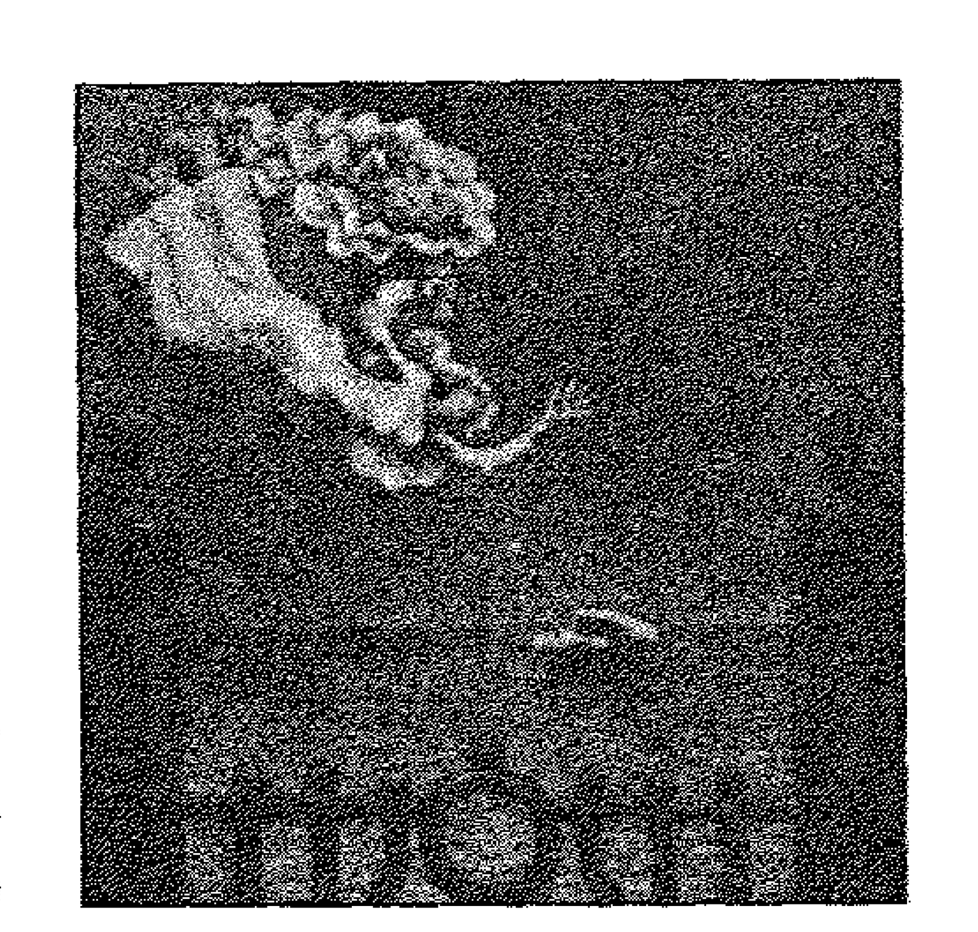
ومن الأحلام النموذجية كذلك أحلام الاستعجال والطيران والامتحان وعدم اللحاق بالقطار أو الطائرة، وهذا كله لا تخلو منه أحلام نجيب محفوظ ولنكتف بحلم واحد: فى الحلم (١١٩) يحدثنا الحالم: «وصلت إلى المحطة فى الوقت الحرج، واتخذت موقعى فى الطابور الممتد إلى شباك التذاكر، فظللنا بين القاطرة والشباك حتى انطلقت صفارة الإنذار الأخيرة، ومازلت على مبعدة من الشباك، وهكذا فاتنى القطار..».

تلك، وغيرها (راجع الأحلام «٦٥»، «٦٧»، «١٦١»، «..») أحلام نموذجية أو نمطية، استطاع المبدع العظيم أن يحولها لنصوص أدبية، بإضافة تفاصيل لا تخرج عن



سياقاتها، ثم بتلك العملية التى أسماها المحللون «الصياغة الثانوية»، ولا تنس أن أدوات المبدع فى هذه الأحلام وفيرة، فإلى جانب وسائل عمل الحلم فى تحويل المحتوى الكامن إلى الصورة الظاهرة، ثمة تكنيكات الصياغة الأدبية فى القصة والرواية.

وربما كان أهم ما يلفت النظر فى شخصية الحالم فى هذه الأحلام كلها أنه محاصر، محاط به، موضوع ملاحقة وتربص، يعانى الخديعة المرة بعد المرة، وتسلب نقوده المرة بعد المرة أيضاً، بل يتعرض للإيذاء الجسدى أو التهديد به، ويحكم عليه بالإعدام أكثر من مرة، وقائمة الأحلام هنا طويلة جداً، سوف نقف عند أكثرها دلالة: هو - فى أول الأحلام - جائع يبحث عن مطعم «مناسب لذوى الدخل المحدود»، ويطوف بدراجته طويلاً، ويلمح صديقه إلى جوار الساعة فى الميدان، ويطلب منه صديقه أن يترك معه الدراجة حتى لا تعيقه فى البحث، وبعد رحلة خائبة رجع إلى الميدان فلم يجد الصديق ولا الدراجة. والحلم (١٦) عملية سلب وقهر لا شك فيها: الحالم يسير لكنه يحس أن شخصاً يتبعه، وهطل المطر بقوة فعاد إلى بيته مهرولاً.. «لكن شعوراً غريباً اجتاحنى بأن شخصاً غريباً مختفياً فى المسكن..» واستفزنى استهتاره فصحت به أن يسلم نفسه، ففتح باب حجرة الاستقبال وبرز رجل لم أر مثيلاً فى مساحته وقوته، وقال بهدوء وسخرية: سلم أنت نفسك، وملكنى الإحساس بالعجز والخوف.. (..) أما هو فأمرنى بتسليمه محفظتى ومعطفى..» وبعد أن تسلمهما دفعه فألقاه أرضاً، وحين نهض كان الرجل قد اختفى، وخوفاً من أن يصبح سخرية لم يستغث بأحد ولم يبلغ الشرطة!. وفى الحلم (٣٦) تتم خديعة الحالم فى صفقة فيخسر نقوده، وفى الوقت ذاته تخلو وظيفة المدير العام فى المكان الذى يعمل به، فيتقدم لها ويفشل فى الحصول عليها.. «قابلت الوزير لكنه قال لى: «إنك لم تستطع أن تحافظ على مالك الخاص، فكيف أأتمنك على المال العام؟..»، ولم يجد أمامه سوى أن يطلب إحالته للمعاش كى يجد الطأنينة!. ومن ذكريات جو الموظفين أيضاً الحلم (١٦٨): يذهب الحالم إلى «مدير المستخدمين» يشكو تخطيه فى الترقية رغم أن القانون فى صفه، فينصحه الرجل بأن يرفع قضية، فذهب إلى «مدير التحقيقات» وقدم شكوى.. ولكن أذهلنى أن وجهه نسخة دقيقة من وجه مدير



المستخدمين..»، ومن فوره ذهب إلى المحامى شرح مشكلته ودفع مقدم الأتعاب.. «ولكنى ذهلت أن وجهه نسخة من وجه مدير المستخدمين ومدير التحقيقات»، وكذلك سوف يكون الطبيب الذى يذهب إليه فى المساء، فحصه بدقة.. و«لكن لاحظت أن وجهه نسخة طبق الأصل من سابقيه..»، وسوف يلاحقه لص يسلب نقوده وهو عائد إلى بيته فى الليل، لم ير وجهه لكنه سمع صوته، «فسألت نفسى: ترى.. أين سمعت هذا الصوت من قبل؟»، وهل نحن بحاجة للجواب؟

فى هذه الأحلام، وسواها، نرى الحالم يعانى الحصار والملاحقة (حتى فى النهر، ثمة من يلاحقه، راجع الحلم (٤٥)..)، يتعرض للإيذاء الجسدى والمعنوى أكثر من مرة، وتشتعل النار فى بيته أكثر من مرة كذلك، وتنتهى به أحلام كثيرة وهو قلق، متوجس، متخوف مما يمكن أن يحيق به من فضيحة أو اتهام: الحلم (٨) ينتهى بهذه العبارة: «وعاد الهدوء لليل، ولكننى لم أزل أتوقع فضيحة أو شراً من ذلك..»، وفى الحلم الذى يليه مباشرة تسلب نقوده امرأة فى ثياب الرجال.. «وتم كل شىء بسرعة، ولما وقف المصعد وفُتح بابه أمرتنى بالخروج، وهبط المصعد، وجدتنى فى طرقة مظلمة، وقهرنى شعور بأننى قد فقدت أصدقائى وأن حوادث كالتى وقعت لى فى المصعد تتربص بى هنا أو هناك...».

وثمة أحلام تحولت لقصص ذات طابع رمزى خالص. إن محتواها الكامن ينطلق من الواقع، لكنه يقدم صوراً ومعادلات رمزية لهذا الواقع، والقائمة تطول هنا أيضاً: فى الحلم (١١) امرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد، تستلقى فى ظل نخلة على شاطئ النيل..»، تكشف عن صدرها وتنادى الأطفال، فتدافع نحوها أطفال لا يحصرهم عد وتزاحموا على ثدييها ورضعوا بشراهة غير معهودة، وكلما انتهت جماعة جاءت أخرى، وبدا أن الأمر قد تجاوز كل الحدود وخرج عن كل تنظيم وأصبح يقتضى التنبيه أو الاستغاثة، لكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل، ويحاول الحالم الاستغاثة لكن صوته لا يخرج من فمه، أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلداً على عظم «ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى، ثم راحوا يتقاتلون بضراوة فيما بينهم، ولمحه بعضهم فاتجهوا نحوه وهو «فى رحاب الرعب الشامل». هل ثمة شك فى هوية المرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد التى تستلقى فى ظل نخلة على شط النيل؟ هذا ما فعله بمصر أبناؤها الشرهون النهمون القساة، ثم استداروا يتقاتلون، والويل للشاهد الوحيد لأن الباقين «يغطون فى النوم على شاطئ النيل..».

وخذ أيضاً هذا الحلم (١٢٧): أصحاب يجتمعون فى حديقة الفيللا للسهر والسمر «فى حرية شاملة»، لكن صاحب الحديقة تغير فجأة فاستبد بكل شىء.. «فهو يختار موضع الجلسة وموضوع الحديث والأكل والشرب، وحسبناها دعابة لكنه استمر وتمادى فضقنا به ذرعاً غير أننا أخفينا مشاعرنا إكراماً للموقف»، غير أن واحداً منهم لم يستطع أن يخفى مشاعره، وذات مساء انفجر غضبه فأخرج مسدسه وراح يطلق عليهم النار!

لعلنى أغامر بالتفسير: الحالم وفدى لا شك فى وفديته واقتناعه بأنهم كانوا يعيشون فى حرية شاملة، أما صاحب الحديقة فأغلب الظن أنه عبدالناصر دون سواه، والحلم يصور كيف تتقبل الشعوب التنازل عن حريتها، والعيش فى ظل الديكتاتورية!

وأخيراً.. هذا هو الحلم (٥١): وقف القطار حيث لا محطة، وسرعان ما طوّقه الجنود، وأنزلوا منه العسكريين وبعض المدنيين الذين كانوا فيه، ومن بينهم الحالم.. «أمرنا الجنود المسلحون بخلع بِدلنا والبقاء بملابسنا الداخلية.. (..) وتساءل صوت منا: هل تقتلوننا بلا محاكمة؟ فأجاب القائد بصراحة: الأمر لا يحتاج إلى محاكمة!».

أليست هذه صورة رمزية للحياة فى أية بلاد يحكمها العسكر؟

وكما تعكس الأحلام تفاصيل من حياة صاحبها، فنحن نتلمس فى هذه الأحلام بعض ثوابت عالم نجيب محفوظ الذى عرفناه فى أعماله السابقة. وعلى نحو من الأنحاء يمكن القول بأنه إذا كان المحللون يستعينون بالتداعيات الحرة للحالم كى يصلوا لمعنى حلمه، فإن أغلب مستدعيات حالمنا هنا مثبتة ومنشورة، فالبيت الذى تدور فيه كثير من الأحلام هو «بيت العباسية»، لكنها العباسية التى كانت حتى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى، والتى صورها نجيب أكثر من مرة (يمكن أن تعد روايته «قشتمر، ١٩٨٩» بكائية رقيقة لهذا الحى الذى كان جميلاً، بكلمات نجيب: «واحة فى قلب صحراء مترامية، فى شرقيها تقوم السرايات كالقلاع، وفى غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية، تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكى، يشملها هدوء عذب وسكينة سابغة، ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيراً فى الصدور حبها المكنون.. إلخ»، حيث تجتمع العائلة: الأم والإخوة والأخوات. وثمة ملاحظة مهمة هنا هى أن الأب يغيب عن هذه الأحلام غياباً كاملاً، فى أكثر من مائتى حلم (٢١٢ على وجه التحديد) نرى الأم والأخوة والأخوات عدة مرات، لكننا لا نرى الأب مرة واحدة. لست أعرف تفسيراً لهذا الغياب أو الإقصاء، ولأننى أحاول التعامل مع هذه الأحلام باعتبارها نصوصاً أدبية قبل أن تكون أى شىء آخر، ولأننا لا نعرف - على وجه اليقين - ماذا رأى الحالم حقاً وماذا أضاف الكاتب إلى ما رأى، فلست أولى هذا الأمر أهمية كبيرة.

وفى عالم نجيب محفوظ إن جاء ذكر العباسية جاء حُبه الأول. هى حبيبة الصبا والمراهقة وأول الشباب، صاغها أكثر من مرة وأعطاها أكثر من اسم: هى عايدة شداد «بين القصرين»، وهى صفاء الكاتب «المرايا»، وهى فاطمة العمرى «صباح الورد»، وهى - فى كل الأحوال - «حلم الطفولة المجهول، وموعد اللقاء النافذة، وإذا توارت يوماً فإنما لتلقننى الألم قبل أوانه..»، وجوهر العلاقة حب من طرف واحد، فى حين يبقى الطرف الآخر جاهلاً بهذه العاطفة أو لا مبالياً بها، وها هو نجيب - كان على أعتاب التسعين - لا يزال وفياً لذكراها. ها هو فى الحلم(١٤): «هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب، ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر: لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت، على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهماً من أوهام المراهقة؟»، وجاءت (القاعدة

هل ثمة شك فى هوية المرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد التى تستلقى فى ظل نخلة على شط النيل؟ هذا ما فعله بمصر أبناؤها الشرهون النهمون القساة، ثم استداروا يتقاتلون، والويل للشاهد الوحيد لأن الباقين «يغطون فى النوم على شاطئ النيل..»

الأساسية فى الحلم أنه تحقيق لرغبة)، لكنها جاءت وراء فرقة موسيقية من تلك التى كانت تتقدم الجنازات، وهَمَّ صاحب الحلم بأن يلمسها، لكنه سرعان ما أيقن أن الفستان ينسدل على فراغ.. «وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض، وتدحرج إلى النهر، وحملته الأمواج مثل ورد النيل، تاركة إياه فى حسرة أبدية..».

وها هو يراها فى سياق آخر، فى الحلم (١٨): فى قارب بخارى، وهى الملاح.. «ارتعش لمرآها قلبى، أطلت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة، وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب..»، وحين هَمَّ بأن يسير إليها ليرى كيف يكون استقبالها له رأى نفسه فى حى شعبى، لعله الغورية، وهو مكتظ بالخلق فى مولد الحسين.. «ولمحتها تشق طريقها بصعوبة عند أحد المنعطفات فصممت على اللحاق بها..».

هل نحن بحاجة للقول إنه حين رجع لمكانه فى القارب وجد الملاح عجوزاً متجهم الملامح؟

أليس نجيب نفسه هو القائل لنا: «ما أشد معابثة الأحلام»؟ ها هى تعابثه بحبيبة الصبا، التى يصفها.. فى الحلم (١١٠) بأنها «الوجه الذى علمنى العشق وألهمنى الخلود..»، وفى الحلم (١٤٤): «نظرتُ فى ظلمات الماضى فرأيت وجه حبيبتى يتألق نوراً بعد أن دام غيابها خمسين سنة..».

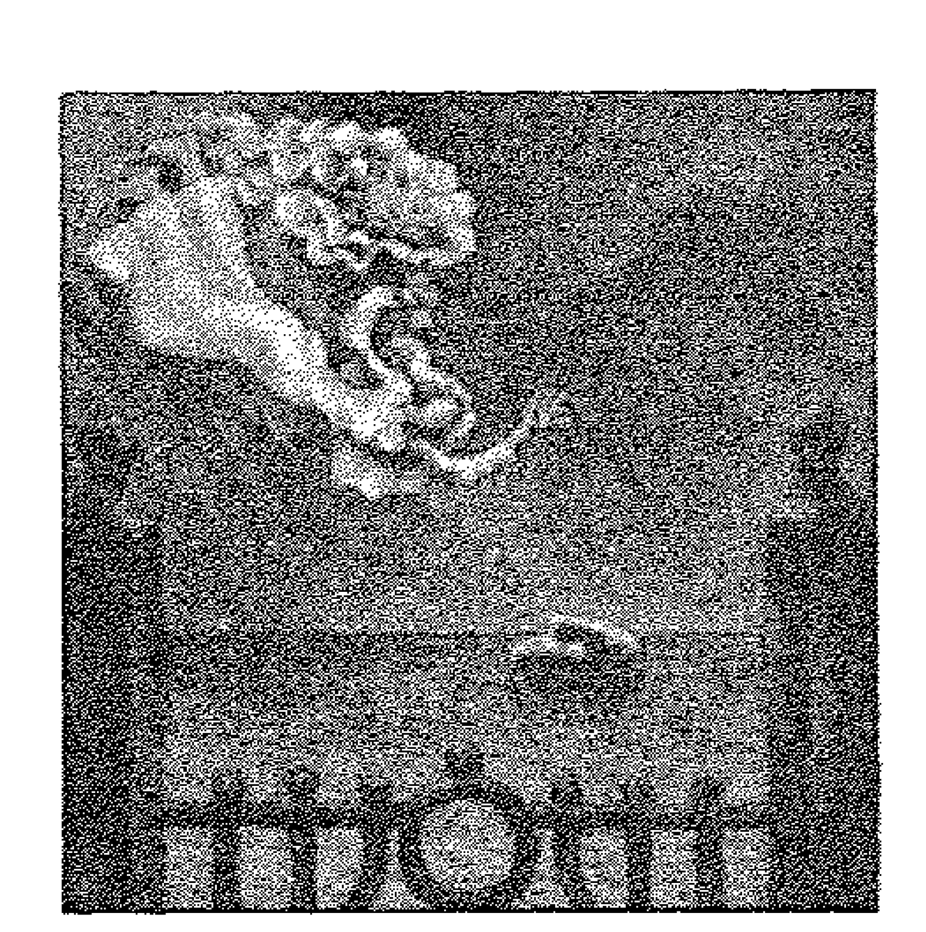


وفى الأحلام عدد كبير من الشخصيات العامة التى عرفها الراوى وارتبط معها بعلاقات شتى: ثمة - بطبيعة التكوين الثقافى والسياسى - سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد، وثمة أيضاً زكريا أحمد وحسين فوزى وسعد الدين وهبة وأصدقاء يذكرهم بأسمائهم وآخرين يرمز لهم بالحروف الأولى، لكن الشيخ مصطفى عبدالرازق هو أكثر الشخصيات العامة تردداً، فهو يرد فى أحلام ثلاثة: (١٢٣) و(١٥٥) و(١٨٠).

ونحن نعرف أنه كان أستاذاً لنجيب محفوظ، درس له الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب، كان أستاذاً مجدداً مستنيراً، قضى فى باريس زمناً وحصل على الدكتوراه من السوربون، وفى وقت من الأوقات سجل نجيب رسالته للماجستير فى الفلسفة الإسلامية تحت إشرافه ثم انصرف عنها، وحين أصبح الشيخ وزيراً للأوقاف، قبل أن يصبح شيخاً للأزهر، فى إحدى وزارات النصف الثانى من أربعينيات القرن الماضى، أخذ نجيب معه كى يعمل معه «سكرتيراً برلمانياً» (لهذا ترد وظيفة السكرتير البرلمانى هذه فى حلمين من الأحلام). المهم أن اثنين من هذه الأحلام الثلاثة يتضح فيها دور مصطفى عبدالرازق كما يراه نجيب محفوظ. فى الحلم (١٨٠): «رأيت أستاذى الشيخ مصطفى عبدالرازق. وهو شيخ للأزهر - يهم بدخول الإدارة، فسارعت إليه ومددت له يدى بالسلام فصحبنى معه، ورأيت فى الداخل حديقة كبيرة جميلة، فقال إنه هو الذى أمر بغرسها، نصفها ورد بلدى والنصف الآخر ورد أفرنجى، وهو يرجو أن يولد من الاثنين وردة جديدة كاملة فى شكلها، طيبة فى شذاها..». إنها صياغة جميلة للدور الذى ألقى على عاتق الشيخ وسواه من جيل الأحياء: المواءمة بين العلم الحديث والتراث، أو الغرب والشرق على التحليل الأخير. يؤكد هذا الفهم ما يقوله نفس الشيخ فى الحلم (١٥٥): ألمت به وعكة وقرر صاحب الحلم أن يعوده. قال الشيخ: «عندكم كثير من الصيدليات مليئة بالأدوية، إضافة إلى الوصفات الشعبية المجربة..». لا تناقض إذن بين العلم (الأدوية) والتراث (الوصفات)، ولا ينفى أحدهما الآخر ولا يقصيه.

وأود أن أقف لحظة عند حلمين عن اثنين من الشخصيات العامة ذكرهما بأسمائهما: حسين فوزى وسعد الدين وهبة. الحلم (٨٦) عن أولهما: «كلفت بحمل رسالة إلى المرحوم الدكتور حسين فوزى، فقلت له إن معى عرضاً لإعادته إلى الخدمة مع زيادة ملموسة فى الراتب وتخصيص حجرة فاخرة لمقامك، ضحك الدكتور وقال إنه لا يهمه الراتب ولا الحجرة، ولكن يهمه احترام فكره وكرامته..».

ويخيل إلىَّ أن هذا الحلم يستعيد تلك الأزمة التى تعرض لها الدكتور فوزى بعد زيارته لإسرائيل، وتعرضه للنقد والهجوم، آنذاك وصفت هذه الزيارة بأنها «سحابة معتمة غشت وجه القمر»: قبل الدكتور فوزى الدعوة لزيارة إسرائيل، وزارها مرتين: فى ديسمبر ١٩٧٩، ثم فى أبريل ١٩٨٠، حيث ألقى بعض المحاضرات فى جامعاتها، وتقبل الدكتوراه الفخرية من جامعة تل أبيب..». فى رحيل الدكتور فوزى (١٩٨٨)، كتبت: «عندى، وقد مضى الرجل عن عالمنا بكل ما فيه من شر وخير. إن الدكتور فوزى لم يكن يلتمس - بهذه الزيارة - رضا أصحاب الحل والعقد، الذين لم يتوقفوا لحظة عن الحث على «التطبيع» و«إزالة الحاجز النفسى»، ولا



كان يبغى تحقيق مصلحة عابرة شأن الكثيرين ممن فعلوا، لكنه كان مخلصاً - كل الإخلاص - لاقتناعاته الرئيسة التى شكلت أسس تكوينه الفكرى، وأهمها - فى هذا السياق - الإيمان التام والمطلق، الذى لا يأتيه الباطل من أى مكان، بصحة النموذج الحضارى الغربى وسلامته، وبأنه النموذج الذى علينا احتذاؤه، إن شئنا أن يكون لنا مكان تحت الشمس. وما أيسر أن يؤدى مثل هذا الإيمان التام والمطلق إلى إسرائيل، هى التى قامت دعايتها - منذ بدء البدء - على أنها طليعة تلك الحضارة، وواحتها المتقدمة فى صحراء العرب والشرق والتخلف.

هذه واحدة، الثانية أن الدكتور فوزى كان عاشقاً مخلصاً لمصر، لكنها مصر المكتفية بذاتها، المكتملة كالجوهرة، التى لم يحدث - طوال تاريخها الذى عرفه الرجل حق المعرفة - أن انقسمت أو انقصمت أو انقصفت، أو انتفض فيها جزء على جزء أو جزء على الكل، أو فقدت تكاملها المنغلق - بصحاريه وجنادله - عما حوله.

بعبارة أخرى: إن الدكتور فوزى كان يحمل مصر، وحدها، فى قلبه، لم يتسع ليحتويها من حيث هى قلب العالم العربى، وواسطة عقده، ورائدته وقائدته إلى الصلاح أو إلى الفساد، ولم يكن الرجل بدعاً فى هذا، كثيرون من مثقفى جيله الكبار كانوا كذلك، يشاركونه الاقتناع بتكامل مصر واكتفائها، وإن توجهت للخارج فإنما نحو الغرب، وعبر المتوسط، يجب أن تتوجه!

هى سحابة غشت وجه القمر، لا تنسينا ضوءه الذى ظل يسطع أكثر من خمسين عاماً متوالية: كاتباً ومبدعاً وباحثاً ومؤرخاً ومسئولاً، عاشقاً للفنون والآثار، متذوقاً وممارساً للأدب والموسيقى، وقبل هذا كله: مدافعاً صلباً عن قيم العقل والحرية والإبداع..». (راجع من فضلك: «حسين فوزى: فى رحيل السندباد»، فى «أوراق أخرى من الرماد والجمر»، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٣٩ - ٢٤٠).

وهذا نجيب محفوظ، يمسح على رأس صديقه الكبير، متفهماً ومتعاطفاً ومواسياً.

وعن سعد الدين وهبة الحلم (١٥٩): «تلقى بعض الحرافيش دعوة من الأستاذ سعد الدين وهبة فذهبنا إلى مقابلته، وهناك رحب بنا وأطلعنا على بيان سيرفعه إلى كبار المسئولين لتطهير الهيئة من الساسة المنحرفين، ودعانا إلى التوقيع عليه بإمضاءاتنا فاستجبنا بحماس، وعند فجر ذلك اليوم اخترق بيوتنا زوار الفجر وساقونا معصوبى الأعين إلى المجهول..».

فهل كان نجيب محفوظ يعرف عن سعد الدين وهبة أكثر مما يعرف الناس؟ لست أدرى بطبيعة الحال. ما أعرفه هو أن سعد الدين هبة كان، على وجه اليقين - رجل السلطة بامتياز، منذ جاء القاهرة نقيباً فى الشرطة ومحرراً فى المجلة التى كانت تصدرها وزارة الداخلية باسم «البوليس» ثم رئيساً لتحريرها قبل منتصف الخمسينيات، وحتى رحل فى نوفمبر ١٩٩٧، مهما تغير الجالسون على قمة هذه السلطة، أو تغيرت توجهاتها.

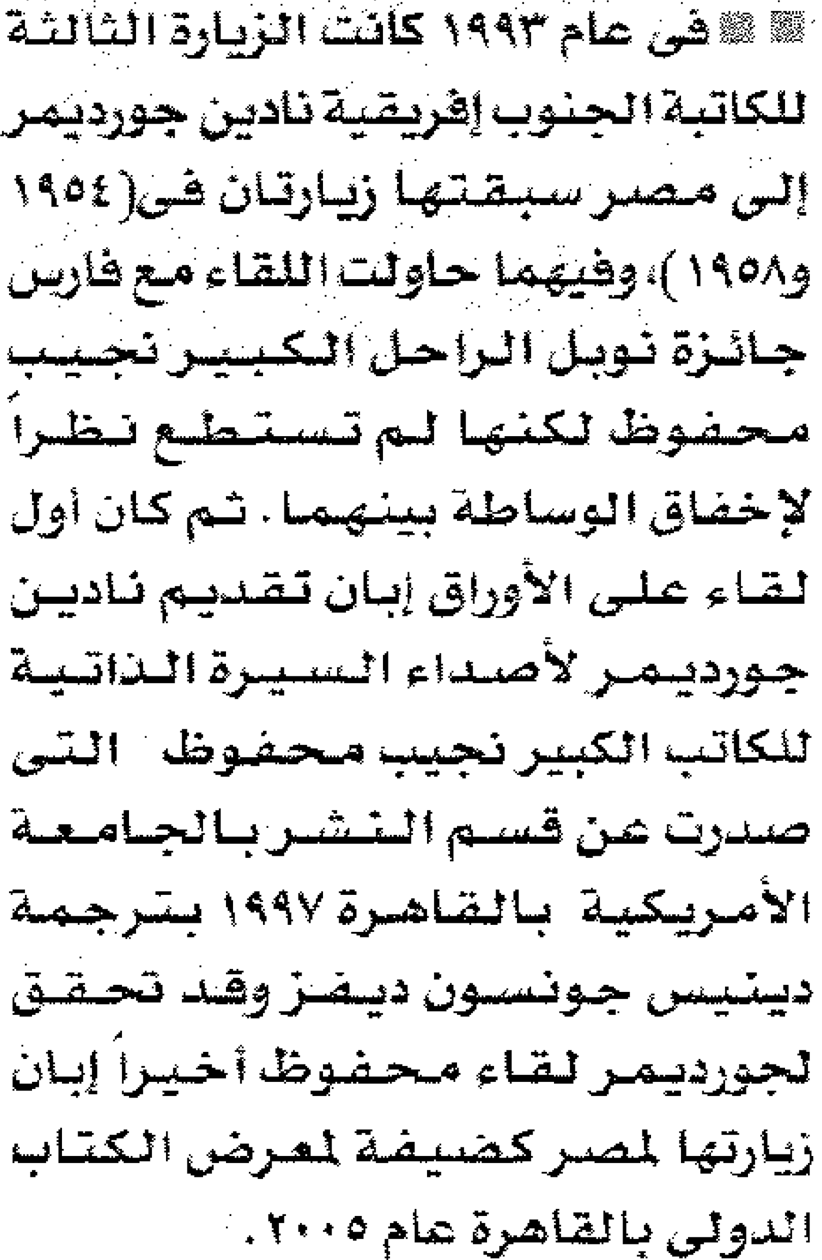
وحين رحل كان رئيس اتحاد الكتاب المصريين، واتحاد الفنانين العرب، ومهرجان القاهرة السينمائى، وكاتباً جهير الشهرة له صفحته الأسبوعية فى «الأهرام»، وصاحب مشروعات خاصة، ولا تنس - من فضلك - عضو الأمانة العامة، المسئول عن الثقافة، فى الحزب الوطنى الحاكم!



فى الحلمين (١٧٩) و(٢٠٦) يعرض نجيب محفوظ حاله. فى أولهما يقول: «زارنى المرحوم صديقى الحميم، وسألنى عن أسباب حزنى، فقلت له: إن ضعف السمع والبصر حال بينى وبين مصادر الثقافة المقروءة والمسموعة والمرئية..»، وفى الثانى يقول: «ذهبت إلى مقابلة المرحوم الرئيس السادات، وهناك أخبرنى بأنه قرر تعيينى محافظاً للإسكندرية، فأطلعته على حالتى الصحية من ضعف البصر والسمع ويدى اليمنى المشلولة.. إلخ».

ألم أقل لك إنه كان يبدع أعماله الأخيرة فى ظل أقسى الشروط الإنسانية التى يعانيها مبدع كبير؟

عفاف عبد المعطي



روايتان

نادين جورديمر.. نجيب محفوظ

■ في عام ١٩٩٣ كانت الزيارة الثالثة للكاتبة الجنوب إفريقية نادين جورديمر إلى مصر سبقتها زيارتان في(١٩٥٤ و١٩٥٨)، وفيهما حاولت اللقاء مع فارس جائزة نوبل الراحل الكبير نجيب محفوظ لكنها لم تستطع نظراً لإخفاق الوساطة بينهما. ثم كان أول لقاء على الأوراق إبان تقديم نادين جورديمر لأصداء السيرة الذاتية للكاتب الكبير نجيب محفوظ التي صدرت عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٧ بترجمة دينيس جونسون ديفز وقد تحقق لجورديمر لقاء محفوظ أخيراً إبان زيارتها لمصر كضيفة لمعرض الكتاب الدولي بالقاهرة عام ٢٠٠٥.

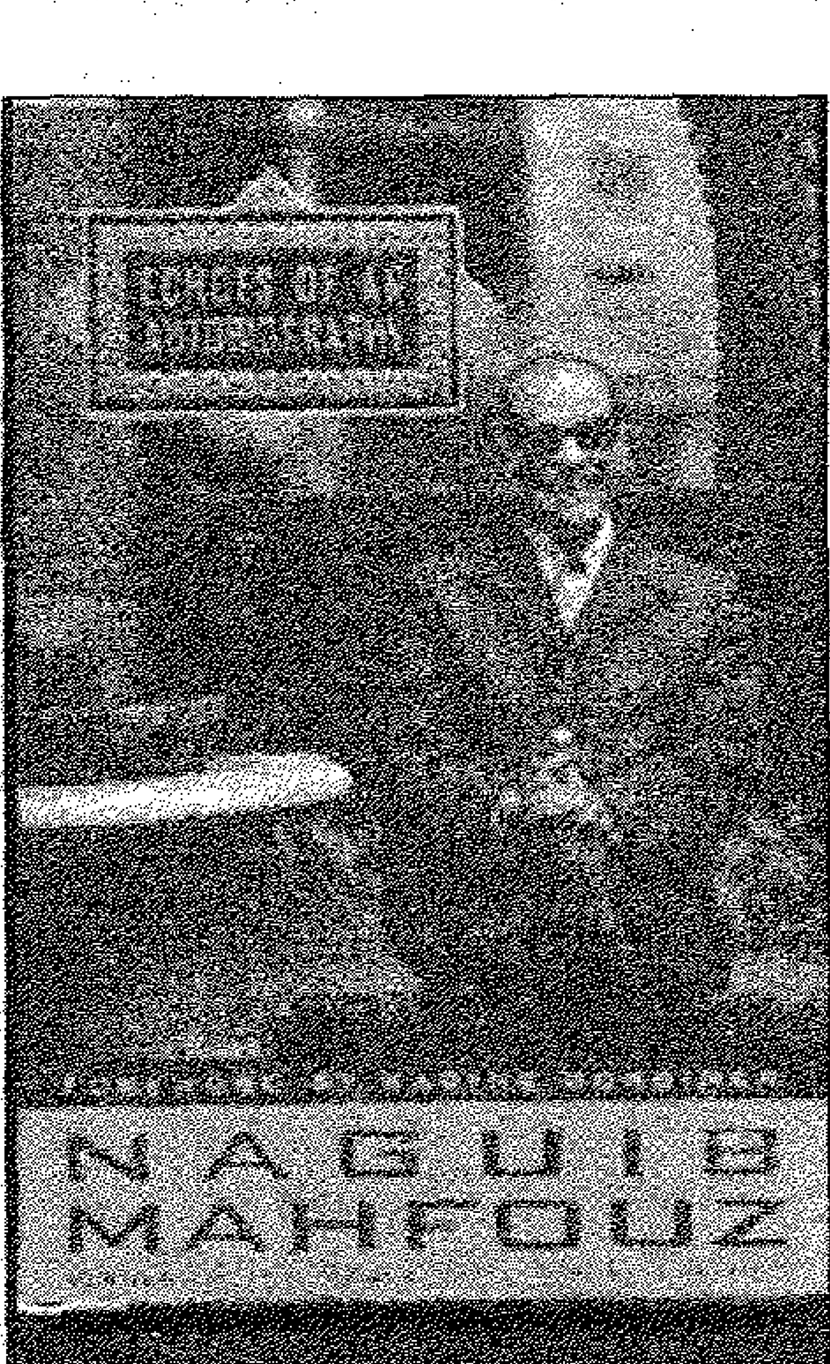
لا يحتاج نجيب محفوظ إلى تعريف ولا تحتاج نصوصه إلى تقديم، بينما لا تزال نادين جورديمر تحتاج إلى ذلك في العالم العربي، فهي روائية وكاتبة قصة قصيرة من جنوب أفريقيا حصلت على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٩١، وهي مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب نجيب محفوظ(أصداء السيرة الذاتية) وهي صاحبة مقالة عن أقصوصة (زعبلاوي) نشرت تحت عنوان (زعبلاوي الجانب الخفي) في كتابها المسمى (الكتابة والكينونة) «منشورات جامعة هارفارد ١٩٩٥». ولدت نادين جورديمر في

> نصوص محفوظ وجورديمر تعد سجلا حياً للمجتمع المصري عند الأول ومجتمع الفصل العنصري في جنوب إفريقيا عند الثانية

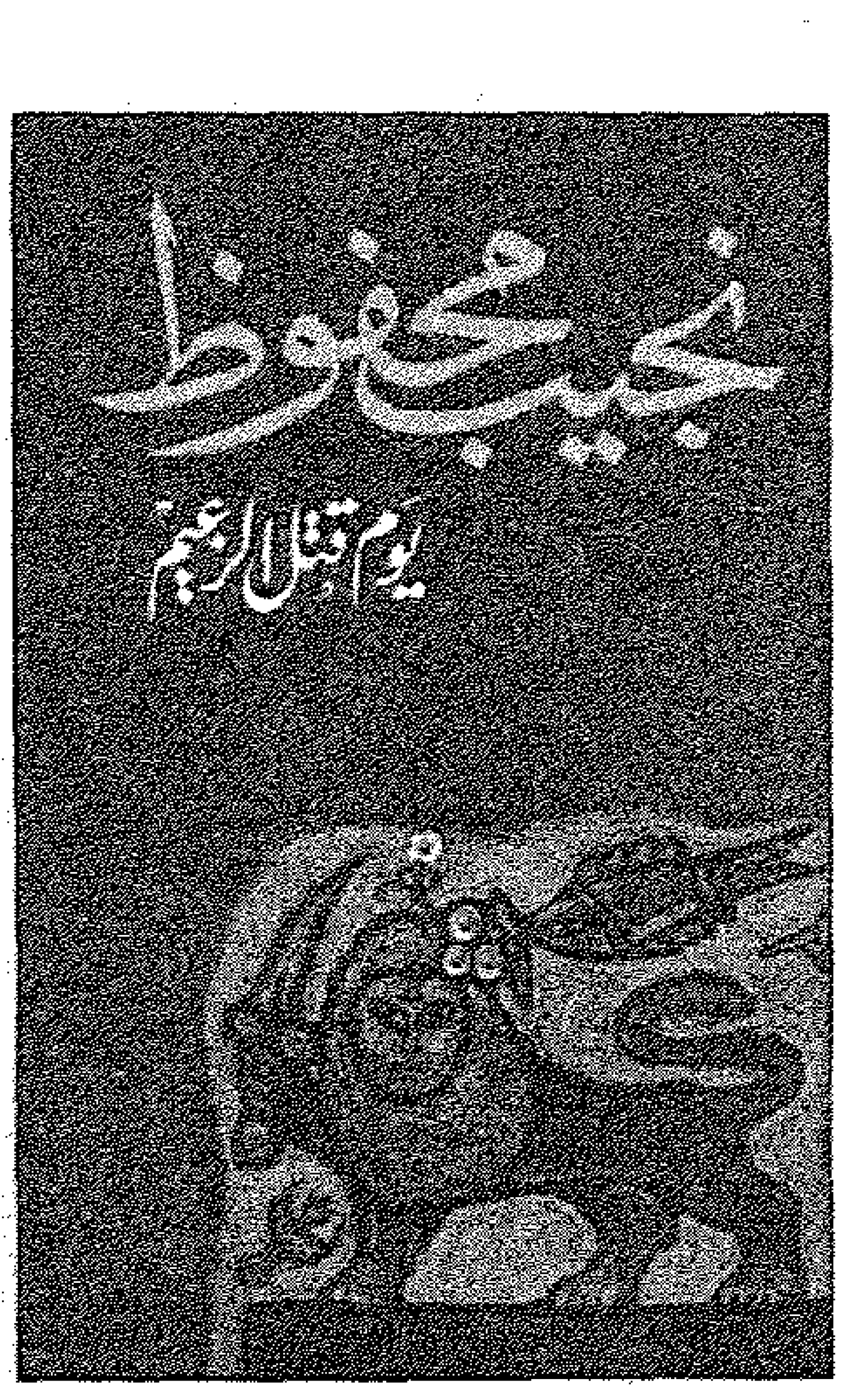
سبرنجز بإقليم الترانسفال في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ وتلقت دراستها في مدرسة الدير، وفي جامعة «ويتوتر ستاند» بجوهانسبرج، تزوجت لأول مرة من ج. جافرون في ١٩٤٩ ثم من رينولد كاسيرر في ١٩٥٤ حيث أنجبت ولداً وبنتاً. عملت محاضرة زائرة في معهد الفنون المعاصرة بواشنطن عام ١٩٦١، وفي جامعة هارفارد عام ١٩٦٩ وفي جامعة برنستون بنيوجرسي في ١٩٦٩، وفي جامعة نورث وسترن بإيفانستون بولاية إلينوي في ١٩٦٩، وفي جامعة متشجان في ١٩٧٠، ثم عملت أستاذاً مساعداً للكتابة الإبداعية بجامعة كولومبيا «نيويورك» في ١٩٧١، وقد حصلت خلال حياتها الأدبية على العديد من الجوائز: جائزة سميث الأدبية ١٩٦١، جائزة توماس برنجل ١٩٦٩، جائزة بلاك التذكارية ١٩٧٢، جائزة بوكر ١٩٧٤، جائزة النسر الذهبي الكبرى في فرنسا ١٩٧٥، الجائزة الأدبية لوكالة الأنباء المركزية بتايوان ١٩٧٥. تعيش جورديمر في جوهانسبرج الآن. وتشمل نصوص نادين جورديمر القصصية مجموعات: «وجهاً لوجه» ١٩٤٩، «وصوت الحية الناعم» ١٩٥٢، و«الأيام الكاذبة» ١٩٥٣، «ستة أقدام من البلد» ١٩٥٦ و«عالم من الغرباء» ١٩٥٨، و«أثر قدم فرايداي» ١٩٦٠ و«مناسبة للحب» ١٩٦٣، و«ليس للنشر» وقصص أخرى ١٩٦٥ و«العالم البرجوازي الزائل» ١٩٦٦، و«ضيف شرف» ١٩٧٠ و«رفاق لفنجستون» ١٩٧١، «المحافظ» ١٩٧٤، و«قصص مختارة» ١٩٧٥، و«يوم اثنين ما على سبيل المثال» ١٩٧٦، وقد ترجم بعض هذه الأعمال الى اللغة العربية في سلسلة «روايات الهلال». ومن أعمالها الأخرى «حول المناجم» بالاشتراك مع ديفيد جولد بلات ١٩٧٣، و«المفسرون السود» وهو كتاب في النقد الأدبي ١٩٧٣ وقد حررت بالاشتراك مع لايونل إبرامز كتاب «الكتابة في جنوب إفريقيا اليوم» ١٩٦٧. ومما عرف عن نادين جورديمر أنها كاتبة عصامية تنشر على نطاق واسع في المجلات والدوريات وقد بدأت تكتب بانتظام في سن

> محفوظ في نص أمام العرش جعل من حوار رجال مصر ذريعة لمحاكمة تاريخ تلك البلد، ومنهم بالطبع أنور السادات لأنه جزء من تاريخ هذا الوطن









التاسعة، ونشرت لها بعض قصص قصيرة وهي في الخامسة عشرة. ومن المعروف أن جورديمر كانت ضيف شرف معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠٠٥ وأثناء ذلك التقت بالراحل الكبير نجيب محفوظ لقاءً حميمياً.

في منزل نجيب محفوظ نظرت نادين طويلا في وجه محفوظ قبل أن تقول له، «في مثل هذا اليوم ٢٩ يناير/ كانون الثاني قبل واحد وخمسين عاما تزوجت.. إنه عيد زواجي.. وقد أخذني زوجي الراحل في رحلة إلى مصر وكانت أول دولة أزورها في حياتي.. والآن يا أستاذ محفوظ أشعر بأن لقائي بك الذي كنت أسعى إليه منذ سنوات هو أثمن هدية أتلقاها بهذه المناسبة.. إنني أرى دائما أنك من أعظم المواهب الإبداعية في العالم.. واحتفظ بكل أعمالك في مكتبتي مترجمة إلى الإنجليزية.. وكلما قرأت قصة أو رواية وأنهيتها تأخذني بلا وعي إلى الأخرى».



وقال نجيب بهدوء ومن خلال ابتسامته الودودة: سأقدم لك الآن كتابا لي لم تقرئيه.. فها هي النسخة الإنجليزية من كتابي «أحلام فترة النقاهة» الذي صدرت ترجمته الشهر الماضي وصدرت نسخته العربية منذ أيام. اختطفت نادين الكتاب وراحت تتأمل غلافه الأزرق وتقلب صفحاته وقالت بسعادة غامرة: عجبا لم أر هذا الكتاب من قبل.. فقال نجيب وهو يحتفظ بابتسامته الرقيقة: إنه يضم مجموعة قصص قصيرة استوحيتها من أحلامي[1].

ذكرت نادين جورديمر في مقدمة أصداء السيرة الذاتية أنها أميل إلى تصديق أن تقييم الكاتب ربما يتحقق تطبيقاً على السيرة الذاتية، حيث عبر تتبع الكاتب/الكاتبة للظواهر الإنسانية حوله عبر كتابة سيرته الذاتية تظهر موهبته أو موهبتها. وبفضل الخيال الإبداعي الذي يستحضر توهج الحياة وزينتها بالألوان الزاهية أو بالإفراط في وصف طريقة معيشته في المغامرات أو حياة السكر والمرح، أو عبر التجارب الجنسية.

فعلى أية حال السيرة الذاتية تثار ملاحقة لكيفية مثول أحداث الحياة للعيان كي تكون مكرسة للحقيقة. إنها تحتوي تدفقاً من السرد الصريح قد يكون ذلك أحياناً نكاية في الكاتب وبالطبع هناك استثناءات. عامة ترى جورديمر أن الكتّاب هم نتاج لسيرهم الذاتية ومن تكون سيرهم الذاتية أفضل من رواياتهم لديهم شيء يشير إلى موهبتهم.

وترى أن أثر كتّاب السيرة الذاتية يمتد إلى تدوين تاريخ الحياة منذ ظروف الميلاد الأولى مروراً بجمال الصبا حتى التواري في الثرى. فكيف ينتج الكاتب ذلك المدى الزمني الذي يكون موجوداً بالفعل وينتقل فيه بحرية بين الزمان والمكان؟ ترد جورديمر نفسها في مقدمة أصداء السيرة الذاتية: يظهر ذلك خلال الأقوال المأثورة، والأمثال، والحكايات في نص نجيب محفوظ التي لم تذيّل بتاريخ، فهي لم تكن محسوبة تاريخياً عندما كتبها. دوّنت منذ زمن بعيد فصاعداً إلى آخره حيث كان الذهن الإبداعي لمحفوظ متسعاً متيقظاً، بدلا من التجوّل بين الماضي والحاضر مع جموع من الأحداث لا تُعد سوى مجرد فعل تذكر. فأصداء السيرة الذاتية تجربة تمثل نزوة مصغرة أو ومضة من التعمق في جميع معتقدات نجيب محفوظ. فمحفوظ ذاكرة متخمة مثل (شخص عملاق ذي معدة تتسع لكميات كبيرة وفم يستطيع أن يبتلع فيلاً) لذا: تخيلت أنني أسأله بذهول، من أنت يا سيدي؟ فيجيب فجأة «أنا النسيان». كيف يمكن أن تنساني؟. عامة كان محفوظ مدركاً للماضي وخبرة تجربة الحاضر. تلك القطع الأدبية في أصداء السيرة الذاتية ما هي إلا تأملات تمثل رجعا الصدى للذي حدث وكيف كان الكاتب نجيب محفوظ آنذاك؟.

كما تجسد اكتشاف محفوظ وإمعانه النظر في الحياة. والاستغراق في تلك التأملات يستكشف روعتها ويظهر للعيان رموز قصص محفوظ حيث الكلمة المفردة أو العبارة تنهض على الدرس الأخلاقي: العدالة، الزمن، الدين، الذاكرة، اللهفة، الحركة، الجمال، الطموح، الحرية، الصفح، وأخيراً الفرح. كل ذلك يلاحظ عبر التركيز على اللغة الساحرة وأخذ موقعاً وسطاً بين المرح والعاطفة.

يوم قتل الزعيم

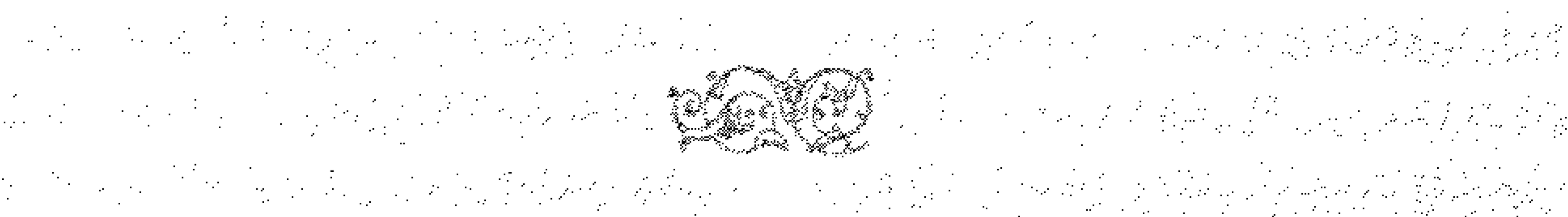
نقدم هذه الدراسة المقارنة بين رواية «يوم قتل الزعيم لنجيب محفوظ، ورواية «شعب يوليو» لنادين جورديمر لاعتبارات عدة أهمها صدور الروايتين في الثمانينيات ثم حصولهما (نجيب محفوظ (١٩٨٨) ونادين جورديمر (١٩٩١)) على جائزة نوبل العالمية في الأدب. ثانياً لكون جورديمر امرأة كاتبة من العالم الثالث حصلت على نوبل نتيجة لشرف مواقفها العامة ولأنها ومحفوظ يشتركان في الاهتمام بالواقع الاجتماعي لوطنيهما خاصة ما يخص تصوير القهر الإنساني. وثالثا أنها كاتبة قدمت السيرة الذاتية لكاتب. ورابعا لأن كتابات محفوظ قد تشابهت في غاياتها مع غايات جورديمر في الكتابة، حيث كلاهما يكتب عن البشر والبشر غاية من التعقيد والتناقض والغموض. إذن ثمة سر إنساني يحاول كل منهما أن يكتشفه عبر الكتابة التي هي هدف لكل منهما للوصول إلى السر الكامن في الحياة. آخر ما صدر عن نجيب محفوظ كتاب «نجيب محفوظ في سيدي جابر- انعكاسات تتويج جائزة نوبل) صدر عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية ٢٠٠٦، واخر ما صدر لنادين جورديمر كتاب تحت عنوان «لنحكي حكاية» يضم قصصاً مشتركة مع مجموعة من الكتاب العالميين ممن حصلوا على نوبل أمثال ماركيز وجونترجراس وتشينو اتشيبي و وولي سوينكا أو غير الحاصلين على نوبل أمثال سوزان سونتاج وقد ترجم إلى خمس عشرة لغة كما بيع منه ٥٠ ألف نسخة خصصت عائدها لصالح مرضى الإيدز في العالم.

صدرت رواية «يوم قتل الزعيم» للكاتب الكبير نجيب محفوظ في منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم أي بعد اغتيال الرئيس أنور السادات ومن ثم يجب إلقاء الضوء على الخلفية السياسية التي صدر عنها النص.

حيث إن التزام السادات بالديمقراطية وترديده لها ككلمة كان يلازمه منذ البداية لإسقاط خصومه وهي الديمقراطية التي وصفها نجيب محفوظ على لسان مصطفى النحاس إبان محاكمة السادات في نص أمام العرش بأنها: ديمقراطية قبلية تمارس فيها سلطاتك الدكتاتورية، ثم عقّب سعد زغلول بأن: الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تُمنح. وبمرور الوقت زاد عدد معارضي سياسة السادات خاصة في الحياة الثقافية وبسبب إهمال السادات للثقافة وموقفه من آراء المثقفين وهجرة عدد كبير منهم إلى الدول العربية والأجنبية فقد قدراً كبيراً من الثقة التي كان قد حققها بين المثقفين بإصلاحاته الديمقراطية. وفي ١٩٧١ كان قد بدأ بالفعل في تفكيك الصرح الثقافي الذي تشيّد قبله، فأغلق معظم المجلات الثقافية التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب في وقت واحد تقريبا، أغلقت أولا مجلة «المسرح والسينما» ثم «المجلة» و«القصة» و«الكتاب العربي» و«الفكر المعاصر» و«الفنون الشعبية» في أكتوبر ١٩٧١. ليحل محلها جميعا مجلة واحدة هي «الجديد» برئاسة رشاد رشدي. ثم جاءت في أكتوبر ١٩٧٣ مجلة «الثقافة» برئاسة الوزير يوسف السباعي، لكن أيا من المجلتين لم يصل إلى المستوى الرفيع، وظلت مجلة «الكاتب» صوتا مستقلا حتى سبتمبر ١٩٧٤ عندما قدم محرروها استقالة جماعية احتجاجا على تدخل الوزارة في تحريرها، ومن ثم أغلقت بعد شهور قليلة، كما قررت الهيئة العامة للكتاب إيقاف السلاسل التي كانت تصدر سابقا: مثل «المكتبة الثقافية» و«كتابات جديدة» و«أعلام العرب» و«روايات عالمية» و«روائع المسرح العالمي». لكن بدءاً من ٩



جورديمر تذكر أحداثاً حقيقية تضمنها النص كي تؤكد ان ما يحدث (الصراع الأسود ضد البيض) ما هو إلا نتاج طبيعي لأحداث سياسية اجتماعية متتالية

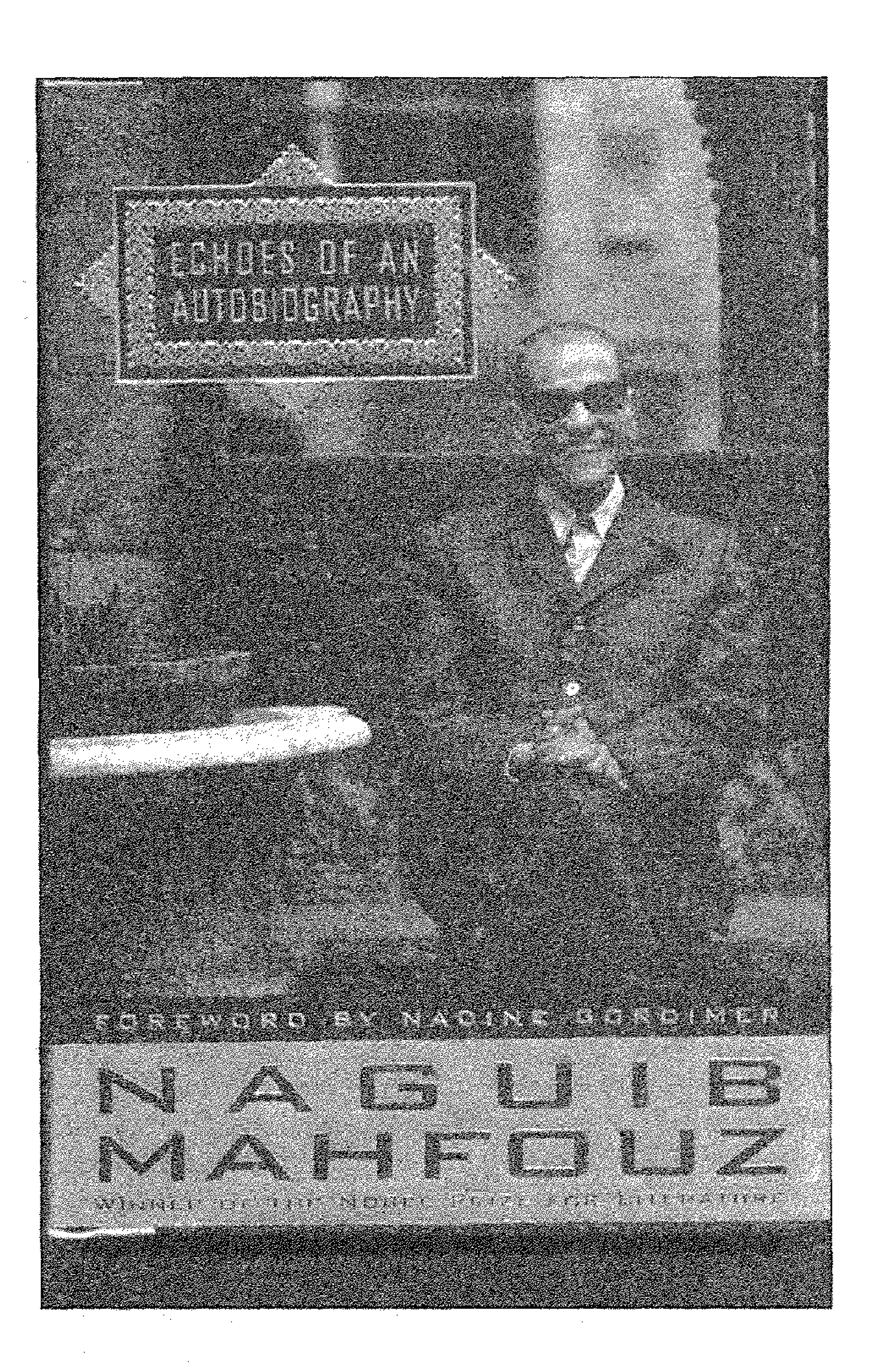


فبراير ١٩٧٤ ألغيت الرقابة على الصحف والمجلات، ومع ذلك لم يستتبع هذا الإلغاء حرية التعبير المتوقعة. إذ باختفاء الرقباء من مكاتب التحرير انتقلت مهامهم الرقابية إلى رؤساء التحرير ورؤساء مجالس الإدارة الذين كانوا يعينون بواسطة الرئيس، وبالتالي يكونون مسئولين أمامه، وحلت التعليمات اليومية الصادرة من المكتب الصحفى للرئيس محل أوامر الرقباء، وحدثت تغيرات كبيرة فى الصحافة، صحفيون محترمون حل محلهم أشخاص كل مؤهلاتهم الولاء للسادات وسياسته.

ويمرور السنوات تفاقم الصراع مع تزايد عدد الكُتّاب والصحفيين الذين غادروا مصربإرادتهم أو منفيين. وفى أكتوبر ١٩٨٠ وجه المدعى الاشتراكى الاتهام إلى ١٢٠ صحفيا بتهمة كتابة مقالات ضد النظام السياسى للدولة. وفى عملية واسعة فى السادس من سبتمبر عام ١٩٨١ ألقى القبض على آلاف بزعم الفتنة الطائفية. ومن بين المعتقلين ٢٥٠ من أبرز الشخصيات العامة: قيادات نقابات المحامين والصحفيين وأحزاب المعارضة، كما تم فصل الكثير من الأساتذة الأكاديميين من الجامعة، وما فعله هؤلاء المثقفون لم يكن إثارة لخلافات دينية، وإنما نقد لاتفاقية كامب ديفيد ولسياسة السادات الاقتصادية القائمة على الانفتاح الذى لازال المجتمع المصرى يعانى مما خلفه من طبقية حتى يومنا هذا، ثم اغتيل انور السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ و أكثر من ثلاثة آلاف من معارضى سياسته فى المعتقلات.

«..... وانتهى الأمر بمأساة المنصة»

لم ترد هذه الجملة على لسان مصطفى النحاس فى نهاية نص «أمام العرش» لنجيب محفوظ اعتباطياً، بل إن محفوظ (وفدى الهوى) قد جعل من نصه السالف محاكمة لتاريخ مصر السياسى كاملا متمثلاً فى حكامها منذ الفراعنة ثم زعمائها فى العصر الحديث، فقد وردت محاكمة لعصر انور السادات لينتهى به النص، وإذا كان النص يُخضع السادات لمحاكمة باعتباره الزعيم الأخير لهذا البلد فإن الحياة العربية لا تزال تعانى من قدر كبير من سياساته. وهو ما جسده محفوظ عبر الحوار الذى حدث مع رجال مصر أمام العرش بين انور السادات وكل من الملك اخناتون وتحتمس الثالث ورمسيس الثانى والملك امنتمحتب الثالث وكأن الماضى الذى يمثل البدايات يحاكم الحاضر الذى ورث عنه بنية الدولة وعلى ذلك يتجلى سؤال ماذا فعل حاكم العصر الحديث فى الدولة؟ ومن هنا تأتى أهمية كلمات الملك حور محب فى نص أمام العرش عندما قال للسادات اعترف بأنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا على أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم، فلا قيام لدولة إلا على الانضباط والأخلاق. ثم مناظرة المونولوج السردى التى قامت بين حاكمى مصر بعد تحولها إلى النظام الجمهورى وهما جمال عبد الناصر وأنور السادات خاصة اللغة التى يدين بها كل منهما الآخر وهى بلا شك رؤية محفوظ لكل من العهدين وقد أراد أن يقدمها فى نوع من الكلام شبه المباشر أو السرد الاستبدالى الذى اطلق عليه جيرالد برنس فى قاموس السرديات[٢] مصطلح Substitutionary Narration. وهو ما تم فى نص أمام العرش بين عبد الناصر والسادات (سأله جمال عبد الناصر: كيف هان عليك أن تقف من ذكراى هذا الموقف الغادر. فقال السادات: اتخذت ذلك الموقف مضطراً إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك. فقال ناصر: ولكنى عهدتك راضياً ومشجعا وصديقاً. فقال السادات: من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب اسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه (يقصد أفعال مراكز القوى فى زمن عبد الناصر) فقال ناصر: وما النصر الذى احرزته إلا ثمرة استعدادى الطويل له! فقال السادات: ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصاراً، ولكنى أرجعت للشعب حريته وكرامته فقال ناصر: ثم تنازلت عن كل شئ فى سبيل سلام مُهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة واندلقت فى الانفتاح حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد ويقدر ما كان عهدى أماناً للفقراء كان عهدك أماناً للأغنياء واللصوص. ولأن محفوظ كما سبق (وفدى الهوى) فقد لخص مزيداً من نقده لعصر السادات فى مقولة على لسان مصطفى النحّاس (الذى حاول السادات اغتياله فى يوم ما) فقال النحاس: اشتدت الضائقة بالناس وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالى، ثم انفجرت بغتة فألقيت بالجميع فى السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة؟!





وإذا كان محفوظ فى نص أمام العرش قد جعل من حوار رجال مصر ذريعة لمحاكمة تاريخ تلك البلد، ومنهم بالطبع أنور السادات لأنه جزء من تاريخ هذا الوطن، فقد كانت رواية «يوم قتل الزعيم» محاولة لتقطير رأى المواطن العادى فى حكم السادات وما وقع عليه من جراء هذا الحكم.

ثلاثة أجيال مروى عنهم فى النص هم الجد محتشمى زايد والابن فواز محتشمى، والحفيد علوان فواز محتشمى زايد تظهر الحياة المصرية برخاء ما قبل السادات ثم فساد ما بعد السادات. وعلى الرغم من أن الجد من مخلفات زمان سابق إلا أن الراوى يجعل منه أيقونة دالة قادرة على فرز الفروق بين عصرين، خاصة أنه يجلس فى المنزل فى مرحلة ركود ما بعد المعاش ومنذ الصفحة الأولى يصف الجد حال حياته وسط أسرة الابن قائلاً: «ما أكثر نعم الله فى دنياه اللهم جنبنى المرض والعجز لا أحد ثمة للعناية بالآخرين ولا فائض مال للتمريض الويل لمن يسقط يجمعنا فى الصباح المدمس وحده أو الطعمية، هما معاً أهم من قنال السويس، سقياً لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى ذلك عهد بائد أو (ق.ا) أى قبل الانفتاح، الأسعار جنت كل شىء قد جن».

هنا تبدو دلالة مساوئ الانفتاح

عندما نقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الإجرامية مثل «سعيد مهران» فى رواية «اللص والكلاب» لا نملك إلا أن نشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصية الإجرامية



الاقتصادى جلية عبر المروى. وهذا ما يتأكد على لسان حفيده علوان -ويظهر بالطبع تأثر الجيلين فى تلك المرحلة على الرغم من الفارق الزمنى بينهما- إذ يقول: صباح يوم جديد.. جديد قديم. قديم جديد. دوخينى يا ليمونة، إن لم يوجد قديم حسن فليوجد جديد سيء... منذ الصغر منذ الشباب ونحن فى البيت القديم الضائع بين العمائر الشاهقة دسيسة بين الأغنياء. صباح الخير أيها المكدسون فى الباصات، وجوهكم تطل من وراء الزجاج المشروخ مثل المساجين فى يوم الزيارة، والسائرون على عجل يلتهمون سندوتشات الفول بنَهَم وبلا تذوق.

تتضح عبر اللغة التحسُرية للشاب درجة تردى الواقع الاجتماعى من جانب وتشرذمه من جانب آخر، وقد اعتمد محفوظ على ما يعرف بـ«المحور الدلالى» أوtopic كما يعرف فى اللاتينية بـtopos بمعنى المحور الموضوعى اللازم للكشف عن جميع الدلالات المتعلقة بالسرد والذى ثبت معناه لدى امبرتو ايكو بمعنى تمكن القارئ من الخروج بتفسير متسق مع النص. فإذا كان محفوظ يلمس على واقع اجتماعى أليم يراه الجد بعين متعالية تحمل خبرة السنوات وهو قار فى المنزل، فإن الحفيد الملتصق بهذا الواقع يرصده بكل تفاصيله العينية الأكثر ألماً.

وإذا تساءلنا عن جيل الوسط الذى يمثله الابن (فواز محتشمى ولننظر إلى السخرية الواضحة فى الاسم حيث فواز هو صيغة المبالغة من فائز أو من الفعل الثلاثى فوز وهو كثير الفوز على حين أنه فى النص ذلك المواطن العادى المطحون بين عملين كى يحقق للأسرة حد الكفاف) نجد أن دوره فى النص لا يعدو ثانوياً مفعولاً به فى السرد، حيث يأتى الكلام عنه على لسان الابن قائلاً: فقدت أبوى بعد أن فقدا نفسيهما فى عمل يتواصل من الصباح حتى المساء موزعين بين الحكومة والقطاع الخاص فى سبيل اللقمة والضرورة لا نلتقى إلا خطفاً.

هذا إلى جانب معاناة الحفيد من عدم اتمام الزواج بمن اختارها قلبه وتعانى من نفس المرض الذى يعانى منه وهو داء الفقر فيقول الحفيد: «أعلنت الخطبة فى عهد عبد الناصر وواجهنا الحقيقة فى عصر الانفتاح». بل إن حبيبته راندا سليمان مبارك -التى يدفعها أهلها دفعاً إلى ترك علوان وبيع نفسها إلى مديرها الثرى- لا تكف عن السخرية من الشعارات المسموعة من النظام فى الدولة فتصف حبيبها علوان بأنه فى ثورة غضبه «يسب الدين ربما استغفر الله إرضاءً لى كشعار ليس إلا كسائر الشعارات الجوفاء التى تنهال علينا من أفواه المسئولين، زمن شعارات مقزز حتى الراحل البطل لم يكف عن ترديد الشعارات». وفى مقولة أخرى لها ترثى لحال حبيبها علوان «ماذا يفعل المسكين علوان؟.. محرومون وسط سيرك من اللصوص فى زمان رمى ببهلوان يطلق فى العطسة عشر شعارات عقيمة. فيرد علوان فى جزء السرد الخاص به وكأن بينه وبين راندا مونولوج لكن لكل منهما كلامه على حدة يقول: احنا الشعب اخترناك من قلب الشعب والحب كان باقة من الورد فى قرطاس من الأمل، فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول - كناية عن عبد الناصر- ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر، نصر مقابل هزيمتين». وهكذا جعل نجيب محفوظ من رواية يوم قتل الزعيم وثيقة لإدانة عصر حكم انور السادات فى لغة متقشفة جافة لا تحمل سوى مرارة كل راو من الشخصيات عن نفسه التى لا يجدها فى زمن الطبقية وتوحش الثروات وقهر الشعب بالجوع.

شعب يوليو

صدرت رواية نادين جورديمر «شعب يوليو» عام ١٩٨١ وربما كانت حقبة الثمانينيات هى أول الجوامع بينها وبين رواية محفوظ «يوم قتل الزعيم» لكن قبل تفاصيل ذلك ينبغى إلقاء الضوء على نصوص نادين جورديمر التى يربطها جميعاً خيط واحد فى تصوير القهر الإنسانى فى المجتمع نظراً للمساوئ السياسية، وهو الأمر نفسه الذى طالما عبرت عنه روايات نجيب محفوظ.

فى رواية نادين جورديمر الأولى «الأيام الكاذبة» ١٩٥٣ تتحدث عن فتاة تكبر فى مدينة صغيرة بجنوب إفريقيا، لا تعرف شيئاً مما يدور حولها، وتدريجياً تصطدم بحقائق عن العالم المحيط بها الذى كانت غافلة عنها، وتتكشف لها أكاذيب وشرور نظام الحكم القائم على التمييز العنصرى، ويتسع مجال الرؤية أمام جوردير فى روايتها التالية «عالم الغرباء» ١٩٥٨ لتكشف عن القطيعة الكبيرة بين السود أصحاب الأرض الأصليين فى جنوب إفريقيا وبين الأقلية البيضاء الحاكمة، وعن زيف الليبراليين البيض.

ومع صدور قوانين الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا التى كرست للقطيعة والانقسام والكراهية بين البيض والسود فى الستينيات، ومن خلال النقاش والجدل مع الكُتّاب السود الذين اكتسبت صداقتهم، ازداد وعى «نادين جورديمر» بعمق المأساة التى يعانى منها سود جنوب إفريقيا، وارتفع صوتها بالتنديد بالممارسات العنصرية، وبالدفاع عن النخبة السوداء الذى أصبح مصيرها المنفى أو السجن أو الموت.



ثم تتابعت روايات نادين جورديمر مُعبرة عن عمق الصراع العنصرى المُجسد لطبيعة الروح الإنسانية، وعن خيانة النظام السياسى لقيم الحرية والعدالة والسلام. ومع انتفاضة سويتو فى عام ١٩٧٦، اتجهت نادين جورديمر فى كتاباتها اتجاهاً آخر يتسم بالعداء الصريح للعنصرية فى جنوب إفريقيا مؤكدة فى روايتها «شعب يوليو» ١٩٨١[٣] على الدور الذى يمكن أن يقوم به البيض فى جنوب إفريقيا من أجل الإصلاح السياسى. وعن السود ضحايا دولة العنف فى جنوب إفريقيا الذين أخرجوا من ديارهم واقتيدوا إلى أقسام الشرطة وضُربوا، وأُلقى بهم خلف جدران السجن، وعن انعدام الفهم والكراهية والقسوة وافتقاد الحب فى مجتمع منقسم على نفسه يفرز قوانين التميز العنصرى.

فى رواية «شعب يوليو» التى صدرت قبل عشر سنوات من حصول صاحبتها على جائزة نوبل، وبعد خمس سنوات من الانتفاضة التى شهدتها شوارع وأزقة مدينة «سويتو» وامتدت حتى شملت كل مدن جنوب إفريقيا، تروى نادين جورديمر فى رواية «شعب يوليو» قصة عائلة سميلز البيضاء التى لم تجد الملجأ والحماية إلا فى الهروب بمساعدة خادمهم الأسود «يوليو» الى بيته بإحدى القرى المنعزلة التى يسكنها السود الفقراء. وهو ما يقرره الراوى قائلاً: «بدأت الأحداث عادية مبتذلة تبعث على التشاؤم. جاءت اضطرابات عام ١٩٨٠ فى بطء وتثاقل.. إضراب يلى إضراباً الى أن أصبحت الإضرابات والانفجارات وإطلاق الرصاص من مفردات الحياة اليومية، وبينما كانت الحكومة فى محاولات مستمرة لتقديم تنازلات لاتحاد العمال السود على شكل كلمات متقنة الصنع، تخفى بداخلها قيوداً جديدة، كان العمال السود يكابدون الجوع والغضب والبطالة.. والمتاجر والمصانع تشعل فيها النيران».

ولمزيد من إضفاء وجود الواقعية فى النص نجد الكاتبة تذكر أحداثاً حقيقية تضمنها النص كى تؤكد أن ما يحدث (الصراع الأسود ضد البيض) ما هو إلا نتاج طبيعى لأحداث سياسية اجتماعية متتالية يقول الراوى: «وللمرة المائة منذ حرائق الخمسينيات ومنذ «شاربفيل» و«سويتو» ١٩٧٦، ونهر «السى» ١٩٨٠، يبدو الأمر وكأن كل هذه الاضطرابات ليست إلا محاولات للتنفيس عن الغضب».

وعبر ثنايا النص تتراوح لغة القص بين وصفية تعنى بسرد التفاصيل، وتعبيرية تصويرية مشحونة بالرمز والسخرية، فتظهر جورديمر وقد جردت الرجل الأبيض من سلطته الاقتصادية وأحالتها الى الرجل الأسود مرة بعد أخرى. بعد المرة المائة. السود ينتصرون، الزجاج المُهشم يتم إزالته من أمام المبانى العامة والمحال التجارية، إصلاح الخطوط التليفونية، تأكيدات الراديو والتلفزيون أنه تم إحكام السيطرة على الموقف..» «بام» و«مورين» أدركا أنه من الحماقة ترك أموالهما المسحوبة من البنك فى المنزل وكانا على وشك إيداعها فى البنك».

وبام ومورين هما عضوا الأسرة البيضاء التى لا تجد ملاذا وسط ثورة السود على البيض إلا اللجوء الى منزل خادمهما الأسود «يوليو» الذى تتكفل لغة السرد بوصف الواقع الذى يعيش فيه والذى يمثل لبام ومورين صدمة كبرى عند الالتحاق بالحياة فيه، نظراً للفروق الحضارية الكبيرة بين حياة يوليو الخادم الأسود الفقير وحياة «بام ومورين» سادته البيض. وقد وصف الراوى ذلك فى لغة معبرة عن تلك الفروق الحضارية والطبقية كذلك: يوليو الخادم الذى يعيش فى فناء المنزل منذ زواجهما، ويحصل منهما على راتب جيد، وله كسوتان واحدة لأعمال المنزل، والأخرى بيضاء يرتديها عند تقديم وجبات الطعام، هذا الخادم الذى تحول الى ذلك الشخص الذى اختير لأن يضعوا أرواحهم بين يديه، هو الأسود المنقذ «يوليو». ولمزيد من التفاصيل التى تكشف الواقع الأدنى الذى انتقل اليه «بام»



و«مورين» تقدم لغة السرد الواقع المعيش الذى انتقلا اليه وسط بيوت السود: يقول الراوى: «موطن «يوليو» لم يكن قرية، بل هو تجمع سكنى من بيوت طينية يقطنها أعداد من عائلته ممتدة الفروع، من المُسلَّم به أن ما أقدم عليه «يوليو» مُخاطرة، إذا استطاع أن يضمن قبول عائلته لذلك التواجد الغريب لعائلة بيضاء بينهم، وأن يحملهم على التزام الصمت، فهو لا يمكنه أن يمنع الآخرين الذين يعيشون فى الجوار من اكتشاف عربة لرجل أبيض، ونقل تلك المعلومة الى قوات الدورية السوداء.. هذا إذا لم يقوموا أنفسهم باتخاذ اللازم».

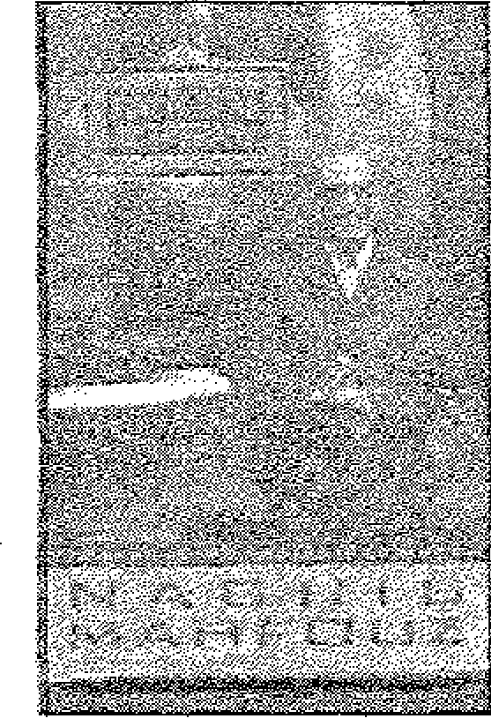
ومن الفروق الحضارية بين حياة البيض التى كانت وحياة السود الآنية التى ينتقلون إليها، إلى رفض السود إقامة البيض بينهما لما تحمله حياتهما معا (البيض والسود) من إرث طويل من المرارة؛ إذ كيف يسامح المجنى عليه (السود) الجانى (البيض) بل ويجعل له مأوى، تظهر معارضة أم «يوليو» لوجود «بام» و«مورين» وسطهما وكأن هذا الوجود عار على القرية السوداء، تقول الأم:

- البيض هنا؟! كيف ألم تخبرنا كيف يعيشون هناك.. البيض لهم البيض أمثالهم فى مكان ما، أليسوا يعيشون فى كل مكان من هذا العالم؟ «جير مسستون» و«كيب تاون» أنت عشت فى أماكن كثيرة يا بنى، ألا يستطيعون أن يذهبوا الى أى مكان يريدون؟.

- الاضطرابات فى كل مكان، إنهم يطردون البيض من منازلهم، والبيض يخوضون المعركة معهم ويحدث الشىء نفسه فى كل المدن، أين يمكنه الفرار بعائلته؟ أصدقاؤه أيضاً يفرون. إذا هو أراد أن يذهب إلى صديق فى المدينة فلن يجد الصديق هناك. وربما عند وصوله الى هناك يلقى مصرعه.

وعبر الكثير من المواقف- المتضارية بالفعل نتيجة صدام الأسود صاحب المكان بالأبيض المُنبت فى المكان تحدث الكثير من المفارقات التى تؤدى فى النهاية الى التأكيد على ان الحياة بينهما (البيض والسود) طالما كانت قائمة فلابد ان تكون على التعايش بينهما. فكأن نادين جورديمر كانت ترى ببصيرتها وقت كتابة رواية «شعب يوليو» ما سوف تسفر عنه السنوات من متغيرات تجبر حكومة جنوب إفريقيا على السير فى بدايات الطريق الى الإصلاح السياسى.

وإذا كانت الدراسات المقارنة تعتمد أساساً على دراسة وتحليل العلاقات وأوجه التشابه والاختلاف والعوامل التشكيلية لآداب الأمم والشعوب المختلفة[4]، فإن نصوص كل من نجيب محفوظ ونادين جورديمر تعد سجلاً حياً للمجتمع المصرى عند الأول ومجتمع الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا عند الثانية. فتكتب نادين جورديمر خبرات حياتها اليومية الممتلئة بالأحزان فى أعمال روائية غنية بالتفاصيل الدلالية، والصور المضيئة: باحثة عن إجابة تنير لها طريقها على أرض الكراهية التى لا تنمو فيها غير أشجار السموم، فلا تملك إلا أن تقبض بنفسها على جمر الإيمان والثقة بالشباب الأسود المتعلم الواعى، وببعض





الليبراليين البيض الذين لم يخونوا ما عاهدوا الناس عليه من انحياز لقيم السلام والحرية والعدل.

تكشف كتابات نادين جورديمر الروائية عن الانكسار الذى أصاب روح الرجال السود تحت وطأة التمييز العنصرى، مؤكدة ذلك فى رواياتها «ابنة برجر» ١٩٧٩، وعن الدمار الذى يلحق بالعلاقات بين البشر فى حياة يومية تتغذى على البغضاء و العنف مثل رواية «رياضة الطبيعة» ١٩٨٩، ضمن وصف سياق من العلاقات المتهرئة والشخصيات التى يتجاذبها وضع قائم لا طاقة لها على احتماله، ولا قدرة لديها على تغييره، وأحداث تُكرّس للقطيعة بين أفراد المجتمع الواحد، وتفاصيل تقطع بفقدان الأمل فى الوطن الذى لم يعد لأبنائه أية حقوق فيه.

أما نجيب محفوظ، فقد استطاع أن يسبر غور المشاعر الإنسانية المتلاطمة مع واقعها، ويعبر عنها على لسان شخصياته فى رواياته وقصصه، فإذا هو يهدى إلينا، ويهدى الإنسانية جمعاء، أجمل هدية، هى الكشف وإضاءة جوانب الذات المظلمة، هدية معرفة النفس، ومعرفة الآخر، ومعرفة الوجود، والسعى الدائم لمعرفة خالق هذا الوجود. وقد فعل ذلك ليس بأسلوب الوعظ المباشر المعنِّف الذى لا يلمس قلب الإنسان وبالتالى لا يؤثر ولا يجدى كمعظم الخطب المباشرة المعنفة المقرعة بلا جدوى.. وانما فعله بأسلوب الطبيب الجراح الذى يبحث عن اصل الداء، ويضع يده على الجزء المريض المتعب من الجسد.. لكى يمكننا بعد هذا أن نُقدم العلاج، أو الراحة المسكنة. كما فعله بأسلوب المحب لكل الناس.

فعندما نقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الإجرامية مثل «سعيد مهران» فى رواية «اللص والكلاب» لا نملك إلا أن نشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصية الإجرامية. ونلمس فيما يكتبه نجيب محفوظ أن طاقته على محبة الجميع تشمل حتى المجرمين الذين يصورهم ببراعة وإنسانية بالغة فى رواياته.

ولنجيب محفوظ كلمات أخرى بها نقد عظيم للشخصية المصرية وللمصريين - على قدر حبه العظيم الواضح لهم - نقرأها على لسان شخصياته الروائية. ومنها: «كان كالثور المصرى عظيم الخوار عديم الأذى». كما تمنحه الروايات فرصة استخدام كلمات قد لا تكون لائقة لا يقولها هو ولكن تقولها شخصياته الروائية بشكل معبر قوى.. فنقرأ فى «السكرية»: الحق إن الاستبداد هو مرضهم (المصريين) المتوطن.. كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصى المختار وأن الشعب قاصر.. نحن شعب قليل الأدب!.. لا أعرف شعباً كالشعب المصرى ولعناً بالخوض فى أعراض الأمهات!.. إن الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك..

أما فى «ميرامار» فيصرخ «عامر وجدى» فى غضب: «أيها الأنذال، أيها اللوطيون، ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟».. ويقول عامر وجدى ايضا فى نفس الرواية: «لقد سلبت (الثورة) البعض اموالهم وسلبت الجميع حرياتهم». أما حسنى علام، شخصية أخرى من شخصيات ميرامار فيخاطب المصريين قائلا: «إنى أتبرأ منكم!.. أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية»!

وفى «المرايا» نقرأ على لسان شخصية «عبدالرحمن شعبان» هذه السخرية اللاذعة: «هكذا أنتم أيها المصريون، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا.. لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً! ولم لا تتمنى أن تكون حماراً فيكون لك نفع على الأقل؟!.. وفى موضع آخر من «المرايا» ايضا يقول عبدالرحمن شعبان: «اتعرف ما هى اكبر نعمة أغدقت علينا؟ هى الاستعمار الأوروبى، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبى».

مما سبق فى ضوء كتابات نادين جورديمر ونجيب محفوظ نتأكد من كل نقدهما اللاذع عبر الكتابة، أن الذين يحملون للوطن حباً حقيقياً هم الذين ينتقدونه اشد النقد ويسعون الى تغييره عبر الكتابة. ■

هـــوامـــش:

(١) اقتطفنا لك المقاطع من مجموعة من الدوريات التى نشرت اللقاء التاريخى بين الكاتبين (نادين جورديمر ونجيب محفوظ) من الدوريات التى سجلت ذلك اللقاء منها مجلة نصف الدنيا - جريدة أخبار الادب- جريدة الأهرام ويكلى.

(٢) للقاموس ترجمتان الأولى صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة-المشروع القومى للترجمة رقم ٣٦٨، تحت عنوان «المصطلح السردى» بترجمة لعابد الجابرى. والثانية عن دار ميرت تحت عنوان «قاموس السرديات» ترجمة: السيد إمام.

(٣) الدار المصرية اللبنانية - ترجمة: أحمد هريدى.

(٤) راجع دليل الناقد الأدبى لميجان الرويلى وسعد البازعى- المركز الثقافى العربى-بيروت- ط٢-س٢٠٠٠-ص٢٢. راجع كذلك معجم المصطلحات الأدبية لإبراهيم فتحى- دار شرقيات- ط١-س٢٠٠٠-ص٢٠.



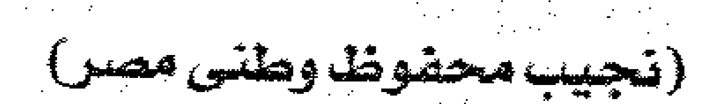
Naguib Mahfouz: The Pursuit of Meaning

(نجيب محفوظ: البحث عن معنى)

Rashid El-Enany

Routledge, $40.95, 288PP., 1993

يقدم هذا الكتاب تاريخ نجيب محفوظ الأدبي للقارئ الغربي كتجسيد مثالي لتطور الرواية العربية. ويقوم الكاتب رشيد العناني بتحليل العديد من العوامل المتعلقة بحياة وأدب نجيب محفوظ لرسم صورة أكثر وضوحا للمؤثرات التي صاحبت طور أعماله. من ضمن تلك المؤثرات أمور تتعلق ببيئته المحلية وبالتأثيرات الأجنبية عليه. كما يحلل العناني تطور أفكار نجيب محفوظ وأدواته ككاتب. ويتناول العناني بعض أعمال نجيب محفوظ بشكل منفرد ولكنه يركز أيضا على استمرارية بعض المواضيع وبعض الجماليات الأدبية عبر عدة أعمال.

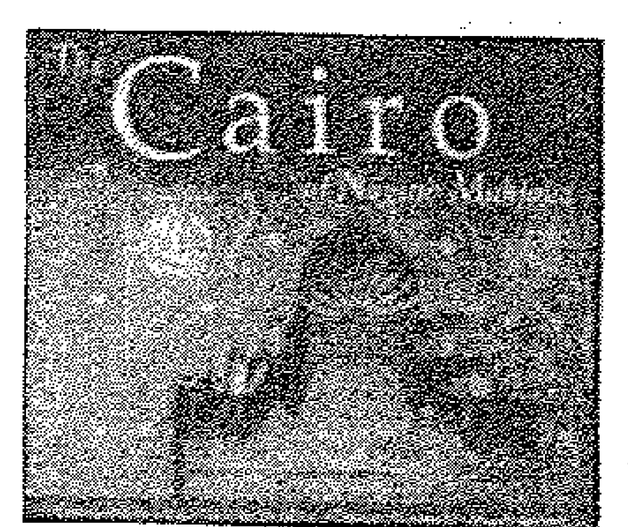


(نجيب محفوظ وطني مصر)

محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٠٤ صفحات

النسخة العربية من الكتاب الذي صدر باللغة الفرنسية في باريس عن دار «لاتيس»، والذي ترجم بعد ذلك إلى العديد من اللغات الأخرى. الكتاب هو عبارة عن سلسلة من حوارات متصلة أجراها الكاتب محمد سلماوي مع الأديب الراحل نجيب محفوظ استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة تحدث فيها محفوظ عن مصر التي يعرفها، عن الجمالية التي ولد فيه والعباسية التي انتقل إليها، وعن الحواري والأزقة التي كانت أبطالا لرواياته، وعن القيم والمبادئ التي تميز الشعب المصري والتي طالما دعا إليها محفوظ في رواياته. سلماوي كان من أقرب المقربين إلى الراحل الكبير، مما ساعده على إخراج ما بداخل محفوظ في سلاسة شديدة، ليصور مصر التي عرفها محفوظ والمجتمع المصري وتحولاته لما يقرب من قرن من الزمان. الكتاب هو النص الأصلي للحوار الذي دار باللغة العربية وليس مترجما عن الكتاب الأصلي الذي جاء بالفرنسية.



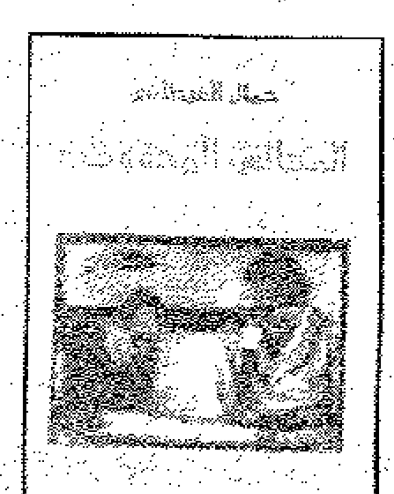
The Cairo of Naguib Mahfouz

(قاهرة نجيب محفوظ)

Gamal El Ghitani; Britta Le Va (photos)

AUC Press, $19.95, 82p., 2000

يعتمد هذا الكتاب بشكل أساسي على صور التقطتها المصورة المحترفة بيرتا ليه فا لأحياء وتفاصيل من القاهرة القديمة لتمثل المدينة كما وردت في كتابات نجيب محفوظ. تحمل المصورة إعجابا كبيرا بكتابات محفوظ يسبق البدء في مشروع الكتاب. قدم لهذا الكتاب الكاتب المصري جمال الغيطاني بمقال طويل يعيد فيه، سرد تفاصيل نزهة مطولة قام بها مع محفوظ في شوارع الجمالية. والغيطاني ليس فقط من أقرب الكتاب لنجيب محفوظ على المستوى الشخصي والأدبي ولكنه يشترك معه أيضا في الانتماء إلى حي الجمالية الذي كان مسرح أهم أعمال نجيب محفوظ. لذا كان من السهل جدا على الغيطاني أن يختار مقاطع من كتابات محفوظ لتمثل افضل تعليق على الصور.



(المجالس المحفوظية)

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٢٠ صفحة.

جمال الغيطاني، تلميذ نجيب محفوظ، يعتبر وفاته «خسارة كبيرة له شخصيا» على حسب تعبيره في كتابه المجالس المحفوظية، وهو الكتاب الذي يجمع فيه الغيطاني ملخصات لأحداث جلسات كان يحضرها مع أستاذه نجيب محفوظ. يقول الغيطاني في تقديمه للكتاب، «خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت انتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتي إلى البيت أن أدون ما قيل، إما بنصه كما أتذكره أو خلاصته في (المجالس المحفوظية)».

الكتاب يأتي في ثلاثة أجزاء، سجل فيها أربعة وأربعين عاما رافق فيها الغيطاني نجيب محفوظ؛ الأول يدون فيه الغيطاني المحاورات التي دارت بينه وبين محفوظ وبعض من رفاقهم خلال مجالسهم التي امتدت من الستينيات من القرن الماضي حتى عام ٢٠٠٤، أما الجزء الثاني، فيدون فيه الغيطاني نص المجالس التي دارت بينه وبين أستاذه كل يوم اثنين على امتداد أربعة شهور صيفية عام١٩٧٨ بمقهى الفيشاوي، وفي الجزء الثالث يسرد الغيطاني العديد من المجالس المتنوعة ونصوصا تتابع محفوظ في القاهرة القديمة.

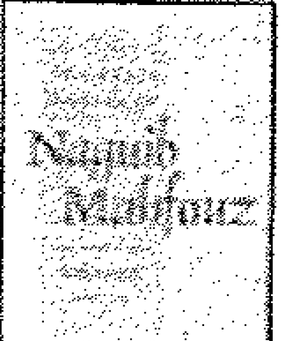
Naguib Mahfouzs Egypt

(مصر نجيب محفوظ)

Haim Gordon

Greenwood Press, $85.95, 152PP., 1990

مع أن المتفق عليه أن مهارة نجيب محفوظ الأساسية تكمن في قدرته المذهلة على الحكي، إلا أنه يعطي القارئ متعة اضافية بتنوع شخصياته وعمق تحليله لها. لهذا فإننا نقف في كتاباته كثيرا عند الأزمات والتساؤلات الوجودية لأبطاله. بل إن من أهم كتب نجيب محفوظ، المرايا، التي هي عبارة عن بورتريهات منفصلة لشخصيات يرى البعض لها صدى في الواقع بين من أثروا في حياة نجيب محفوظ ولكنها في آخر الامر نتاج قدرة محفوظ على إضافة خياله وابتكاراته على شخصيات قصصه ورواياته. هذا الكتاب نتاج لعدة حوارات اجراها الكاتب حاييم جوردن الأستاذ بجامعة بن جوريون مع نجيب محفوظ الوجودية كما تجلت في شخصيات ومواضيع وأحداث روايته. إلا أن النتيجة الإجمالية لهذا العمل هي نظرة متعمقة للحياة في القاهرة كما يراها محفوظ.



Early Novels of Naguib Mahfouz

(الروايات الأولى لنجيب محفوظ)

Matti Moussa

University Press of Florida, 304PP, 1994

قدمت ماتي موسى، نجيب محفوظ للقارئ الغربي بعد حصوله على جائزة نوبل بفترة قصيرة. ولم يكن نجيب محفوظ معروفا في الغرب قبل نوبل إلا في نطاق المتخصصين في الأدب. وفي بداية معرفة القارئ الغربي بأعمال محفوظ كان من المهم بالإضافة إلى ترجمة الأعمال نفسها أن يطلع القارئ الغربي على عالم محفوظ المتكامل. وقد أضاف كون نجيب محفوظ أول عربي يحصل على جائزة نوبل أهمية مضاعفة لدى القارئ الغربي للاطلاع على كتابات تبحث في عالمه بما انه عالم جديد نسبيا على هذا النوع من القراء. وبحثت موسى في تناول محفوظ للدين والأمور الاجتماعية والسياسية على خلفية القرن العشرين بدءا من أعماله الأولى وحتى «أولاد حارتنا».

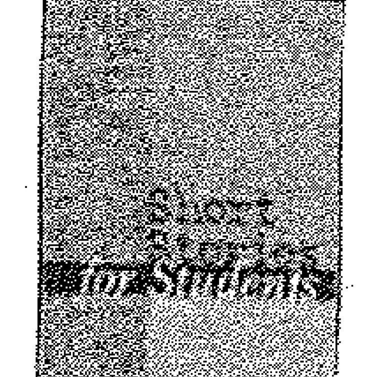
(في حب نجيب محفوظ)

رجاء النقاش

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٥٢ صفحة.

الطبعة الثانية من كتاب رجاء النقاش (في حب نجيب محفوظ) التي أضاف النقاش إليها ستة فصول جديدة تتناول قضايا لم تتناول من قبل في الطبعة الأولى.

الكتاب الذي يعتبر دراسة في أدب نجيب محفوظ، نجح في أن يكون سيرة لحياته أيضا، نظرا للعلاقة التي جمعت بين النقاش ومحفوظ منذ عام ١٩٥١ وحتى وفاة محفوظ، وفصول الكتاب تعتبر رحلة طويلة مع نجيب محفوظ فنانا وإنسانا، وتقوم كلها على أساس من الحب الذي يسعى إلى الفهم على حسب تعبير النقاش. الكتاب يأتي في أربعة أقسام، الأول «من الجمالية إلى نوبل» ويتناول حصول محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨، وأصداء هذا الحدث، ويتناول الجزء الثاني «الفن والإنسان في أدب نجيب محفوظ» قراءة أدبية في عدد من روايات محفوظ، أما الجزء الثالث «قضايا ومواقف» فيتناول النقد الذي تعرض له محفوظ، والقضايا الذي أثيرت حوله أو كان طرفا فيها، أما الرابع «متفرقات» فهو يضم مجموعة من المتفرقات التي كتبها النقاش حول محفوظ.



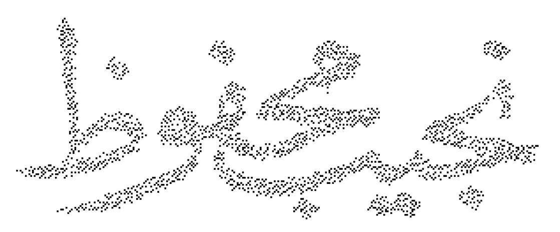
Naguib Mahfouz's "Half a Day": A Study Guide from Gales "Short Stories for Students"

(مرشد دراسي لقصة نجيب محفوظ «نصف نهار»: من سلسلة «قصص قصيرة للطلبة» من جايل)

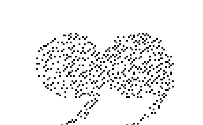
Gale Group, $3.95, 25P., 2002

لم يثر نجيب محفوظ فضول واهتمام وإعجاب القراء فقط ولكن الجامعات رأت في أعماله مادة تستحق الدراسة الأكاديمية. لذا صدرت عدة كتب متخصصة من دور النشر التابعة للجامعات عن محفوظ. وقد صدرت في هذا السياق عدة كتب جامعية موجهة للطلاب تناقش أعمالا منفردة من أعمال محفوظ، ضمن سلاسل تعنى بأعمال منفردة لكتاب مختلفين، لكي تساعد الطلاب في فهم العمل والكتابة الأكاديمية عنه.









هذا هو آخر مقال نشر باسم أديبنا الراحل نجيب محفوظ فى الصحافة الأجنبية، وقد نشر فى مجلة «الفيجارو» الفرنسية بتاريخ ١٢ أغسطس الماضى حينما كان محفوظ مازال فى المستشفى، وقد أشارت المجلة فى تقديمها إلى أن المقال كتبه الأديب المصرى الكبير بمعاونة الكاتب محمد سلماوى صديقه المقرب على مدى سنوات.

نجيب محفوظ

LE FIGARO
MAGAZINE

المقال الأخير

رحابة حلم

إن عملية الكتابة ليست بريئة تماماً، فهى تسمح أحيانًا للأفراد الذين يأتون لمقابلتى، والذين لم يقرأوا كتاباتى بتمعن، بالتطرق للحديث فى أمور شخصية بدلاً من أن ينصب النقاش حول الأحداث الجارية، لقد تسنى لى مقابلة صحفى فرنسى انصب اهتمامه على إحدى قصصى القصيرة التى تحمل عنوان «الرجل» والتى كنت أصور فيها صحفيًا يكتب مقالاً حول رجل من الجيل القديم، أليست تلك مصادفة غريبة؟

كان الصحفى فى هذه القصة القصيرة يقوم بوصف أحد جيرانه الذى كان يراقبه عن بعد وهو يتنزه على طريق الحرية. وكان هذا الشخص الذى تقلد مناصب مهمة خلال مشوار حياته كمهندس ناجح ومسئول حكومى رفيع يعيش حالة وحدة مميتة بعد أن فقد زوجته وبعد هجرة أولاده للولايات المتحدة.

وهنا يتساءل الصحفى: «طوال عمره المديد لم يتبق له سوى الذكريات؟ ترى فيمن يفكر فى وحدته هذه؟ وكيف يقوم بالترفيه عن نفسه؟ كيف يتسنى للمرء أن يتآلف مع شيخوخته بدلاً من أن تكون عائقًا له؟ حين قرأ الرجل هذه السطور تعرف على نفسه على الفور. وكان مندهشًا لأنه أختير كموضوع باعث على التفكير والتأمل وإن كان قد أحس ببعض الضيق. ذلك لأن هذا المؤرخ وليد اللحظة قد أخطأ. إذ إن تقدمه فى السن لم يكن عائقًا له على الأحلام ولم يكن حاله مثيراً للشفقة: فقد كانت حياته دوماً مبعثًا للشجاعة والإصرار. تلك الصفات التى علمه إياها والده . رحمة الله عليه . الذى كان معلماً عظيماً وكان حبه للقوة يصل لدرجة العبادة.

وكانت قوة ملاحظة والده وشدته المغلفة بالحكمة قد جعلت منه رجلاً فى صلابة الحديد، عندما تأمل الضعف الذى يفترضه الآخرون فيه قال: «يا لها من تخيلات كتّاب!».

وفى اليوم التالى عند مقابلته لكاتب المقال أثناء نزهته المعتادة ذهب لمصافحته، شكره ودعاه فى بيته لكى يشرح له حقيقة الموقف، اندهش الصحفى قائلاً: «أصحيح هذا؟».

ثم تتناول القصة القصيرة «الرجل» الحوار الذى دار بين الرجلين، والذى انصب على الرغبة فى الحياة وفى التغلب على كل الصعاب.

وبعد سنوات عديدة من نشر هذا النص، طرح على صحفى فرنسى سؤال: «كيف نصنع من شيخوختنا نعمة وليس نقمة؟».

سوف تكون إجابتى هنا، وفى هذا الوقت مختلفة عن إجابة بطلى المنتصر، فليس معنى أن نكتب شيئاً أننا بالضرورة نؤمن به حتى تكون الشيخوخة نعمة، يجب أن نعلم قيودها، وأن نعيش فى قلب هذه القيود دون أن نحاول أن نتخطاها من فوقها أو من تحتها، يجب على كل منا، أن يكون مدركًا لحدوده.



فى شقتى الصغيرة بشارع النيل بالقاهرة، أعيش أحلامى، فالضعف الذى أصاب جسدى، لم يؤثر قط على روحى وخيالى، بالعكس فقد سمح بظهور نوع آخر من الحرية لدى كل شىء تغير منذ ذلك اليوم فى أكتوبر ١٩٩٤، حين حاول اثنان من المنتمين إلى الجماعة الإسلامية اغتيالى.. كنت خارجًا من البيت حينما هاجمنى أحدهما من الخلف، أحسست بأن وحشاً يغرز أظافره فى رقبتى. والحقيقة أنه كان يغرز السكين مرتين، وقد هربت من الموت بعد سبع ساعات قضيتها فى غرفة العمليات ثم استمرت إقامتى فى المستشفى لعدة أسابيع، ولكن إصابة أحد الأعصاب تسببت فى شل يدى اليمنى، اليد التى أكتب بها، وتطلب الأمر ثمانية عشر شهراً من إعادة التأهيل، لكى أستطيع أن أكتب مرة أخرى حروفًا مقروءة. لقد تعلمت من جديد كيف أكتب اسمى، يا له من رمز! الرجلان اللذان هاجمانى كانا ينفذان فتوى تبيح دمى بسبب إعادة إصدار إحدى رواياتى التى كانت صدرت لأول مرة عام ١٩٥٩، وهى رواية «أولاد حارتنا». عند صدورها لأول مرة كان علماء الدين قد اتهموها بنشر أفكار ملحدة. وكان يمكن من خلال أحداث الرواية استشفاف شخصيات الأنبياء موسى وعيسى ومحمد، وهو ذنب لا يغتفر فى عيون المتشددين الإسلاميين، والشىء المفجع أنه خلال محاكمة الجانيين، اتضح أنهما لم يقرأ الرواية. يا لهما من إرهابيين بائسين يرفضان فكر الآخرين فى حين أن الإسلام دين الحرية.

بعد إعدامهما، ظللت أشعر طويلاً بمزيج من الحزن والغضب.. كنت أفكر فى الحياة التى كان من الممكن أن يعيشاها. لقد كانا شابين صغيرين، ثم كنت أفكر فى إعاقتى، لأن هذه الحادثة، بخلاف الشلل الذى أعانيه، كانت قد أدت إلى تدهور فى حالتى العامة، فقد أدت إلى صمم وشبه عمى، كيف يمكن أن تصبح الشيخوخة نعمة؟ لقد غفرت لهما هنا فى هذه الحياة الدنيوية.

أنا، الذى كتبت أكثر من خمسين رواية ومجموعة قصص قصيرة بخلاف المسرحيات، ما عدت أستطيع تأليف سوى حكايات قصيرة جداً، مبنية على أحلام، لكن الأحلام بلا حدود.

هى خواطر حقيقية نابعة من الأحلام أو شكل من أشكال التأمل اقوم بتحويلها بعد ذلك إلى قطع أدبية. لا أكتبها كما أستقبلها. إنها تدور فى ذهنى وتتحول، إنها كيمياء غريبة، فهناك الفكرة المجردة ثم الإنتاج الأدبى.

إن العملية تنجح كثيراً ولكن أحيانًا لا تنجح، هذه العملية الداخلية تستمر من أسبوع إلى أسبوعين، لكن إذا لم تؤد إلى شىء لا أُصر.

الحلم الذى يسكن رأسى الآن هو أنى رأيت جمال عبدالناصر يعطى لى خبزًا من الصعيد، وهو نوع من الخبز شديد الصلابة ينضج على حرارة الشمس (عيش شمسى) لقد قدمه لى وطلب منى تناوله. لم أفعل شيئاً بعد هذه الرؤية، سوف أكتبها إن وجدت فى نفسى القوة إنى أتركها تسكننى. إنها لا تزال فى طور التكوين.

نعم، إن الحلم هو حدود عالمى.